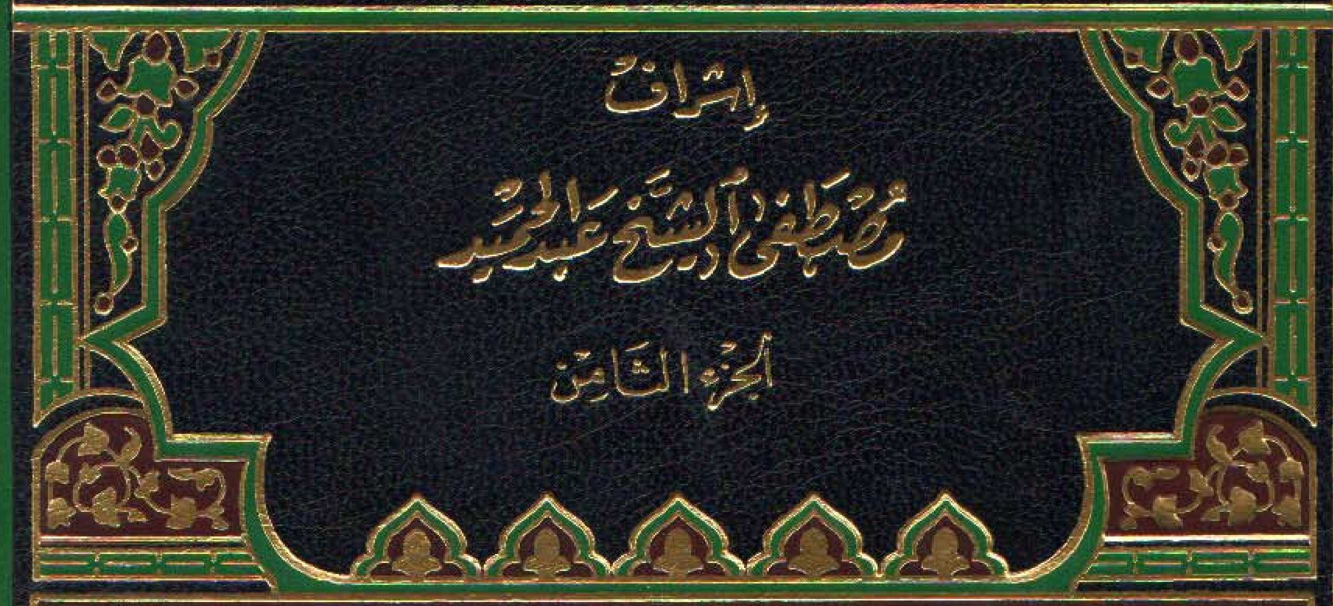
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الثامن

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث


مصورات حسين الخزاعي
لعام ٢٠١٣م


محاضرات الوائلي
رحمه الله


بسم الله الرحمن الرحيم



رحمه الله

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الثامن

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى

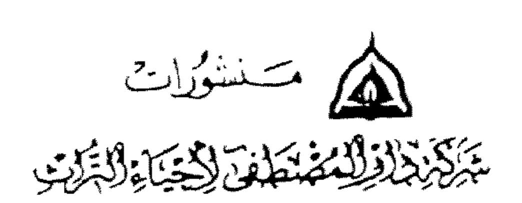
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

يطلب من:

لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة ط١ -
ص.ب: برج البراجنة - بعبدا - ٢٠٢٠ ١٠١٧ - هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢

سوريا - دمشق - ص.ب: ٧٣٣ - السيدة زينب - تلفاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٤٧٠١٢٤
محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٣٥٦٥٨٤

إيران - قم - خ سمية - ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤ تلفاكس: ٧٧٣٨٨٥٥ - ٠٠٩٨٢٥١
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿١٤٨﴾

من مسائل الفقه الدولي

«القانون الدولي الإسلامي»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في سبب نزول الآية الكريمة

هناك مجموعة من الأُمور التي ترتّبت على صلح الحديبية شكّلت بجملتها سبب نزول هذه الآية الكريمة، وهي بهذا ترتبط بمنظومة الفقه الدولي في الإسلام. وسبب النزول هو أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خرج معتمراً في السنة السادسة للهجرة

---

(١) الفتح: ٢٥.

الشريفة، وكان معه من الصحابة (١٤٠٠) صحابي، خرجوا يسوقون معهم (٧٠٠) ناقة لينحروها في الهدي. ولمّا دخلوا الحديبية وصل الخبر إلى أبي سفيان الذي جمع قريشاً وقال لهم: لا بدّ من منع محمّد من دخول مكّة. مبيّناً لهم أنه ﷺ إنما يتحدّاهم بهذا، ثم جمع الخيّالة، وكان عليهم يومئذٍ خالد بن الوليد، فأقبلوا حتى وصلوا الحديبية، وبدأت الرسل بينهم، فبعثت قريش سفراءها، وفيهم عروة بن مسعود ـ وهو جدّ علي الأكبر لأُمّه، وجدّ المختار بن أبي عبيد ـ ومعه آخر، فقالوا للنبي ﷺ: لا سبيل إلى دخولك مكّة.

فأخبرهم رسولنا الأكرم ﷺ أنه لم يأتِ للحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظّماً لحرمته، وأنه ﷺ يريد أن ينحر الهدي ويرجع. ثم أرسل ﷺ عثمان بن عفّان إلى مكّة فاحتبسته قريش وانقطع خبره، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**». ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت. فنزل قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾[1]، فسميت «بيعة الرضوان» و«بيعة الشجرة»[2].

وكان عروة بن مسعود ممّن وفد إلى الرسول ﷺ في هذا الصلح، ولمّا رجع لأصحابه قال مخاطباً إياهم: أي قوم؟ والله لقد وفدت إلى الملوك ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمداً. ووالله إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ اقتتلوا على

---

(١) الفتح: ١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها وأجمعوا أمركم [١].

فهو يؤكّد لهم أن هؤلاء كانوا بمجرّد أن يتوجّهﷺ إلى وضوئه يتهالكون على تناول وضوئه، وإذا أراد شيئاً أسرعوا بأجمعهم إلى قضائه له، وأنه رأى من الالتفاف حوله ما لا نظير له، وأنهم مستميتون دونه، فعليهم أن يحسبوا لهذا حساباً، وأن يقرّروا فيه رأيهم.

وبهذا تغيّر وضع قريش، وقرّروا الصلح مع الرسول الأكرمﷺ، فأعادوا عروة والوفد الذي كان معه إليهﷺ، فتمّ الاتفاق بينهم على أن يرجع رسول اللّهﷺ عامه هذا، وله أن يأتي بمن معه في السنة التالية للحجّ. ورأى النبيﷺ في هذا الأمر حقناً للدماء وتحقيقاً لأهداف معينة، فوافق على الصلح، ونحر الإبل (هدي التحليل)، ورجع بأصحابه، ورجعت قريش إلى مكّة. فالآية إذن نزلت لتشرح بعض المواقف لهذا الصلح.

المبحث الثاني: أن في التشريع الإسلامي قوانين دولية

وهذه الآية ترتبط بالقانون الدولي العام كما ذكرنا، وممّا يؤسف له، ويدمي القلوب ذكره أنّ فقهاء القانون عندهم عقدة من الدين الإسلامي وشريعته، فيتّهمونه بأنه ليس في تشريعاته وقوانينه أي ذكر لنظام أو قانون دولي يتعامل بموجبه مع الآخرين. وهم يعزون ذلك إلى الأسباب التالية:

السبب الأوّل: أن لغة الإسلام هي العربية

فهؤلاء يقولون: إن لغة الإسلام الرسمية هي العربية؛ لأنها لغة القرآن والسنة

---

(١) صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

والعبادة والمعاملة، واللغة العربية تمتاز بأنها لغة فيها قسر وإكراه ونوع من الجبر، أي ليس فيها أيّ مرونة أو روح دولية. والروح الدولية يفترض فيها ألّا تتّسم بطابع الإكراه، أو بنوع من القسر مطلقاً كهذا الذي تتّصف به اللغة العربية، وهو الأمر الذي يبعدها عن أن تكون لغة التشريعات والنظم والقوانين الدولية.

مناقشة السبب الأوّل

إنّ هؤلاء قد نسوا أن القانون الدولي نفسه هو قانون يقوم على الإكراه، ولا سبيل إلى تطبيقه دون اللجوء إلى الإكراه، وكمثال على ذلك مجالات تطبيق القانون الدولي على مجريات الحروب وتنفيذه فيها كما في معاهدة «لاهاي»، فإن بنودها تحتاج إلى القوّة والإكراه لتطبيقها وتنفيذها سيما مع مجرمي الحروب، وكذلك الحال في الكثير من الأمور التي تسنّها الأُمم المتّحدة ولا تجد آذاناً صاغية أو تجاوباً من الطرف المعني؛ وحينها فإن هذه القرارات تنفّذ بالقوة والإكراه. والمشرّع الإسلامي لم يخرج عن هذا الحد؛ وعليه فاللغة التي يستخدمها في الفقه الدولي لابدّ أن تكون مدعّمة بالقوّة حتى يتاح له تنفيذ أحكامه وقوانينه.

السبب الثاني: أن الإسلام لا يقوم على مبدأ المساواة

وهذا الإشكال قائم على دعوى أنّ الإسلام يميّز المسلمين عن غيرهم من الشعوب وأهل الأديان الأُخرى، ويعطيهم من الحقوق ما لا يعطيه لهؤلاء، في حين أنّ القانون الدولي يضمن هذه الجنبة لجميع الناس باختلاف أطيافهم وألوانهم وشرائحهم، فهو يتعامل بمبدأ المساواة مع الجميع.

مناقشة السبب الثاني

ولنا أن نسأل: هل إنّ هذا التمايز هو في أصل المنشأ والخلقة، أم في أصل

التعامل؟ الواضح للعيان والحقيقة التي لا غبار عليها من خلال ملاحظة نصوص الشريعة أنه ليس هناك أي تمايز بين الناس من جهة أصل المنشأ والخلقة؛ فالنص التشريعي يعلن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1]. فليس هناك تفاوت في أصل المنشأ والخلقة في الشريعة الإسلامية.

ثم إن القانون الدولي نفسه أليس قائماً على أساس التمايز؟ وإلّا فبأي حقّ تُعطى خمس دول هي أمريكا وبريطانيا وفرنسا والصين وروسيا عضويةً دائمة في مجلس الأمن؟ أليس في هذا تمايز، وتمييز بين الدول والشعوب؟ وهذه الدول كما هو معلوم لها حق «veto» ضدّ أي قرار لا ترتضيه سياستها وإن كان فيه مصلحة لغيرها من الدول.

فهل من الصواب أن تلصق هذه التهمة بالإسلام مع أنّ القانون الدولي قائم عليها؟

السبب الثالث: خصوصية الشريعة الإسلامية

يدّعي هؤلاء أنّ الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون أساساً للقانون الدولي أو مقننة له ولا تصلح لذلك؛ لأنها مطبوعة بطابع الدين، ومعنى هذا أنّها للمسلمين فقط الذين يدينون بها دون غيرهم من أبناء الطوائف والأديان الأُخرىٰ. أمّا القانون الدولي فيراد له أن يكون عالميّاً عامّاً يشمل كل أبناء البشر.

مناقشة السبب الثالث

وهذه مغالطة؛ لأنّ الشريعة الإسلامية والقانون الدولي يستهدفان شيئاً واحداً

---

(١) الحجرات: ١٣.

هو السير بالإنسانية نحو التكامل، ورفع مستواها. فالشريعة الإسلامية تعالج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والجانب الجنائي عند الإنسان؛ حيث ترتفع به عن مستوى الغرائز، وتدفعه إلى التكامل.

إذن يتّضح مما مرّ أنّ جميع العناصر التي يطلبها القانون الدولي ميسّرة في الإسلام.

القانون الدولي الإسلامي

هو مجموعة من القواعد والنظم التي تفرض على المسلمين التعامل مع غير المسلمين داخل البلاد الإسلامية وخارجها.

فالآية إذن ـ وفق هذا المنظار ـ ترتبط بالفقه الدولي العامّ، وتنظّم علاقات المسلمين مع غيرهم.

المبحث الثالث: في معنى ﴿صَدُّوكُمْ﴾

تقول الآية الكريمة: **﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾**، أي منعوكم من الوصول إلى مكّة. والمنع هنا يقع من شيئين، أو على نحوين:

الأوّل: الغذاء الروحي

والمراد به العمرة؛ لأنّ المعتمر يرجو رضا اللّه تعالى والقرب منه، وهو غاية الغذاء الروحي فهو وافد على اللّه تعالى، طالب رحمته راغب في رفده وثوابه. فلسان حاله: أنا قادم لأعتمر ولأعمر بيتك. ومعلوم أن من يُقصد من البشر يكرّم من يفد إليه، فكيف إذا كان المقصود هو اللّه تعالى رب الجود ومنبع الكرم؟ فهؤلاء إذن منعوا المسلمين من الحصول على الغذاء الروحيّ هذا.

الثاني: الغذاء المادي

وهو غذاء متمثل بالهدي الذي يساق لينحر فيأكله الفقراء. فهذه الشعيرة توفّر غذاءً مادياً للفقراء والمحتاجين. والهدي في العمرة يذبح في مكة، أمّا في الحج فيذبح في منى. وكان الهدي بعد أن يذبح يلقى على الأرض ويترك، أمّا الآن فقد انحلّت هذه المشكلة ولو بشكل جزئي. وممّا ينبغي ذكره هنا أنّ في مجتمعاتنا الإسلامية ثروات تعدّ عامّة وفق تشريعنا الإسلامي، فلو أنّها تحت أيدٍ أمينة فتأخذ طريقها إلى خدمة المجتمعات الإسلامية الفقيرة عن طريق صناديق الزكاة والحقوق والبرّ! ولو أن لها تنظيماً على مستوى الحاجة والواقع والمشاكل التي يعيشها المسلمون! ولو أنّها تكون بعيدة عن التشنّجات الشخصية والمذهبية! لكن مانراه اليوم ـ وهو مما يؤسف له ـ أنّ بعض المسلمين إذا مرّ بمسلم على غير مذهبه، محتاج فإنّه لا يمنحه شيئاً مع علمه بجوعه وبؤسه.

إنّ فقهاء الإماميّة أمروا بإعطاء الحقوق الشرعية إلى إخواننا المجاهدين في فلسطين والبوسنة وغيرهما بغض النظر عن المذاهب التي يتمذهبون بها ما دامت مذاهب إسلامية. وهذا ينبئ عن أننا لا نملك أُفقاً ضيّقاً، بل نحن نملك أفقاً واسعاً وتطلّعات رحَبة.

وهكذا كانت الذبائح تلقىٰ على الأرض دون أن يستفاد منها، أمّا الآن بفضل الوسائل الحديثة فقد بدئ بتعليبها وإرسالها إلى جياع المسلمين. وليت هذا الأمر يتعدى الهدي إلى كل ثرواتنا؛ فالمجتمع بأمسّ الحاجة إلى أن تأخذ هذه الثروات طريقها إليه؛ ليفيد منها ويسدّ بعضاً من حاجاته. وهذه المسألة تحتاج إلى تنظير وتنظيم لتكون في خدمة المؤمنين عامّة.

فالآية تشير إلى منع المشركين المؤمنين وصدّهم إياهم عن وصولهم إلى

الديار المقدّسة، وبالتالي فهؤلاء يصدّون ويمنعون الخير عن أن يصل إلى الجياع والفقراء.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً﴾ أي محبوساً، فقد حبس في منطقة الحديبية، حيث منع المشركون المسلمين من الوصول إلى البيت الحرام. وهذا ما اضطرّ النبيّ ﷺ إلى نحر الهدي هناك والرجوع بأصحابه إلى المدينة المنوّرة.

المبحث الرابع: مشروعية التقية ومراعاة حرمة المسلم

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾، وهي تشير إلى جماعة من المؤمنين قد أخفوا أنفسهم عن قريش خشية أن ينالهم أذاها؛ كسهل بن جندل، وابن أبي ربيعة، وهشام، ومجموعة من النساء. فهؤلاء كانوا يرون أنهم إذا أعلنوا إيمانهم فإن قريشاً لن يمنعها مانع ولن يردعها وازع عن أن تمتد ايديها إليهم بالعذاب وأن تعرضهم للموت. وهم يعلمون أن الروّاد الأوائل قد تعرضوا إلى مستويات مرعبة من التعذيب.

وهذا المقطع من الآية الكريمة يعالج جانبين مهمين:

الأوّل: مسألة التقية

فهؤلاء قد أخفوا أنفسهم خوفاً من قريش، وحسب تعبير الآية ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾. ونفهم من هذا أنّ الإنسان إذا ما اضطرّ فله أن يستعمل التقية. فلو كان عملهم هذا غير مشروع لأرسل إليهم النبي ﷺ وقال: أعلنوا إسلامكم. إنّ المذاهب الإسلامية بأجمعها تقول بالتقية، وعند الرجوع إلى تاريخنا وقواعدنا الشرعية نجد أنهما يدفعان الإنسان دفعاً إلى التقيّة فيما لو وقع بين أُناس لا يملكون حرّية

الرأي، حيث إنّه يضطرّ حينها إلى أن يبطن خلاف ما يظهر؛ حفظاً لنفسه[١]. وهنا تقدّر الضرورة بقدرها، فهذا المعنى استعمله الصحابة وأقرّهم النبي ﷺ عليه.

ومما هو غير واقعي بحال أن يأتي بعض الكتاب الذين لا تُلمس على أقلامهم أيّ روح إسلاميّة فيعالجوا هذا الموضوع باستعراض العضلات، وما ذلك إلّا لأنهم لم يمرّوا بالتجربة التي مرّ بها القائلون بالتقية، حيث إن القائلين بالتقية كانوا قد عايشوا المذابح التي كانت تجري من غير سبب ودونما وازع أو مانع من أمر اللّه تعالى أو ضمير حيّ. وما يثار حولنا من نقاط تعتبر موجبة للاتّهام من وجهة نظر هؤلاء هي إثارات منكرة وواهية لا تستند إلى أي دليل. ومن هذه الإثارات اتّهامنا ورمينا بأننا نقول بأنّ أُمّ المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ كانت منحرفة، ونحن نتحدّى هذا المتّهم بأن يجيئنا بمصدر واحد معتبر من مصادرنا يشير إلى هذا المعنى. فهذا اللون من التهم ينمّ عن سوء طويّة وخبث سريرة، وإلّا فإننا لا يمكن أن نتجرّأ على زوجة رسول اللّه ﷺ بمثل هذا؛ لأنّه تجرّؤ على مقام رسول اللّه ﷺ وخدش لمنزلته وانتقاص من كرامته.

وكان ما سوّد وجه تاريخنا هو وجود فتاوى طويلة عريضة ذهب بسببها الكثير من الخلق، ومن يرد أن يطّلع على هذا فلينظر كتاب ابن عابدين (الفتاوى الحامدية) وليدقّق في حيثيتها ومدركها، فقد أمر بقتل الشيعة لأنّهم كما يدّعي يلوكون في سيرة أم المؤمنين عائشة ويرمونها بالانحراف[٢].

ونحن نخاطب هؤلاء كمسلمين ونقول لهم: أين يوجد هذا؟ ولماذا تحاولون أن تمزّقوا وحدة المسلمين.

---

(١) مرّ أمر واصل بن عطاء مع الخوارج في محاضرة (الجوار في الإسلام) ج ١ من كتابنا هذا.
(٢) انظر الفصول المهمّة (شرف الدين): ١٤٤ ـ ١٤٥.

إذن فالإنسان حينما يعيش مع أمثال هذه النماذج وبينهم فإنه يضطر إلى العمل بالتقيّة. وهذا العمل له مداركه في التشريع الإسلامي، قال تعالىٰ: **﴿لاَ يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾**[١]. جاء الحجّاج بن علّاط السلمي مرّة للنبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن لي بمكّة مالاً، وإن لي بها أهلاً أُريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء[٢].

وهناك عشرات الأدلّة على ذلك، وقد بحثها الفقهاء وناقشوها[٣]. فالتقيّة موجودة عند المسلمين بصورة عامّة، مع أنّ بعض ذوي الأقلام الرخيصة يسخّرون أقلامهم في التهريج في هذا الباب بعيداً عن روح الإسلام (نسأل اللّه تعالىٰ أن يخلّصنا من أمثال هؤلاء الذين لا يشعرون بشيء من المسؤولية تجاه وحدة المسلمين).

الثاني: الارتفاع بمستوى الصحابي عن القتل الخطأ

فهذا المقطع من الآية الكريمة يريد أن يرتفع بمستوى أصحاب النبي ﷺ عن إراقة الدم والاعتداء على الغير، ومن هذا قوله تعالىٰ: **﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾**[٤]. ويتقرّر أنه لا يوجد صحابي لأحد الأنبياء عليهم السلام من يسحق كائناً ضعيفاً وهو يعلم به ويشعر بوجوده؛ لأنهم (رضوان اللّه عليهم) على خلق عالٍ ولا يعتدون على مسلم وهم

---

(١) آل عمران: ٢٨. (٢) بحار الأنوار ٢١: ٣٤، مسند أحمد ٣: ١٣٨.

(٣) نيل الأوطار ٨: ٨٤ ـ ٨٥، وانظر محاضرة (الحرّيّة الشخصيّة من منظور إسلامي) ج ٢ من كتابنا هذا. (٤) النمل: ١٨.

يشعرون، فإن عرفوه لم يقدموا على أذاه. وهكذا آية المقام؛ فهي جاءت تؤكّد هذا المعنى: **﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**.

وهي هنا تشير إلى هذه الثلّة من المؤمنين الذين أخفوا إيمانهم وعقائدهم خوفاً من أذى قريش وانتقامها، وتقول لهؤلاء: إنكم إذا دخلتم فإنهم سيذهبون ضحية تحت أقدامكم، وقد تقتلونهم وأنتم لا تشعرون بهم. فالآية الكريمة إذن في مقام إعطاء جوّ حول حرمة المسلم واحترام دمه، ثم تقول لهم: إنكم إذا دخلتم هذا البلد فعليكم أن تأخذوا بنظر الاعتبار هذه المسألة الحساسة، فلو أنّ النبي ﷺ سمح لكم بدخول البلد الحرام قبل تنبيهكم إليها لراح ضحية لكم هؤلاء الثلة من المؤمنين.

مفارقات تاريخية وآراء بعض مفكري أهل السنة فيها

ونحن نقول: إذا كان الأمر هكذا فما هو موقف المسلم ممّن يقدم على قتل مسلم وهو يعلم أنه مسلم؟ إنّ هناك ثغرات في تاريخنا لابدّ من تصحيحها، فبعض الحوادث التاريخية ليس لها أي تفسير موضوعي، ولا يوجد لها أي مبرّر مقنع، ومن ذلك دعوى ارتداد مالك بن نويرة ﵁ وأصحابه أيّام الخليفة الأول، وبالتالي تعرّضهم للقتل غيلة وغدراً، وبناء خالد بزوجة مالك ليلة قتله، وبالرجوع إلى كتابات بعض المفكّرين المنصفين من السنّة نجد أنهم يقولون بخلاف ما صُوّرت عليه قضية امتناع مالك عن أداء الزكاة إلى الخليفة الأوّل، وهي شهادات تتسم بقول الحق والابتعاد عن التشنّج والتعصب ضد الآراء المحظورة، ومنها:

الأولى: شهادة علي عبد الرزاق(١)

يقول هذا الكاتب في مؤلّفه (الإسلام وأُصول الحكم): إنّ بعض الذين قاتلهم الخليفة الأوّل على أنهم منعوا الزكاة، لم يمنعوا الزكاة، وإنّما امتنعوا عن الإذعان لحكمه.

الثانية: شهادة ابن قيم الجوزية

إنّ ابن القيم هذا يعدّ داعم فكر ابن تيمية ومروّج آرائه؛ فهو أحد تلامذته، بل تلميذه الأوّل، وهو ثروة علمية ضخمة. يقول حيال هذه المسألة: إنّ جماعة مالك بن نويرة لم يكونوا رافضين للإسلام، وإنهم غير مرتدّين عنه، وكل ما في الأمر أنهم اجتهدوا فأخطؤوا؛ حيث إنهم ظنوا أنّ الزكاة مقيّدة بدعاء النبي ﷺ، فالآية الكريمة تقول: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(٢)، فهؤلاء كانوا يظنون أنّ الزكاة لا تدفع إلّا إلى النبي ﷺ لأنه سيدعو لهم مقابلها، أمّا بعد وفاة النبي ﷺ فليس هناك من سيدعو لهم.

وهذه شهادة قيّمة نعتزّ بها من ابن القيّم، فهو يقرر أنّ هؤلاء لم يكفروا، وهذا من قبيل أن (المشروط عدم عند عدم شرطه) فالحكم (الزكاة) مشروط بـ(الدعاء) وهو الشرط، فلمّا انعدم الدعاء انعدم المشروط (الزكاة). وبالنتيجة فهو يقرّر بأن

---

(١) أحد علماء الجامع الأزهر الذي صرّح بعدم مشروعيّة الخلافة التي حصلت بعد رسول الله ﷺ في كتابه الذي سيذكره المحاضر، وذلك بقوله: إذا أنت رأيت كيف تمّت البيعة لأبي بكر واستقام له الأمر، تبيّن لك أنها كانت بيعة سياسيّة ملكيّة عليها طابع الدولة المحدثة، وأنها قامت كما تقوم الحكومات على أساس القوّة والسيف. الإسلام وأُصول الحكم: ١٨٣.

(٢) التوبة: ١٠٣.

هؤلاء تأوّلوا فأخطؤوا، وأنهم كانوا يصلّون، وكان مؤذّنهم ينادي: **«أشهد أن لا إله إلّا اللّه»**. فهل هؤلاء مشركون أو مرتدّون؟

وأكبر دليل على هذا استقبال الخليفة الثاني لجيش خالد وقوله له بعد رجوعه من فعلته تلك: يا عدوّ نفسه، قتلت امرأً مسلماً ونزوت على زوجته! واللّه لأرجمّنك بأحجارك[١].

وهكذا نجد أنّ الآية الكريمة تريد أن تطهّرنا وتطهّر أيدينا عن أن تلغ بدماء المسلمين، ومشاعرنا وألسنتنا عن أن تطال أعراضهم، وألّا يحمل مسلم على مسلم حقداً. فهي تذكّر المسلمين بأنهم سيقدمون على بلد فيه مجموعة من المسلمين، وربما حصل هجوم منهم على المشركين فتذهب هذه المجموعة ضحية تحت الأرجل دون علم منهم وقصد، وأنّ عليهم استشعار حرمة المسلمين الموجودين في مكة، فمن المستحيل دخولهم فيها وهم لا يعرفون أنّ فيها هذه المجموعة منهم. فالمنع من دخول مكة إذن كان حرصاً على الدماء الإسلامية.

ادّراع الكافر بالمسلم

وفي هذه الآية حكم شرعي يذكره الفقهاء في باب الجهاد، وهو: لو أنّ جماعة من المشركين أو الكفّار تترّسوا بجماعة من المسلمين ـ وهذا أمر تتبّعه غالباً الحروب الحديثة، وهو ما يسمىٰ بالدروع البشرية ـ فالآية صريحة في أنّ على المسلمين عدم مقاتلة هؤلاء الكفار حفظاً على أرواح المسلمين من التلف. ومن

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٥٠٤، الكامل في التاريخ ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩، تاريخ الأُمم والملوك ٣: ٣٨٠.

الفقهاء الذين يتبنّون هذا الرأي الإمام مالك[1] وجماعة آخرون[2]؛ فقد سئل مالك بأنّه لو كانت هناك سفينة لكفار فيها أسرىٰ مسلمون، فهل يجوز للجيش الإسلامي أن يضرب السفينة بالنار ليقتل من عليها من الكفّار، وربما راح قسم من المسلمين الأسرى الذين فيها ضحية؟ فقال: لا يجوز ذلك، ومن يقدم عليه عامداً عارفاً فعليه الدية والكفارة. بل إنّه يذهب إلى المنع حتى عند ادّراع الكافر بالمسلم لحظة الحرب.

وكذلك الشوافع فإنهم يميلون إلى هذا الرأي[3]. أمّا الأحناف[4] والثوري[5] والإماميّة[6]، فيخالفونهم في هذا الرأي. وللقرطبي رأي في هذه المسألة حيث يقول: «قد يجوز قتل الترس، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية:

فمعنى كونها ضرورية أنه لا يحصل الوصول إلى الكفار إلّا بقتل الترس.

ومعنى أنها كلية أنها قاطعة لكلّ الأمةّ حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كلّ المسلمين. فإن لم يُفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كلّ الأُمّة.

ومعنى كونها قطعية أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً.

قال علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يُختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي

---

(١) قريب منه ما عنه في المحلّى ٧: ٣٠٦ / ٩٣٢.

(٢) انظر المغني ٩: ٣٩٩.

(٣) انظر: الأم ٤: ٢٦٠، المجموع شرح المهذب ١٩: ٦، روضة الطالبين ٧: ٤٤٧، حواشي الشيرواني ٨: ٢٩٦.

(٤) انظر: المبسوط ١٠: ١٥٤، ١٩٨، حاشية ردّ المحتار ٢: ١٨١، ٤: ٣٠٥.

(٥) انظر أحكام القرآن ٣: ٥٢٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٨٧.

(٦) انظر: المبسوط ٢: ١١، السرائر ٢: ٨، منتهى المطلب ٢: ١٠ (حجري).

هي استيلاء العدوّ على كلّ المسلمين، وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون.

ولا يأتي لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه تلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم»[١].

على أية حال فإنّ هذه المسألة كانت محل نقاش عند المسلمين وموضع أخذ وردٍّ فيها، وهو مبتنٍ على اختلاف فهم الدليل من كونه يجيز مدّ اليد إلى المسلم الذي تدرّع به الكافر أو لا يجيز ذلك.

المبحث الخامس: في معنى المعرّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾، فما معنى المعرّة، وما المراد بكونها تصيبهم؟ أي ما الذي سيصيب أصحاب النبيﷺ فيما لو دخلوا البلد الحرام وقتلوا هؤلاء المسلمين وهم لا يشعرون؟ هناك عدة نقاط حول المسألة سنتناولها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

أوّلاً: المعرّة النفسية

وهي أضخم المعرّات التي يمكن أن يمرّ بها الفرد المسلم؛ فإنّه إذا قتل مسلماً دون علم منه بأنّه مسلم ثم عرف بعد ذلك هذه الحقيقة، فسوف لن يهدأ له بال ولن يستقرّ، بل إنّه سيظل يأكل بنفسه ويشبعها لوماً وتقريعاً، وسيعضّ أصابع الندم على ما يظن أنه فرط منه أو فرّط فيه. وقد حدث مثل هذا أيام الإمام زين العابدين عليه السلام؛

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٨٧ ـ ٢٨٨.

حيث إنّ الزهري كان قاضياً فجيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة، وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه. وسأل عنه الإمام السجادعليه السلام مرّة فقيل له: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمامعليه السلام وقال له: **«إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة اللّه أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك»**. فقال الزهري: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، لقد فرّجت عني فرّج اللّه عنك، أشهد أنك زين‌العابدين. ثم رجع الى أهله وماله[2].

فأوّل معرّة تصيب الإنسان إذن هي تأنيب الضمير واللـوم الذي سـيعرّض له نفسه.

ثانياً: أنّ الدية تجب في هذا القتل

فمن المعرّة أيضاً دفع الدية لأهل القتيل، وهذا أمر يصعب على الإنسان أيضاً وفيه شدّة ومشقّة عليه؛ ولذا كان معرّة.

ثالثاً: إرجاف المشركين بأنّ الرسولصلى الله عليه وآله وسلم قد قتل أصحابه

وهذا ما ستستغلّه قريش في حملتها الدعائية ضد الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم، فإنها سترجف وستروّج بأنّ الرسولصلى الله عليه وآله وسلم قد فرّط بأصحابه وقتلهم من أجل الوصول

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨، ومثله موقف أُسامة بن زيد؛ حيث قال: سوف لن أُشهر سيفي بوجه مسلم بعد أن قتل أعرابياً نطق بالشهادتين، وقال له النبيصلى الله عليه وآله وسلم: يعنّفه: «هلا شققت عن قلبه». مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧.

إلى البيت المحرّم.

وهذا المعنى كان يدور في خلد النبي الكريمﷺ؛ حيث إنّه (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آله) كان يلاحظ ويعرف أنّ هؤلاء يترصدونه. وعليه فيكون معنى ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾: فيصيبكم عار بسبب ذلك.

المبحث السادس: حرمة الجنين في بطن أُمّه

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، ومعنى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾: تميّزوا، أي لو أنّ المسلم على حدة والكافر على حدة، وتميّز هذا من هذا وعرف، فإننا سنعطيكم الإذن بالدخول إلى مكّة. لكن بما أنّ المسلم ضائع بين المشركين، وربما قتل وأنتم لا تعلمون به، فأنتم غير مأذونين بالدخول إلى البلد الحرام وغير مسموح لكم بذلك.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى أنّ من هؤلاء الموجودين في مكة سيخرج أُناس مسلمون فالأُمهات يحملن في أرحامهن أجنة والأباء يحملون في أصلابهم نطفاً، وهؤلاء سيجعل اللّه منهم مسلمين، فلا تقتلوهم حتى تلد النساء هؤلاء. والمسألة لا تتعدىٰ السنة، فلتتحمّلوها. كما أنّ هؤلاء ربما تبين لهم محاسن الإسلام خلال هذه السنة فيسلمون ويدخلون فيه وفي رحمة اللّه. فالآية الكريمة تراعي هذين الأمرين أيضاً ولذا لم تسمح لهم بدخول مكّة.

من مظاهر رعاية الجنين في الإسلام

ونفهم من هذا أنّ للجنين في بطن أُمّه حرمة يجب أن تراعى، فالشريعة الإسلامية تمنحه حصانة وصيانة، وسوف نذكر بعض اللمحات أو المظاهر التي

يأخذها المشرّع الإسلامي بنظر الاعتبار في هذا المعنى:

الأولى: بطلان صوم الحامل إذا أضر بجنينها

ففي شهر رمضان المبارك مثلاً لو أنّ امرأة حاملاً أرادت الصيام وكان الصوم يضرّ بحملها ويؤذيه فإنّ عليها أن تفطر(١) مع أنّ الصوم ركن من أركان الإسلام، لأنّ الجنين امتداد للنوع الإنساني؛ ولذا وجب حفظه ومراعاته؛ فهو نواة لفرد مسلم.

الثانية: وجوب شقّ بطن الحامل المتوفاة لإخراج الجنين

وهناك حالة أُخرىٰ هي ما إذا ماتت إمرأة حامل، فإنّ الفقهاء يفتون بضرورة شقّ بطنها وإخراج الجنين منه(٢)؛ لأن المرأة إذا كانت قد ماتت فإنّ الجنين حي، والحفاظ على حياته كونه نواة فرد مسلم أهم من الحفاظ على كرامة الميت هنا. فهذا الجنين هو مشروع فرد مسلم، وخسارته خسارة لرصيد المسلمين. وكل ما في الأمر أنّه قدّر له أن يخرج عن هذا الطريق.

الثالثة: ملاحظة حال الجنين عند علاج الأم

فمثلاً لو أنّ امرأة حاملاً مرضت، فإنّ على الطب ـ من وجهة نظر المشرّع الإسلامي ـ أن يأخذ بنظر الاعتبار أنّ العلاج الذي سيصرفه للمريضة الحامل يجب ألّا يؤدي إلى حدوث مضاعفات عند الأم تؤدي بدورها إلى الإضرار بالجنين، أو يؤدي إلى الإضرار بالجنين مباشرة، فإنّ كان مضرّاً به بإحدى

---

(١) انظر: مختلف الشيعة ٣: ٥٤٩، إيضاح الفوائد ١: ٢٣٥، الأم ٧: ٢٢٦.

(٢) المجموع شرح المهذب ٦: ٢٦٩. تحرير الأحكام ١: ١٣٣، البيان: ٣٢، المهذب البارع ١: ١٨٥.

الحالتين حرم عليها تناول ذلك العلاج[١].

الرابعة: مراعاة الذمّة المالية للجنين

والمشرع الإسلامي المقدّس يلاحظ حتىٰ جنبة الذمّة للجنين ويحترمها، فلو أنّ رجلاً توفي عن ورثة وزوجة حامل، وكان الورثة يستعجلون قسمة الميراث،فإنّ الشارع المقدس يتدخّل هنا لصالح الجنين ولا يضيّع حقّه، مع أنّ الحمل غير معروف على نحو التفصيل من كونه ذكراً أم أُنثى، أو واحداً أم أكثر من واحد. وهذه المسألة خاضعة لاختلاف المذاهب وآراء المجتهدين؛ فكل مذهب وكل مجتهد يميل إلى رأي معيّن يختلف فيه غالباً عن آراء بقية المذاهب الأُخرىٰ:

فرأي الإمامية أنّه يترك له حصة توأمين ذكرين لاحتمال حمل المرأة بذلك[٢]. وإن كان البعض من فقهائنا يذهب إلى أنه يُترك له حصتان.

أما فقهاء المذاهب الأُخرىٰ فيختلفون في ذلك اختلافاً كبيراً؛ فمنهم من يذهب إلى أنّه يترك له حصة مولود ذكر واحد؛ لأنه هو الغالب، ومنهم من يذهب إلى أنّه يترك له حصة مولودين: ذكر وأُنثىٰ، أما البعض الآخر فيرى أنّه يترك له سبع حصص[٣]، (أي حصة مولودين ذكرين وثلاث إناث). وهذا ما يرىٰ أحياناً في المستشفيات من غرائب الولادات حيث تلد بعض النساء توائم متعدّدة، سيما بعد انتشار عقاقير الخصوبة وصيرورتها بيد المرأة، وهي عقاقير تزيد من احتمالات

---

(١) انظر: تحرير الأحكام ٢: ٢٧٨ (حجري)، مواهب الجليل (الرعيني) ٨: ٣٣٤.

(٢) جواهر الفقه: ١٦٥ / المسألة: ٥٨٦.

(٣) الشرح الكبير ٧: ١٣٩ ـ ١٤٠، كشاف القناع ٤: ٥٥٦، ومنهم من يرى أن يترك له حصة أربعة ذكور، انظر: روضة الطالبين ٥: ٤٠. ومنهم من يرى أن يترك له حصّة ذكرين، انظر كشّاف القناع ٤: ٥٥٦.

الولادة لمن لا تلد وتزيد من عدد الأجنّة.

ففقهاء المسلمين أخذوا حق الجنين بنظر الاعتبار، وعملوا بالاحتياط فيما يمكن أن يكون عليه من حيث العدد.

المبحث السابع: النظم في الآية

وعليه فإنّ الفقهاء يستفيدون من هذه الآية ﴿**لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ أنّ غير المؤمن ربما كان في صلبه نطفة يمكن أن يخرج منها مسلم. والمقصود من ﴿**رَحْمَتِهِ**﴾ هنا: الإسلام؛ لأنّه موجِب لها. وهذا هو داعي منع المسلمين من وصول البيت الحرام تلك السنة، وفعلاً خرج من أصلاب بعض هؤلاء أُناس مؤمنون. وهذه القاعدة عامة وليست مختصة بأهل مكة وحدهم، فعبدالله بن أُبي كان رأس المنافقين، لكن ابنه ﷺ وصل إلى درجة من الإيمان أن طلب من النبي ﷺ أن يتولّىٰ ضرب عنق أبيه حينما قال: والله ﴿**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾[1]. وكان حينما سمع بكلامه هذا قد وقف له بباب الدار في المدينة عندما رجع وقال له: والله لا تدخل البيت حتى يرضى عنك رسول الله ﷺ، وحتى تعرف من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ.

ثم جاء فدخل على النبي ﷺ وقال له: روحي لك الفداء يا رسول الله، لقد سمعت ما قال أبي، وعلمت أنه قد آلمك به، فإن كنت تريد قتله، فائذن لي بأن أتولّى أنا ذلك. فقال له ﷺ: «**لماذا؟**». قال: لأمرين:

الأوّل: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل الآباء والأبناء.

والثاني: أني أخشىٰ أن تدركني حميّة الجاهليّة، فأقتل قاتل أبي لعلّي لا أصبر

---

(١) المنافقون: ٨.

علىٰ رؤيته إذا رأيته، فأرتدّ عن الإسلام[١].

فعفا عنه الرسول الأكرم ﷺ إكراماً له.

وهذه المسألة ليست سهلة حتى إنّ بعض الفقهاء في مسألة القصاص وولي الدم يرى أنّ الدولة هي التي يجب أن تقتصّ من القاتل وتنتصف لولي الدم وتأخذ بثأره؛ لأنّ ولي الدم إذا باشر ذلك بنفسه فإنّ المشكلة تبقىٰ قائمة، والأحقاد تظلّ متوارثة؛ ولذا كان الأولىٰ أن تتولّى الدولة نفسها تنفيذ القصاص وإن كان بعض الفقهاء يرى أنّ ولي الدم هو الذي يجب أن يتولّى التنفيذ[٢].

المهمّ أنّ قسماً من الفقهاء يميلون إلى الرأي الأوّل، وهو أن يتولّى الحاكم العادل المسلم تنفيذ الحكم ولا يترك ذلك إلى أحد كيلا يدع للأحقاد والضغائن أن تتوالد وتستمرّ في الأجيال. فهذا الرأي قائم على أساس امتصاص هذه الأحقاد من نفوس ابناء الطرفين، وعدم استمرار ذلك فيهم وفي أبنائهم وأعقابهم؛ فالقاتل سيظل مصدراً للألم ومبعثاً له في نفوس ذوي المقتول، وهكذا تستمرّ السلسلة.

يقول المنهال: ذهبت للحج وجعلت طريقي على المدينة، فجئت أزور الإمام زين العابدين عليه السلام، ولما دخلت عليه قال: **«يا منهال، ما صنع حرملة؟»**. فالإمام السجاد عليه السلام ابن أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يمرّ على القتلىٰ والجثث ويترفّع عن أن يتأوّه أو أن يقول شيئاً غير ما يرضي اللّه تعالىٰ، وهو ابن الحسين عليه السلام الذي كان يبكي لأجل أنّ أعداءه وقاتليه سيدخلون النار بسببه، لكنه عليه السلام مع ذلك قد أحدث مصرع عبد اللّه الرضيع الذي قتل بسهم لحرملة هذا لوعة في نفسه الكريمة، وخلّف منبعاً للألم كبيراً في قلبه الشريف؛ لأنّه رأى المشهد بعينه حيث رجع أبوه

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٢) حول هذا المبحث انظر فقه السنّة ٢: ٥٣٤.

السبط عليه السلام حاملاً الرضيع على يديه وهو يرفرف كالطير المذبوح. وحينما امتلأت يده من دمه رمىٰ بها إلى السماء وقال: **«اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح»**[1]. ثم عاد به إلى أُمّه قائلاً: **«رباب خذي إليك ولدك مذبوحاً»**:

ولو تـــراه حـــاملاً طـفله ... رأيت بــدراً يــحمل الفــرقدا

مُـخضّباً مـن فـيض أوداجـه ... ألبسه سهم الردى مجسدا[2]



---

(١) لم نعثر عليه عند مصرع الطفل الرضيع، لكن ورد هذا الدعاء عند مصرعه عليه السلام حيث إنه عليه السلام جعل يأخذ الدم من نحره فيرميه إلى السماء، ولا يرجع منه شيء. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

(٢) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿ ١٤٩ ﴾

الحرية الدينية في التشريع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِـاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: العقيدة ضرورة حياتية عند الإنسان

هناك مجموعة من الحرّيات التي تكفلها الشرائع السماوية والقوانين الإلهية للإنسان، وفي طليعة هذه القوانين حرية المعتقد؛ فالإنسان لا يمكن أن يعيش من غير عقيدة يعتقدها أو دين يدين به. ولو تتبّعنا التنقيبات الأثريّة عن الأُمم السابقة والحضارات البائدة فإننا سنجد من خلال الحفريات أن كل منطقة مأهولة عند هذه الأُمم والحضارات ربما كانت تخلو من مستشفىً أو ملعب أو مكان للمصارعة، لكن من غير الممكن ألاّ نجد فيها آثاراً لمعبد كان يرتاده أبناء تلك الحضارات القديمة[٢]. فالمعبد كان أمراً ضرورياً للإنسان من القدم يسير معه في رحلته في

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) يقول عالم الآثار الألماني بلوتارك: «من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار ولا آداب أو

الحياة؛ لأنّ الإنسان في أصل فطرته يمتلك شعوراً ـ أو يتوفّر عليه ـ بأنّه لابدّ من وجود قوة خفية تحميه، وجهة ما تمتلك القدرة والقوّة والقابلية على أن تتحكم في حياته ومصيره وتوفّر له الحماية من شرور قوىٰ الشرّ التي كان يرى أنّها موجودة في كل مكان. وهذه القوّة الخفيّة لها القابلية المطلقة على أن تؤثّر عليه بصورة مباشرة.

حدود الحرية الدينية

وما يعبده الإنسان يختلف من حضارة لأُخرىٰ، ومن أُمّة لأُمّة، ويناط ذلك الاختلاف بمستوى تفكير أبناء الحضارات وقابلياتهم على فهم الحقائق والظواهر وهضمها. وهكذا فإننا نجد أن البعض يعبد أشياء ماديّة والبعض الآخر يعبد أشياء معنوية.

لكن هنا يرد سؤال هو: إلى أي مدى يمكن أن تضمن الحريّة الدينية العقيدية للإنسان؟ والجواب أنها تضمن له ما دامت لا تشكل مورد مضايقة لحرّيّات الآخرين الدينية أو لعقائدهم. فمسألة العقيدة أمر حيوي وضروري لكل إنسان، ويجب مراعاتها. وهنا يبرز جانب من المشكلة وهو أنّ بعض الناس يمتلك عقيدة «أنّ لا عقيدة»، أي أنه لا يؤمن بالأديان وبوجود إله خالق حيّ رازق، وأقلّها أنه لا يؤمن بوجود قوة خارجية تتصرّف في الكون وتتحكّم في العالم. وهذا طبعاً يعاكس فطرته التي تحكم بهذا الأمر وبوجود هذه القوّة الخارجية؛ وبالتالي فإنّه لا يحترم حريته ولا حرية غيره.

☚ مسارح، ولكن لم يرَ إنسان قط مدينة بلا معبد أو شعباً لا يمارس الصلاة». الإسلام رسالتنا / السنة الثالثة: ١٠.

ثم إنّ كل عقيدة لابدّ أن تحتوي على جوانب تنظيمية للحياة، فالعقيدة تنظم الحياة، ومن المستحيل أن تجد عقيدة ليس فيها نظام أو قوانين تحكم العلاقات وتبرمج الحياة. ومن لا عقيدة له فلا نظام يحكم حياته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية ومعنى الإكراه فيها

وبعد هذا التوضيح نرجع للآية الكريمة فنقول: هناك عدة آراء في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وفي معنى الإكراه الوارد فيها، نذكر منها:

الرأي الأوّل: أنّها في أهل الكتاب خاصة

أي في اليهود والنصارىٰ. والمراد هنا: أنّ لهؤلاء حرية البقاء على عقائدهم ودينهم الذي يدينون به، ولهم ألّا يجبروا على الدخول في الإسلام. ومن هذا ما كان من أمر بعض العرب وغيرهم من أنّهم يفضلون المقلات (وهي التي لا يعيش لها ولد[١] أبداً، أو التي تحمل مرة واحدة فقط[٢]). يقول الشاعر:

بُغَاثُ الطَّيرِ أكثَرُهَا فِرَاخاً وأُمُّ الصَّقرِ مَقلاتٌ نَزُورُ[٣]

فالذي يريده الشاعر هنا أن الطيور العادية تبيض كثيراً؛ فتكون فراخها كثيرة لكنها لا فائدة فيها، أما الصقر فتبيض أُنثاه بيضة واحدة لكنه سيّد الفضاء[٤]، ثم يشبه الأُم الولود بعادي الطيور، والمقلات بأُم الصقر تمييزاً لها عن غيرها، وأن

---

(١) الكنز اللغوي: ٩١، الصحاح ١: ٢٦١ ـ قلت، وهي هنا بخصوص المرأة.

(٢) الصحاح ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢ ـ قَلَت، وهي هنا بخصوص النياق.

(٣) اختلف في قائله. شرح نهج البلاغة ٦: ١٥٥، ١٣: ٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ١٤٩، ٥٠: ٨٤، ٨٥.

(٤) يقول الشاعر:

وفي الزرازير جبن وهي طائرة وفي البزاة شموخ وهي تحتضرُ

ابنها مليء بالعنفوان والرجولة. وكان من عاداتهم أنّ المقلات كما مرّ تنذر أنها إن جاءها ولد فإما أن تجعله يهودياً أو نصرانياً. وكان اليهود يقطنون المدينة كما هو معروف، وقد انعكست آراؤهم على التفسير والفقه والأخلاق. ولا زلنا إلى الآن نعاني من رواسبهم، هذه ولم نستطع التخلّص منها.

وكان الأوس والخزرج على هذه العقيدة أيضاً؛ فلذا كان لهم الكثير من أولادهم عند يهود المدينة، فلما أمر الرسول ﷺ بإجلائهم (يهود المدينة) عنها، وكان فيهم أبناء الأنصار، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم، لنذهبن معهم ولندينن بدينهم. فمنعهم أهلهم وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام، ثم جاؤوا إليه ﷺ وقالوا له: يا رسول الله، أبناؤنا وإخواننا. فنزلت الآية، فقال ﷺ: «**خيّروا أصحابكم؛ فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فأجلوهم**»[1].

فمن يملك عقيدة سماوية وديناً إلهياً لا يشكّل أي خطر على الإسلام أو على البنية الاجتماعية لأي شعب.

الرأي الثاني: أنها في الناس عامّة

فقوله تعالىٰ: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ على هذا الرأي لا تختصّ بطائفة من الناس دون طائفة؛ حيث إن الشريعة الإسلامية كانت تدعو الناس عامّة للإسلام بالحسنىٰ ولا تجبرهم عليه أو تكرههم على اعتناقه، بل حتىٰ المشرك كان مشمولاً بهذه الآية الكريمة حيث إنّه يُبقىٰ على عقيدته. واستمرّ العمل بهذا الحكم إلى أن نسخت[2] هذه الآية الكريمة بقوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ**

---

(١) مجمع البيان ٢: ١٦٣ - ١٦٢، أسباب نزول الآيات: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢: ٤٩٤ - ٤٩٥ / ٢٦١٦، نواسخ القرآن: ٩٤، فتح القدير ١: ٢٧٥.

﴿وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]. فالتعامل السلمي والصلح مع هؤلاء كان على أساس أن يتعرفوا على محاسن الإسلام ومواطن الرحمة والحب فيه؛ ليدخلوا في الإسلام عن قناعة ورغبة، بعد أن أُتحيت لهم الفرصة لمعرفة الحقّ من الباطل، ومنحوا الوقت الكافي للتعرّف على الجوانب الأخلاقية في الإسلام. وهذا الأمر كان دافعاً كافياً لطالب الحق أن يدخل في الإسلام ويعتنقه دون إجبار أو إكراه، فإنّه إن عرض عليه الإسلام وأبىٰ قوتل. إذن فالآية نزلت في خصوص فسح المجال أمام المشركين لدراسة محاسن الإسلام.

الرأي الثالث: أنها فيمن يسلم بعد قتال

فقد كان الكثير من المشركين وغيرهم ممن هم ليسوا على دين الإسلام يدخلون الإسلام بعد انتهاء المعركة بينهم وبين المسلمين بهزيمتهم وانتصار المسلمين كما حصل في فتح مكة وغيره، لكن بعض المسلمين كان يتعامل معهم بصورة توحي بأنهم ليسوا مسلمين فعلاً، وأنهم إنما دخلوا الإسلام بعد أن ذاقوا حرّ النار والحديد، وكانوا يسمعونهم ذلك. وللحقيقة نذكر أنّ هذا اللون من الإسلام قد حصل من بعض كأبي سفيان وأمثاله، لكن ليس معنى هذا أن نستقبل كل مسلم بمثل هذا التصرّف وهذا الكلام حملاً له على أمثال أبي سفيان، إذ ربما كان قد أسلم حقّاً، وهو إنّما يطلب الإسلام ويرجو اللّه في ذلك. وعليه فلا يصح استقباله بهذا، وأن نقول له: إنك إنّما اسلمت بعد المعركة، وإن اسلامك إنما كان بالإكراه والإجبار.

وهؤلاء قد فُرّق بينهم وبين باقي المسلمين حتى في العطاء، فعمر بن الخطاب

---

(١) التوبة: ٧٣.

كان يسميهم «مسلمة الفتح»، وكان يعطيهم دون ما يعطي غيرهم من المسلمين.وهذه المسألة كانت من ضمن جملة من المسائل التي اختلف فيها معه جماعة ممّن عاصروه أو جاؤوا بعده.

فالآية الكريمة نزلت لهذا السبب، ولتقول للمسلمين: لا تجرحوا مشاعر هؤلاء؛ فإنهم قد دخلوا حضيرة الإسلام، فعليكم أن ترحّبوا بهم وتشجّعوهم.

هذا على صعيد الإسلام، أمّا على مستوى المذاهب الإسلاميّة، فإنّ التطبيق خلاف هذا، وهو خلاف واضح واختلاف بيّن؛ فلو أنّ أحداً من المسلمين ممّن يوصف بالغيرة تساءَل: لماذا المسلمون ممزّقون؟ ولماذا لا نسعىٰ لامتصاص هذه الفرقة ونجمع شمل المسلمين مادامت الأُصول واحدة وهي مدعاة للوحدة والتوحّد لا للفرقة والتفرّق؟ فإنّه سيرمىٰ بأنّ كلامه غير صحيح لأنّه لم يقصد هذا فعلاً وإنّما تفوّه به تقيّة، وكل قلم شريف يحاول أن يعالج مسألة من مسائل المسلمين ومشكلة من مشاكلهم فإنّه يرمى بهذه التهمة، وكأن التقيّة ليس لها أي مدرك شرعي. إنّ هذا الشعور البغيض تجاه هؤلاء هو الذي يولّد الفرقة بين أبناء الدين الإسلامي ويسبب التنافر والتناحر بينهم.

إنّ هناك الكثير من الشعوب ممّن توحّدهم المصلحة المادية وليس غير، في حين أنّ المسلمين توحّدهم اللغة والدين والعقيدة والكتاب والأرض وغير ذلك، لكنهم مع ذلك متنافرون متباغضون متفرّقون، فلم هذا؟ إننا نأسىٰ ونأسف على المسلمين أن يصلوا إلى هذا الأمر وأن يصل بهم الحال إلى هذه الفرقة البشعة.

فالآية الكريمة تلزمنا بألّا نصف هؤلاء بأنهم مكرهون على اعتناق الإسلام لأنّ بوسعهم إضمار شيء وإظهار خلافه، فعندما يعلن فرد إسلامه دون إكراه وإجبار مباشرين من أحد فعلى المسلمين ألّا يجرحوا مشاعره. ثم إن الدين الذي

يأتي بالإكراه لا يسمى ديناً، والعقيدة التي تأتي عن طريق الإملاء والإجبار لا تسمى عقيدة أبداً، لأنّهما أشبه شيء بأن يكونا عقداً من العقود، والعقود يلزم فيها القبول وإلّا كان العقد باطلاً: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[1]، فالقرآن يفرض في التجارة أن تكون نابعة عن الرضا النفسي. وهكذا نجد أن البيع على بساطته يشترط الشرع فيه الرضا، فكيف بأُمور العقيدة والدين والآخرة؟ وهل من الممكن أن تقع وتصحّ من دون رضا؟ ومن هذا يذهب المحقّقون إلى أنّ الدين إن كان بالإكراه فهو ليس بدين ولا العقيدة عقيدة.

المبحث الثالث: بين الفلسفة والعلم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾، أي أنّ هؤلاء قد أعطيناهم فترة وفرصة طويلتين ليطلعوا على الإسلام ومحاسنه وتعاليمه، وقد كان بوسعهم أن يسألوا عمّا لا يعرفونه من ذلك أو ما يودّون السؤال عنه. وهذا قد حصل فعلاً، فقد كان بعض الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يدعو إليه، فيجيبهم بأنّه يدعو الى شهادة أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، وإلى عبادته وأنه رسوله، وإلى صلة الرحم ومكافحة الظلم ومقارعة الظالم. فالنبي ﷺ يقوم بتوضيح محاسن الإسلام لهم. وهكذا فإنّ بوسع أي إنسان أن يسأل خصوصاً هذه الأيام حيث انتشار وسائل الإعلام والتوعية في كل مكان، والأضواء التي تسلّط على العقائد بشكل أو بآخر، أما من يقول: لا أدري أو لا أعرف من هذا شيئاً، فهو إمّا جاهل، أو أن تكون دعواه مبطّنة، أو يكون هو موبوءاً. وإلّا فلماذا تسخّر الأقلام في الكتابة ضد الإسلام؟ فعندما نقرأ كتاب مصطفى محمود (اللّه والناس)

---

(١) النساء: ٢٩.

تجده يقول فيه: إنّ العالم الخارجي نابع من مشاعرنا، وإنّ اللّه لا وجود له إلّا في مشاعرنا وليس له أي وجود خارجي.

ولنا أن نسأله: ما دليلك على هذا؟ وهل إنّ هذا من ضمن اختصاصك؟ إننا يجب أن نلتفت إلى أن هناك فرقاً بين الفلسفة والعلم؛ حيث إنّ العلم يتعامل مع الأشياء التي تقع ضمن نطاق الحسّ والتجربة، فيتناولها ليقوم بتحليلها في المختبر، فيفحص مكوّنات المادّة كيمياويّاً، أمّا الفلسفة فموضوعها كل ما هو خارج الحسّ وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) كالتساؤل: كيف بدأ الكون؟ ومتىٰ؟ وهل إن له مكوّنات؟ وما هي صفاتها؟

وبناء على هذا نجد أنّ لكل إنسان تخصّصاً يعمل في نطاقه ويتحرّك في مجاله ،فمن لم يكن ذا اختصاص فلسفي فما الذي يدعوه إلى تناول موضوعاتها، والقرآن الكريم يقول: **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾**[1]؟

الشيعة الطائفة المفترىٰ عليها

إذن أصبحت محاسن الإسلام واضحة جليّة لكل فرد، وبإمكان أي إنسان أن يطّلع عليها متى أراد، وعليه ألّا يقول: لا أدري، فهذا القرآن بين يدي الجميع. وأنا استغرب واقعاً من قلة اطّلاع البعض أو تعمّدهم ذلك فينسبون إلى غيرهم ما ليس عندهم، علماً أنّ هذا يتكرّر على مرّ العصور، ومن ذلك أنّ أحد العلماء يكتب عن طائفة بأكملها لها مؤلّفاتها وآثارها أنها تأكل في شهر رمضان إلى أن تطلع الشمس وكأنه لم يسمع بما عند هذه الطائفة من آلاف المؤلفات التي تزخر

---

(١) الإسراء: ٣٦.

بها مكتبتهم، والتي أثروا بها المكتبة الإسلامية على شتى الأصعدة من العقائد والكلام والسيرة والتاريخ.

ولست أدري لِمَ لَمْ يكلف نفسه بالرجوع إلى الكتب الفقهية لهذه الطائفة! إنّ في هذا لوناً واضحاً من الانحراف.

فالآية الكريمة تقول: **﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾**، أي قد عرف الهدىٰ وعرف الضلال، فلن يجبركم أحد على الدين. لقد كانت بيوتكم مليئة بالانحراف، والإسلام جاء ليطهرها منه، ولذا فهو يوصيكم بأن تكون علاقاتكم قائمة على أساس النظافة والطهارة القلبيّتين والنفسيّتين، ورفع عنكم العهر والفجور، **«وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق فأنقذكم اللّه بأبي محمد ﷺ منها»**[1]. والطرق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل[2]. ففجّر لكم الأنهار والعيون، وجعل الأطعمة تحت متناول أيديكم، ودرّت الدنيا عليكم بعزاليها وكنتم أذلّة توطؤون بالأقدام فجاء ليرفعكم. أفليس في هذا برهان على أن هذه الشريعة جاءت لتحييكم وتنقذكم وتحوّلكم من أموات إلى أحياء؟ وهل هناك برهان أكبر من هذا؟

المبحث الرابع: المراد من الطاغوت

ثم قالت الآية الكريمة: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾**، وللمفسرين في الطاغوت رأيان:

الرأي الأوّل: أنه الشياطين والأصنام

فكل شيطان أو صنم يعبد من دون اللّه طاغوت. والإنسان السليم الذي يحمل

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٥.

(٢) لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق.

مخّاً سليماً لا يمكن بحال من الأحوال أن يؤمن بعبادة غير اللّه من صنم أو نحوه؛ لأنّ هذا من الواضحات؛ فلا يستحقّ العبادة إلّا اللّه. فالعاقل يعرف أن الصنم أو غيره مما يُعبد من دون اللّه ما هو إلّا حجر أو خشبة لا تضرّ ولا تنفع. فما الذي يدفع إنساناً عاقلاً لعبادتها ويدعوه إلىٰ تأليهها، وهو يملك عقلاً من المفترض به أن يبين له الطريق الصواب؟ إنّ معظم العبادات مأخوذة عن طريق تقليد الأبناء آباءهم. إذن الطاغوت هو كل ما يبعد عن عبادة اللّه وشريعته. فالأصنام تُضل الآخرين، وهو إكراه تقليدي. وعلى هذا الرأي القليل من المفسرين.

الرأي الثاني: أنّه الطغاة من الناس

فكلُّ إنسان يحرف الآخرين عن عبادة اللّه فهو طاغوت [1]، فيكون المراد من الآية: وجوب أن يكفر الإنسان بهؤلاء الطغاة الذين يدعونهم إلى عبادة غير اللّه. وقد يستغرب البعض حينما نقول: إنّ المراد بالطاغوت هو الطغاة من الناس، فيقول: لا يوجد طاغ يدعو الناس إلىٰ عبادة غير اللّه فيقول لهم: اتركوا آلهتكم. ونقول: نعم هو كذلك بهذا الشكل، أما بأشكال أُخرىٰ فهو موجود، ووجوده لا يخلو منه زمان. فهؤلاء يدعون الناس إلى عبادة غير اللّه بأفعالهم وتصرفاتهم، كأن يأتي أحدهم إلى مجرم يسفك الدم الحرام ويعتدي على العرض الحرام، ويرعب الناس، فلا يحاسبه وإنّما يقول له: إنّ لك مركزاً فاستخدمه في خدمتي ولتحقيق أغراضي وأهدافي ومصالحي، ولك عليَّ الأموال التي تريدها. يقول نابليون: «لو لم توجد البابوية كنت قد أوجدتها». لأنّها تبرّر له تصرفاته وأعماله، وتذلّل العقبات أمامه، وتُصوّره كإنسان عادل محترم.

---

(١) عن ابن عباس ﷺ أنه قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥.

دخل أحدهم على المتوكّل وقال له:

ثلاثة أملاك فأما محمد	فنورٌ له يهدي إلهك من يهدي
وأمّا أبو عبد الإله فإنه	مثيلك بالتقوىٰ ويجدي كما تجدي
وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة	تقيٌ وفيٌ بالوعيد وبالوعدِ
فأوّلهم نورٌ وثانيهُمُ هدى	وثالثهم رشدٌ وكلُّهُمُ مهدي

فهل إن هذا لا يعرف من هو المتوكل؟ إنّه يمجد ويمدح المتوكّل الذي يشرب الخمر وجواريه حوله، فما هي دوافعه؟ إنّ دوافعه هو أن يسحق الحقّ وينصر الباطل وينشر الضلال، وهذا هو الانحراف بعينه. فهذا مؤمن بالطاغوت، ومن النادر أن تجد أحداً من القتلة وليس إلىٰ جانبه من يبرر له عمله بشكل أو بآخر، ومن يفتي له بوجوب طاعته على ما هو عليه من ضلال وانحراف وفسق بصورةٍ أن هؤلاء المفتين يعدّون الخروج عن طاعة هؤلاء الطغاة خروجاً عن ربقة الإسلام، فلا يجوز للمرء أن يرمي هذه البيعة من عنقه حتىٰ ولو كان المبايَع له الحجّاج أويزيد أو غيرهما، وحتىٰ لو كان الخروج عن الطاعة شبراً واحداً[1].

---

(١) روى مسلم أن ابن عمر حين كان من أمر وقعة الحرّة ما كان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». صحيح مسلم ٦: ٢٠ - ٢٢.
وقال النووي: «وأما الخروج عليهم ـ أي سلاطين الجور ـ وقتالهم، فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين. وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق... وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل ـ أي السلطان الجائر ـ بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه؛ للأحاديث الواردة في ذلك».
صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، وانظر سنن البيهقي ٢: ١٥٨ - ١٥٩ / ٨.

فتراننا ببالغ الأسف مترع بعبادة الطاغوت والإيمان به وطاعته، مع أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾، والإيمان بالله عصمة للمرء في حياته من الانحراف والضلال.

المبحث الخامس: من هم العروة الوثقى

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، إن القرآن الكريم يلجأ أحياناً إلى التشبيهات الحسيّة للأشياء غير المحسوسة؛ لأجل تقريب المعنى إلى أذهاننا، فهو يقرب المعنى عبر تشبيهه بالمحسوسات من الأشياء، فمثلاً هنا نجد أنه يشبه دين اللّه بالعروة، ووجه التشبيه أنّ الإنسان الذي يستند إلى عروة بيده فإنّه سوف لن يقع أبداً مادام متمسّكاً بها. وهذا كمن يريد تشبيه حلاوة الماء وعذوبته بالسكر، فيقول: هذا الماء حلو كالسكر.

ومعنى هذا التشبيه أنّ من تمسّك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، وهي دين اللّه تعالى ويرجع إليها في كل أُموره وأحواله فإنّه لن يزلّ عن الصراط؛ لأنّه وضع قدمه على الخط الصحيح، لكن بشرط أن يكون إسلاماً صحيحاً كما أمر اللّه لا كما تأمره الأهواء والآراء.

☚ وقال القاضي الباقلاني ما ملخصه: قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في كلّ شيء مما يدعو إليه من معاصي اللّه. واحتجّوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي ﷺ وعن الصحابة في وجوب طاعة الأيمّة وإن جاروا واستأثروا بالأموال، وأنه قال ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشي، وصلّوا وراء كلّ برّ وفاجر». وروي أنه قال ﷺ: «أطعهم وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك». التمهيد: ١٥٢ (ط القاهرة ١٣٦٦ هـ).

نماذج من الاجتهادات البعيدة عن الدين

إنّ الأعم الأغلب من الناس هم من العوام، فلا يستطيعون تحصيل عقائدهم وأصول دينهم عن طريق المدارسة والبحث والتحليل والنقض والإبرام، فهؤلاء يحتجّون مثلاً بقلّة معرفتهم وقصور باعهم عن فهم عويص بحور الاستدلال، وبانشغالهم في أُمور كسبهم وحياتهم، فهم يريدون أخذ عقائدهم وأُمور دينهم جاهزة من أهل الاختصاص.

عدم جواز استرقاق الوثني العربي وجوازه مع الأعجمي

لكن في مثل هذه الحالة تبرز مشكلة أمام البعض، فمثلاً حينما يريد أحد أن يقرأ في باب (السيف) من كتاب (الميزان) للشعراني فإنّه سيجد أن المصنّف يصرّح بأنّ الوثنيين من غير العرب (الفرس وغيرهم) يجوز تملّكهم واسترقاقهم، أما الوثنيون العرب فلا يجوز استرقاقهم أو تملّكهم.

ولنا أن نناقش هذا الرأي فنقول: لماذا هذا التمايز؟ وما هو منشؤه؟ فإن كانت العلة في الحكم هي الوثنية، فلماذا جاز استرقاق هؤلاء ولم يجز بحقّ أولئك؟ إنّ مثل هذا الكلام يعني أن صاحبه لم يهضم تعاليم الإسلام السمحة وأحكامه العادلة، وأنه إنّما ينطلق في أحكامه هذه من منطلق عرقي، وأنه يستخدم لغة عرقية بغيضة وبعيدة عن الإسلام وروحه تمام البعد؛ لأنّ الدين يقول: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[١] بغض النظر عن اللغة والانتماءات العرقيّة والقوميّة.

---

(١) الحجرات: ١٣، وقال رسولنا الأكرم ﷺ: «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منّا من قاتل على عصبيّة، وليس منّا من مات على عصبيّة». بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٣، سنن أبي داود ٢: ٥٠٣ / ٥١٢١، وغيرها.

طهارة الكلب

والقارئ المتتبّع يجد كثيراً من مثل هذا مما هو بعيد عن مسلّمات الفقه والعقائد والشريعة، فمثلاً يفتي أحد الفقهاء بطهارة الكلب [١]، مستدلاً بقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [٢]. وهكذا فإنّ من يحفظ بضعة أحاديث يعدّ فقيهاً فيفتي بما يريد حسب مذاقه وهواه، وأكبر إفكاً من هذا أنه يوزّع الجنة والنار على هواه، فيكفّر هذا ويدخله النار، ويسم ذاك بسمة الإيمان والإخلاص فيدخله الجنة.

الصلاة إلى غير القبلة

وكذلك ما هو ثابت عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي لا يكاد يفيق من سكره، فإذا أفاق وأراد الصلاة صلّى إلى غير القبلة متذرعاً بـ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣]، ويقول: نحن ننشد وجه اللّه [٤]. وهكذا يعارض النصوص الكثيرة [٥] وإجماع المسلمين.

رواية شدّ الرحال

إنّه بهذا إنّما يريد أن يدعم رأي جده عبد الملك حينما افترىٰ رواية: «لا تشدّ

---

(١) ذهب بعض الفقهاء ومنهم مالك وداود وابن نجيم المصري؛ كما ذكروه، أو كما هو منقول عنهم إلى طهارة الكلب، انظر على سبيل المثال: فتح العزيز ١: ٢٦١، فتح المعين ١: ١١٩، مواهب الجليل ١: ٢٥٤، البحر الرائق ١: ١٨٣، لكن لم نعثر على من يستدلّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾.

(٢) النور: ٤٥.

(٣) البقرة: ١١٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٥) وأبرزها قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤٤.

الرحال إلا إلى ثلاث... وقبّة الصخرة»[1]، ذلك أنّ عبد اللّه بن الزبير حينما استولى على مكّة والحجاز، وكان يقرب الحجيج في مواسم الحج، ويعرض عليهم حركته ويدعوهم إلى نصرته ويشوّه صورة الأُمويّين في أعينهم، خشي عبد الملك افتتان الناس به وتأثّرهم بحركته، فحرك أحد وعّاظ السلاطين وحملة الشعائر الدينيّة ومسخّريها لخدمة السلاطين، الذي انبرى له بوضع هذه الرواية.

فهل شدّ الرحال لطلب العلم ممنوع؟ فإن كانت هذه الرواية محمولة على الكمال، فلماذا لا يُجوّز شدّ الرحال لغير هذه الثلاثة؟

المهم أنّ هذه الرواية اخترعت لصرف الحجاج عن حجّ بيت اللّه، وفعلاً بنى مسجد قبة الصخرة، وأمر الناس بالحج إليها معلّلاً بأنّها بيت المقدس بعد أن منعهم من حج بيت اللّه الحرام. والقصد من هذا: التقليلُ من قيمة مكّة والكعبة الحرام؛ لأنّ الحاجّ لبيت اللّه الحرام يزور النبيﷺ أيضاً فيلتقي بأبناء المهاجرين والأنصار الذين يقفون ضد الأُمويين. ولذا كان كل همّهم ألّا تبقى لهذا البيت حرمة في نفوس المسلمين.

وهذا هو الدافع الذي حفّز أبا الأحرار والشهداءعليه السلام أن يخرج من مكّة حفاظاً على حرمتها من أن تنتهك؛ لأنّهم راموا قتلهعليه السلام في الكعبة[2]. فلمّا خرج سأله عبد اللّه بن مطيع: لِمَ تخرج وبينك وبين الحجّ سويعات؟ إن بإمكانك أن تحرم

---

(١) نقل محمود أبو ريّة في كتابه أضواء على السنة المحمدية: ١٦٩، أن الأحاديث الصحيحة أوّل الأمر كانت في فضل المسجد الحرام ومسجد رسول اللّهﷺ ولكن بعد بناء قبّة الصخرة ظهرت أحاديث في فضلها وفضل المسجد الأقصىٰ.

(٢) كان عمرو بن سعيد الأشدق والياً على مكّة أيام نهضة الحسينعليه السلام، فكان يقول لأزلامه: اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض واطلبوا الحسين، واقتلوه ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة. الإمامة والسياسة ٢: ٣، جواهر المطالب ٢: ٢٦٤.

وبوسعك أن تؤدّي مناسك حجّك ثم تخرج. فقال عليه السلام: **«لو لم أُعجّل لأخذت»**[١].

وهو عليه السلام لا يضيره أمر إراقة دمه بقدر ما يضيره انتهاك حرمة البيت المقدّس، وإراقة الدم فيه، وقتل حرمات اللّه داخله. فجزاه اللّه تعالى على ذلك عن الإسلام كلّ خير، وقال له: لأجعلنّ لك كعبة في قلب كلّ مؤمن، ولأجعلن مشهدك قبلة في قلوب المؤمنين. ولم يضِر قبر الحسين عليه السلام أن يضرب أو يهدم[٢]، فبقي متألّقاً سامياً؛ لأنّ تحته نفساً أبية تتفجّر عنفواناً، أبت أن تركع للذل وأن تخضع له، ولأنّ تحته سيد شباب أهل الجنة[٣]. وهكذا جعل اللّه تعالىٰ أفئدة من الناس تهوي إليه:

يممت يومك أستجلي روائعه	فأشبعت ناظري موّارة صورُ
ما رمت رائعة إلا وجدت به	كأن كلّ سموّ فيه منحصرُ
هو المدى ميّز الشوط البعيد به	أعنّة الركب من جدّوا ومن قصروا
يؤذيه أنّا دأبنا أن نطالعه	من عبرة وهو فيما يحتوي عبرُ

---

(١) مثير الأحزان: ٢٨. وقد قال عليه السلام: «إن أبي حدّثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أُحبّ أن أكون ذلك الكبش». شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٦٦. وكان عليه السلام يعرف ذلك سلفاً؛ فقد قال: «واللّه لا يدَعوني حتىٰ يستخرجوا هذه العُلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط اللّه عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة». لواعج الأشجان: ٧٢، الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١. وفرام المرأة: خرقة الحيض. لسان العرب ١٢: ٤٥١ ـ فرم.

(٢) انظر هذه المحاولات في محاضرة (فلسفة زيارة الحسين عليه السلام) ج ١ من كتابنا هذا.

(٣) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

لو شئت قلت وما زهو الفتوح سوى ... دنياك إنك دنيا ملؤها ظفرُ

لقد رأيتك فيها ألف قادمة ... تهوى الشواهق إذ تستوبأ الحفرُ

ومارداً زحم الأعصار منكبه ... حتى لواه وما ألوت به الغِيَرُ

وفكرة تستشفّ الغيب ما وهبت ... إلّا لتخلد والطغيان ينتحرُ [١]

سيّدي سيبقى قبرك في قلوب المؤمنين:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ... ـن بشرق أرض أو بغربِ

ودعوا الجميع وعرّجوا ... نحوي فمشهده بقلبي

وما تزال عواطف المؤمنين تُسكب على هذه الرملة صباحَ مساءَ، ومن هذه العواطف عواطف بنات الرسالة حينما رجعن من السباء، ووصلن إلى قبر أبي عبد اللّه عليه السلام، ووضعن خدودهن على ثراه وأمطرنه بالدموع، وكان للعقيلة القسط الأوفر: فقد هرولت إلى قبر الحسين عليه السلام، وألقت بنفسها عليه:

خويه من اليسر توني لفيتك ... أربعين ليله فاركيتك

تحت الثرى مرمي لگيتك

ثم احتضنت التراب ونادت: «والوعتاه، واحسيناه، واعزيز رسول اللّه». ثم جاءت إلى نهر العلقمي، عند قبر أبي الفضل عليه السلام:

لونّه اللحد ينكشف بابه ... لجيمن عليه وانگل اترابه

أصِل للولي واسمع جوابه ... أعاتبه واكثر اعتابه

* * *

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٣٦.

إلي مــناشِده ويـاك وعـتاب يـمنوّخ الهـودج عـلى البـاب

* * *

مـا يـرضه الگـلب يـنسه ولا تـرضه العـيون تـنامْ

ولا طــيفك يــفارگني ولا تــنسِّيني الأيّــامْ

واللــي زوّده النــوحي نــوح اطـفالك الأيـتامْ



﴿ ١٥٠ ﴾

القيادة العسكرية وخطّة المعركة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: فضيلة البكور إلى الصلاة

إنّ البعض من الآيات الكريمة تفيد معنىً إضافياً زيادة على مضامينها الأساسيّة، وهذا ما توحي به بعض المفردات التي تستعملها. فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ مثال على هذا، والغدوّ: الصباح المبكر[٢]. والاستيقاظ مبكراً مندوب إليه في الأخبار[٣]. والمسلم لا يحتاج إلى دليل خارجي لهذا، بل أن دليله وجداني بالنسبة له؛ إذ أن من المفروض به أن ينهض صباحاً عند الفجر لأداء صلاة الصبح: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٤]، وقرآن الفجر: صلاة الصبح؛ لأنّها تشتمل على القراءة. والإنسان حينما يستيقظ صباحاً إلى الصلاة في

---

(١) آل عمران: ١٢١.

(٢) العين ٣: ١٣٥ ـ سحر، ٥: ٣٦٥ ـ بكر.

(٣) انظر وسائل الشيعة ٤: ٢١٢ ـ ٢١٤ / ب٢٨.

(٤) الإسراء: ٧٨.

وقتها ثم يقوم إلى المحراب ومنه، فإنّه يقوم روحاً وعقلاً وليس جسداً وغرائز، بلحاظ أن الإنسان مركب عجيب من الغرائز التي تدفعه إلى المعصية.

وهكذا يتطهّر الإنسان روحيّاً كل صباح حتى يواجه الحياة بذهنية المسلم؛ فهو يقول في صلاته **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾**[1] أي في الدنيا والآخرة، فهو يريد الطريق الصحيح، وهو أن يعيش مع عباد اللّه بصورة مرضية ونظيفة، ويستوحي السماء معانيَ للخير، وكل ما له أثر في تربيته وإعداده. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم ويؤكّد عليه[2].

وهكذا يستطيع الإنسان أن يعمر الحياة، ويزرع الخير والسلام في أرجائها، فعليه أن ينتج ويعمل ولو كان ثريّاً موسراً؛ لأن وظيفته في الحياة ورسالته التي كلّفه اللّه تعالىٰ بأدائها ـ وهي استثمار طاقاته التي أودعه عنده، واستثمار نعم اللّه التي أغدقها عليه وأودعها له في أرضه ـ لابد من أن يؤدّيها على أكمل وجه وأتمه؛ ولذا فإنّه تعالى عوّضه عن هذا **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾**[3]، والرواية الشريفة تخاطبه فتقول: **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»**[4].

فالإنسان مكلّف بأن يعمر الحياة؛ لأنّ عنده بيتاً وعائلة ومجتمعاً يتفاعل معه ويعيش فيه، كما أن عنده بلداً ومهمة يتوقف عليها إطالة عمره.

إنّ في الأنظمة الوضعية أنّ الإنسان إذا بلغ الخمسين من عمره أو الستّين فإنه

---

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت: ٤٥. (٣) النبأ: ١٠ ـ ١١.

(٤) عن الإمام الكاظم عليه السلام. الفقيه ٣: ١٥٦، ونسب للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ: «احرث لدنياك...». النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٦ ـ حرث.

يلج سنّ التقاعد ويحال عليه، وهنا تحدث الصدمة والنكسة لهذا الإنسان ـ إن كان واعياً ـ لأنّه يرى حينئذٍ أن دوره في الحياة قد انتهىٰ، وأنّه في طريقه إلى الموت. وهذا ينعكس سلباً على عطائه وروحه؛ فينتكس، ويشعر بالوحدة والوحشة والغربة، أما إذا عرف أن مهمته في الحياة مستمرّة فإنّه حينها لن ينتابه ذلك الإحساس، فيستمرّ في نشاطه وعطائه وإبداعه. وهذا هو السبب الذي لأجله لا يشترط الفقهاء في أبواب الإجارة والعمل من كتب الفقه أن يكون للإنسان عمر محدّد؛ فكل من له طاقة على العطاء والبذل له أن يعمل وسوف لن يمنعه أحد ولو كان في أُخريات حياته.

واقع الأسرة المسلمة الآن

إننا الآن نعيش أزمة حقيقية؛ حيث إنّ الكثير من الأُسر الإسلامية لا تتّسم بسمات الأُسرة الإسلامية الحقيقية؛ فالأُسرة الإسلامية هي التي تبتدئ يومها عند رفع كلمة **«لا إله إلّا اللّه»** فجراً بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء إلى اللّه، أمّا واقعنا نحن فغير ذلك؛ فالأُسرة ـ بفضل القنوات الفضائية وأجهزة البث الأُخرى ـ تسهر ليلها تراقب التلفزيون حتى إذا حان موعد صلاة الفجر أو دنا تخلد إلى النوم، فتترك واجباتها الملقاة على عاتقها وقت الصباح وتظل تغطّ في غفلتها؛ يبسط عليها النوم غطاءه الرخو فلا تعمر حياتها ولا تقوم بمستلزماتها. وهذا ما يلفت إليه القرآن الكريم أنظارنا وينبّهنا إليه: **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾**.

وقد كان العرب يتمدّحون ببكور الغراب، فيمدحون فلاناً لأنّه يبكّر إلى الحياة كبكور الغراب[1].

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «البكرة رباح»، أو «نجاح». السير الكبير (الشيباني) ١: ٦٥.
وقيل لبزرجمهر: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ قال: ببكور كبكور الغراب. شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٣٠، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٢٥٥.

المبحث الثاني: مناسبة نزول الآية الكريمة

اختلف المفسرون في الغزوة التي نزل فيها قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾**، فبعض قال: إنّها نزلت في واقعة الخندق، وقال آخرون: إنّها نزلت في واقعة بدر، وقالت طائفة ثالثة: إنّها نزلت في معركة أُحد. فالمناسبة مردّدة بين هذه المعارك الثلاث[١].

الاستدلال بهذه الآية على رضا النبي ﷺ عن عائشة

ويصرّ أحد المفسرين على أن هذه الآية كانت في موقعة أُحد، وأنّ النبي ﷺ كان في بيت زوجه عائشة، ثم يستدلّ بها على أن زوجته من أهله، ومعنى هذا أنها منسجمة معه تمام الانسجام، وأنّه راضٍ عنها بدليل أن الله تعالى يخاطب نبيّه نوحاً ﵇ بقوله: **﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**[٢] بعد أن خاطب ﵇ الله جل وعلا بقوله: **﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾**[٣]. فالله تعالى قد أخرج ابن النبي نوح ﵇ من أهله مع أنه من صلبه، وهنا يعدّ عائشة من أهله؛ فدلّ بهذا على أنها في موضع رضا عنده ﷺ.

ونجيب على هذا بالقول: إننا ليس من شأننا ولا من خلقنا أن نسلب إحدىٰ نساء النبي الكريم ﷺ مكانتها التي هي عليها، أو ننكر منزلة هي لها أو أنزلها الله إياها؛ فإنّ نساءه ﷺ موضع احترامنا، لكننا في الوقت نفسه نضعهن أمام المسوولية؛ فالقرآن الكريم نفسه مدحهن في بعض المواقف[٤] وحمّلهن

---

(١) انظر: مجمع البيان ٢: ٣٧٦، زاد المسير ٢: ٢٣، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٤، تفسير القرآن العظيم ١: ٤١٠، تفسير الثعالبي ٢: ٩٩.

(٢) هود: ٤٦.

(٣) هود: ٤٥.

(٤) فقال تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الأحزاب: ٦.

المسؤولية في أعمال أُخرىٰ[١]. ثم إنه لا ضير في أنّ إحدىٰ نساء النبي ﷺ كانت عزيزة عنده ويحبها، فهذا شيء طبيعي، لكن لنا أن نسأل: ما المقصود من الأهل في قول النبي نوح ﷺ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾؛ هل هم الأقارب، أم الزوجة فقط؟ إنّ البعض يقول: إنّ الأهل هم كلّ من يحرم الزواج منهم، ويقول غيره: أهلك هم أقرب الناس إليك، كابن الخال وابن العم. فالأهل هم الذين تربطهم بك رابطة الدم.

والقرآن الكريم له اصطلاح آخر، فبالإضافة إلى رابطة الدم نجده يؤكّد على رابطة الروح؛ بدليل خطابه تعالى لنبيه نوح ﷺ المارّ، مع أن ابنه هذا ابن صلبي له؛ فزوجة النبي نوح ﷺ لا ترمى بالزنا: «ما زنت امرأة نبيّ قط»[٢]. فأعراض الأنبياء ﷺ محفوظة. أمّا الخيانة التي يذكرها القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٣]، أي امرأة لوط ونوح ﷺ، فهي ليست خيانة العرض وإنّما هي خيانة الدعوة؛ حيث كانتا منافقتين[٤]؛ فامرأة لوط ﷺ ترشد قومها إلى أضيافه، وامرأة نوح ﷺ قاتلت

---

(١) فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ الأحزاب: ٣ ـ ٦.

(٢) التبيان ٥: ٤٩٥، أحكام القرآن ٣: ٦٢٥، عن ابن عباس ﷺ.

(٣) التحريم: ١٠.

(٤) التبيان ٥: ٤٩٥، أحكام القرآن ٣: ٦٢٥.

وصيّه ﵇. وهذا هو المقصود بالخيانة، وإلّا فإنّ اللّه تعالى لا يبتلي الأنبياء ﵈ بأعراضهم.

فقوله تعالى لنوح ﵇: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**﴾ على سبيل نفيه لارتكابه عملاً أخرجه من حدود الأهليّة؛ أي أنّ الذي يرتكب عملاً لا يرتضيه النبي ﵇ لا يمكن أن يكون من أهله حتى ولو كان ابنه.

من مفارقات المفسرين

فإذا كان القرآن ينفي أهلية ابن نوح ﵇ فلارتكابه ما يوجب ذلك، وهو تأسيس على إثبات النبي نوح ﵇ كونه من أهله[١]، وهو ابن صلبي له، وهذا يعني أنّ الابن الصلبي من الأهل ما لم يرتكب ما يوجب طرده عن حضيرة الأهل، فلماذا يُبعد علي وفاطمة والحسنان ﵈ عن حضيرة ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[٢]؟ يقول بعض المفسّرين: إنّ المقصود به: نساؤه[٣]، فلماذا يخرج الولد الصلبي عن كونه أهلاً ـ والولد الصلبي هو فاطمة والحسنان[٤] ـ وتلحق المرأة التي تعيش معه بالأهل؟ إنّ فكرنا وتفسيرنا بهذا الشكل يكونان بعيدين عن التفكير العلمي والموضوعي.

وفي واقع الأمر أنّ الأهلية التي أثبتها النبي ﷺ كانت لمجموعة محدّدة من أهله حيث إنه ﷺ قال: «**اللهم إن هؤلاء أهلي**»، ثم رمق السماء بطرفه الشريف

---

(١) فنفي القرآن كون ابن نوح ﵇ أهلاً له لا من حيث نفي كون الولد أهلاً على نحو الحقيقة، بل إنه على سبيل نفي الصفة؛ بسبب تهوّره وعدم رجوعه إلى الحقّ والرشد.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) أحكام القرآن ٣: ٢١٤، تفسير الثعلبي ٨: ٣٦.

(٤) أمّا كون الزهراء ﵍ ولداً له ﷺ، فهذا ما لا نقاش فيه، وأما الحسنان ﵉ فقد مرّ الكلام فيهما في محاضرة (البناء الأُسري في الإسلام) في ج ٤ من كتابنا هذا.

وقال: «أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً». ثلاث مرات [١].

وبهذا الأمر تعرّضت الدكتورة بنت الشاطئ لهجوم عنيف شنّه عليها أحد الكتّاب الصحفيّين؛ فقد حمل عليها لأنها قالت: إن هذه الآية نزلت في حقّ هؤلاء الخمسة عليهم السلام، ورماها بالتخريف [٢]، مع أنّ هذا ليس من اختصاصه.

رجع

فآية المقام مردّدة بين ثلاث وقائع، ومن يقل بأنّه صلى الله عليه وآله وسلم خرج من بيت عائشة فتحسّ منه بأنّه يخصّها بواقعة أُحد ويسحبها إليها، غير أنّ القرطبي حينما يتناول هذه الآية الكريمة يروي أنّ رجلاً [٣] قد قتل حامل لواء المشركين في هذه المعركة، ثم يذكر اسمه وهو غير حامل اللواء الذي قتل في أُحد [٤]، وهذا يدلّ على أن هذه الواقعة غير واقعة أُحد.

فالآية الكريمة تقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وهناك من كتب عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مستغرباً من قدرته على إبداع مجتمع ودولة

---

(١) شواهد التنزيل ٢: ١١٥ – ١١٠ / ٧٤١، فقد روى أن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أجلس الحسنين عليهما السلام في حجره وأجلس أمير المؤمنين عليه السلام على يمينه وفاطمة عليها السلام على يساره، ثم اجتذب من تحت أُم سلمة ـ راوية الحديث الشريف ـ كساءً خيبريّاً، فلفّه صلى الله عليه وآله وسلم عليهم جميعاً، وأخذ بشماله بطرفي الكساء، وألوى بيده اليمنى إلى ربّه وقال: «اللهم إن هؤلاء أهلي». تقول أُم سلمة: فقلت: يا رسول الله، ألست من أهلك؟ قال: «بلى». فأدخلني في الكساء بعدما قضى دعاءه لابن عمّه وابنيه وابنته فاطمة عليهم السلام.

(٢) لقد مرّ هذا المطلب في محاضرتي (العقل عند الإمامية) ج ٤، و(دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) ج ٦ من كتابنا هذا، وذكرنا هناك مصادره التي تثبت كون هذه الآية في هؤلاء الخمسة عليهم السلام، وهي مصادر معتبرة عند أهل السنة.

(٣) لم يذكر القرطبي اسم أمير المؤمنين عليه السلام مع أن التحقيق يثبت أنه هو عليه السلام، كما سينبّه إليه المحاضر فيما سيأتي من حديث.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٥.

وهو يعيش في الصحراء بين مجتمع متخلّف. ومن هؤلاء مايكل هارث الذي يذكر شهادة عظيمة في حقّ الرسول الأكرم ﷺ، وهي شهادة تحتوي على أربع نقاط فيقول: «كيف استطاع هذا الرجل أن يجمع هذه الأُمور؛ بأن بنىٰ أُمّة، وقاد جيوشاً، وأصلح مجتمعاً، وغيّر حضارة؟ لابدّ أنّ له طاقات غير محدودة».

فهذا كاتب موضوعي، والنبي ﷺ يحمل ذهنية القائد المنظّر المفكّر، وكانت خططه الحربية غاية في الإبداع، وقد كتب البعض عنه ﷺ بأنّه كان يقوم بأعمال لا تصدر إلّا من إنسان متمرّس. فهو ﷺ يوزع المؤمنين عند القتال كلّاً في موقعه الذي يناسبه، ويكون انتقاء مقاعد القتال وفق خطّة مدروسة محكمة؛ بحيث إنّه ﷺ يربح المعركة[1] وإن كانت جيوش أعدائه أكبر من جيشه[2]. فكان ﷺ يمتلك ذهنية حربيّة وقتاليّة فذّة لا تضاهيها ذهنيّة أبداً.

وهو ﷺ إضافة إلى أنه كان يتولّىٰ قيادة المجتمع، كان يقوم بدور الرائد فيه، حيث إنّه ﷺ كان ينزل قبلهم ويقاتل، غير أنّ أصحابه (رضوان اللّه عليهم) كانوا يمنعونه من هذا ويقولون له: يارسول اللّه، نحن نكفيك ذلك.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد تلمذ لرسول اللّه ﷺ، ولذا كان مكانه في صدر الكتيبة[3]، وهو يرتجز ويقول:

دبّوا دبيب النمل لا تفوتوا ... وأصبحوا في حربكم وبيتوا

حتى تنالوا الثأر أو تموتوا ... أو لا فإني طالما عُصيتُ

---

(١) وقد لاحظنا في موقعة أُحد كيف خسر المسلمون المعركة؛ لمخالفتهم أوامره بعدم ملازمتهم لمقاعد القتال التي بوّأهم إيّاها.

(٢) كما هو الحال مع جيش القوّتين العظميين آنذاك: الروم والفرس.

(٣) سئل عليه السلام: إذا اشتدّ الوطيس أين نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «عند مشتبك الرماح».

قــد قــلتُمُ لو جــئتنا فـجيتُ ليس لكم ما شئتُمُ وشيتُ [١]

رواية تأبير النخل

وهو ﷺ إضافة إلى أنه كان ينزل إلى الساحة ويتولّىٰ قضايا الحرب بنفسه، وأنه ذو دور هامّ وكبير في شحذ الهمم، فالجيش الذي يرىٰ قائده أمامه في لهوات الحرب يستميت ويقاتل إلى آخر قطرة من دمه. وهكذا تشير الآية الكريمة إلى مواطن الإبداع والحكمة في سيرته ﷺ، فهو ﷺ كلّه إبداع وحكمة، نجده يلج الحياة فيعلّم أصحابه كيف يتعاملون مع أُسرهم وأبنائهم في بيوتهم، وما هي الكيفية التي يجب أن تكون عليها أخلاقهم معهم، بل ويضع منهجاً كاملاً واضحاً لتعامل الرجل مع زوجته في مضجعه [٢]. ومع كل هذا يروي عنه المحدّثون رواية غريبة في بابها، هي أنّ المسلمين دخلوا عليه ﷺ وقالوا له: يارسول اللّه، نريد أن نؤبّر نخلنا. فقال ﷺ: **«لو لم تفعلوا لصلح»**. فخرج شيصاً، فمرّ بهم فقال: **«ما لنخلكم؟»**. فقالوا: قلت كذا وكذا، فقال ﷺ: **«أنتم أعلم بأُمور دنياكم»** [٣].

أفعال الجبلّة

ويلاحظ أنّ من المستحيل قبول هذه الرواية؛ لأنّ النبي ﷺ مسدّد من السماء، فيجب الاقتداء به في كلّ أقواله وأفعاله عدا ما يسمى بـ«أفعال الجبلّة»، وهي الأشياء الطبيعيّة التي منها الأكل والشرب وغيرهما، فليس من الضروري

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٢، وقعة صفّين: ٤٠٣، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٨.

(٢) انظر مكارم الأخلاق: ٢٠٨ ـ ٢١٨.

(٣) الانتصار (العاملي) ٤: ٤٧، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥: ١١٦، الإحكام في أُصول الأحكام (ابن حزم) ٥: ٧٠٤. وفي حديث آخر: «إنما ظننت ظناً؛ فلا تؤاخذوني بالظن». وفي غيره: «إنما أنا بشر؛ فما حدّثتكم عن الله فهو حقّ، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أُخطئ وأُصيب».

الاقتداء به ﷺ فيها؛ لأنها ترجع إلى البشر أنفسهم وإلى جبلّتهم. وهذا التصرّف ليس من أفعال الجبلّة؛ فرسول الله ﷺ ليس من جبلّته أن يقول لأصحابه: لا تلقّحوا نخيلكم. ولأجل هذا نجد أنّ المحققّين يغلقون باب الاجتهاد عليه ﷺ ويصرّحون بأنّه (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) لا يقول إلّا بما تأمره به السماء؛ فلن يبتعد عن الحقّ والحقيقة، فكان ﷺ يتدخّل في أُمور الزراعة والصناعة والاقتصاد، فيوجّه أصحابه إلى الصواب في أعمالهم. وهذا يدلّ على أنّ السماء أرادت أن تصوغه ﷺ في منتهى الكمال، قال حسّان بن ثابت:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء [1]

وهكذا كان رسول الله ﷺ يبوّئ المؤمنين مقاعدهم للقتال ليؤدّي كل واحد منهم دوره الذي رسمه له ﷺ.

المبحث الثالث: رؤيا الرسول الأكرم في أُحد وإرهاصات المعركة

يقول المؤرخون: إنّ رسول الله ﷺ قبل معركة أُحد أخبر أصحابه برؤيا رآها، قال ﷺ: **«رأيت البارحة في منامي خيراً: رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذبابة سيفي ثلماً، فكرهته؛ وهما مصيبتان، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، وأني مردف كبشاً»**. فقالوا: يا رسول الله، وما أوّلتها؟ قال ﷺ: **«فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون، وأمّا الثلم الذي رأيت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي** ـ وفي رواية: ـ **«من عترتي يقتل»**. وفي رواية: **«رأيت أن سيفي ذا الفقار فُلّ،**

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٢٩، ٢: ٢٩.

فأوّلته فلّاً فيكم. وأما الدرع الحصينة فالمدينة، وأما الكبش فإني أقتل كبش القوم». وقال ﷺ لأصحابه: **«إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها».** وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن. وقد حصل في حدّ سيفه ﷺ كسور، وحصل انفصام ظُبته وذهابها، فكان ذلك علامة على حصول كلّ ذلك [١].

إثارات حول مناسبة النزول

ولنا هنا ثلاث إثارات حول هذا الأمر:

الأولى: مشورة المسلمين على الرسول ﷺ بالخروج من المدينة

كان رسول اللّه ﷺ قد جمع المسلمين وناقش أمر المعركة معهم، فأشاروا عليه بألّا يبقى في المدينة؛ لأنّ في بقائه فيها خطراً عليه. فدخل ولبس لامة حربه ودرعه، فندم المسلمون على مشورتهم تلك على الرسول ﷺ، وقرّروا بأن يذهبوا إليه ﷺ؛ ليسحبوها، فأجابهم الرسول ﷺ بقوله: **«لا ينبغي لنبي يلبس لامة حربه أن ينزعها»** [٢].

ولا شكّ أنّ المدينة المنوّرة كانت الدرع الحصين، وهكذا قتل في هذه المعركة سبعون صحابياً وقتل الحمزة بن عبد المطّلب.

الحمزة عليه السلام أسد اللّه ورسوله

لقد كان الحمزة عليه السلام سيفاً للّه تعالىٰ يقاتل دون رسوله ﷺ، يقول المؤرّخون:

---

(١) سيرة ابن إسحاق ٣: ٣٠٣، السيرة الحلبية ٢: ٤٩٠.

(٢) تذكرة الفقهاء ٢: ٥٦٦ (حجري)، بحار الأنوار ١٦: ٣٨٧، المجموع شرح المهذّب ١٦: ١٤٢، كشاف القناع ٥: ٢٥.

إن أبا جهل تعرض لرسول الله ﷺ وآذاه بالكلام، وألقى السلى على ظهره وهو يصلّي، فاجتمع بنو هاشم، وأقبل حمزة من الصيد، فنظر إلى اجتماعهم فقال: ما هذا؟ فقالت له امرأة من بعض السطوح: إن عمرو بن هشام تعرّض لمحمد وآذاه. فغضب حمزة ومرّ نحو أبي جهل وأخذ قوسه فضرب بها رأسه، ثم احتمله فجلد به الأرض، فاجتمع الناس، وكاد يقع بينهم شرّ، فقالوا له: يا أبا يعلى، صبوت إلى دين ابن أخيك؟ فقال: نعم، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول اللّه. ثم قال لرسول الله ﷺ: أيرضيك هذا فقال ﷺ: **«نعم يرضيني ياعمّ»**[1].

وقد كان له مواقف عديدة، وقد عبّر عنه الرسول الأكرم ﷺ بأنه **«أسد اللّه وأسد رسوله»**[2].

الثانية: الأحلام بين العلم والدين، ورؤيا الأنبياء ﷺ

ويرد هنا سؤال هو: هل للرؤيا نصيب من الحقّ والواقع؟ وهل للرؤيا التي رآها النبي ﷺ مضمون ومؤدّى؟

إنّ الأحلام عادة تأخذ حيّزاً من التفكير العلمي والديني والشعبي، فالدين مثلاً يعتبر بعض الأحلام جزءاً من النبوّة[3]؛ أمّا العلم فينقسم إزاءها إلى رأيين:

الرأي الأوّل: أنها معادل موضوعي

وتمثل هذا الرأي المدرسة التحليلية التي يرأسها فرويد وغيره وتذهب إلى أنّ

---

(١) إعلام الورى ١: ١٢٣ (قريب منه).

(٢) الكافي ١: ٢٢٤ / ٢، المستدرك على الصحيحين ٢: ١١٩، ٣: ١٩٤. وفيهما أنه ﷺ قال: «على قائمة العرش مكتوب: حمزة أسد الله وأسد رسوله».

(٣) الأمالي (الصدوق): ١٢١، مسند أحمد ٢: ١٨، ٥٠، ١١٩، ١٢٢، ١٣٧، ٣٦٩، ٣٦٩، ٤٣٨، وغيرها كثير.

الأحلام عبارة عن عملية تعويضٍ عما يراه الإنسان في عالم الواقع، فهي وسيلة توجد عنده حالة من التنفيس عن الكبت الذي يلاقيه في عالم الواقع وتعويضٍ عن الحرمان. وكذلك النظرية التي ترىٰ أنّ الأحلام هي عبارة عن انعكاس الواقع على صفحة الذهن، فما يبصره الإنسان نهاراً يره ليلاً عبر عملية لا شعورية تحدث في ذهنه.

الرأي الثاني: أنها وهم

ووفق هذا الرأي فإن الأحلام مجرّد أضغاث لا حقيقة لها ولا أثر على حياة الإنسان، وأنها لا تعدو أن تكون مجرد خيالات وأوهام.

غير أن هذه الرواية المارّة تدلّ على أن الرؤيا أحياناً تكون من صميم الواقع، وهي تعطي موقفاً إسلامياً واضحاً من الرؤيا والأحلام، وتقرّر أنّ وجهة نظر الإسلام حيال الأحلام ترى أن ليس كلّ المنامات أضغاث أحلام. وكون بعض الأحلام غير صحيحة لا يعني أن غيرها ليس له مصداقيّة، بل لابدّ من أن يحلّل تحليلاً سليماً وعقلانياً. لكن المصيبة تبقى في انتهاز الدجالين الفرص لاستدراج عوامّ الناس إلى حبائلهم، فيفسّروا لهم أحلامهم على هواهم؛ ليبتزّوا منهم أموالهم، وتكون النتيجة أن الخرافات تنتشر، وينتشر معها الجهل والظلام.

ولذا فإنّ الإسلام الحنيف عالج هذه المسألة معالجة حاسمة، فبيّن أنّ أي حكم شرعي يأتي عن طريق المنام فهو باطل، وكذلك أي أمر مخالف للواقع. لكن مما يؤسف له أنّ بعض المذاهب الإسلامية تعتمد الأحلام في إثبات حكم شرعي[١]، في حين أنّ الأحكام الشرعية كلها جاءتنا عن طريق اليقظة؛ فالحلم لا

---

(١) كمسألة الأذان، انظر مسند أحمد ٤: ٤٣، وغيره.

يمكن أن يكون مدركاً لحكم شرعي حتى لو كان المشاهد في المنام هو النبي ﷺ.

يروىٰ أن الشيخ كاشف الغطاء ﷺ ـ وكان في الكوفة ـ جاءه جماعة وقالوا له: إنّ المكان الكذائي قد رفع عليه صاحبه علماً، وهو يدّعي أنّه مغتسل الزاهراء عليها السلام. فقال ﷺ: إن الزهراء عليها السلام توفيت في المدينة ودفنت فيها، فكيف جاء مغتسلها إلى هنا؟ فقالوا له: إن صاحب هذا المكان يأخذ النذورات والهدايا من الناس على هذا. فقال: جيئوني به.

فلما جاؤوا به سأله الشيخ كاشف الغطاء ﷺ: من أين لك هذا الادعاء؟ وما دليلك عليه؟ قال: رأيت في عالم الرؤيا أنّ الزهراء عليها السلام مرّت بي فقالت لي: هذا مكان مغتسلي. فقال له الشيخ كاشف الغطاء ﷺ: إنّ كلامك لا قيمة له وأنت يقظ صاح، فكيف بك وأنت نائم؟

فالمسألة أننا لا نتخذ من المنام مصدراً من مصادر التشريع؛ لأنّ الحلم لا يمكن الركون إليه في مثل هذه المسائل الحساسة الخطرة والخطيرة.

الرمزية في المنامات

لكن إذا نظرنا إلى الأحلام بعيداً عن هذا الجانب، وتأملناها بعين الناقد لوجدنا أنّها تشكّل رموزاً لمعاني واقعية؛ لأنّ النفوس تتّصل ببعض القوى الغيبية،فتتلّقى عنها وتستلهم منها.

الثالثة: الأمويون وقضية تدوين التاريخ

وحول هذه الواقعة لنا وقفة ثالثة أيضاً تتعلّق بتدوين التاريخ التي صاحبها محاولات عديدة لطمس وجه الحقّ والحقيقة سيما فيما يتعلّق بأهل البيت عليهم السلام والأنصار، إنّ ابن الشهاب يعدّ مصدراً من مصادر كتابة التاريخ عند المسلمين،

وقد كتبه تحت عيون الأُمويين ورقابتهم؛ لأنّهم هم الذين أناطوا أمر كتابته بـه، ولما شرع بكتابته واجهته مشكلة في صميم عمله، وهي قـضيّة الروايـات التـي تمدح أمير المؤمنين عليه السلام، فكان أن نهوه عن تدوينها. وكذلك نجد مثلاً أحد كتّاب الوالي الأُمويّ خالد بن عبد اللّه القسريّ علىٰ الكوفة ـ وهو ممّن كتبوا التـاريخ الإسلامي ـ يسأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المـؤمنين عليه السلام؛ فـهل يذكرها، أم لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم.

ومن هذا القبيل ما يرویٰ أن الرشيد ـ وهو ابن عم علي عليه السلام ـ أرسل خلف أحد العلماء، لأنه أفتى وفق رأي أمير المؤمنين عليه السلام في مسألة التكبيرات فـي الصـلاة على الجنازة، وقال له: ألم تعلم أنّا قد نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إيـاك أن أسمع ذلك منك مرّة أُخرى.

وهكذا كان الحكام الطغاة يهدّدون كل من يكتب منقبة أو يذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام[1]، فهُدّد ابن الشهاب بأنّ مصيره معروف لديه إن هو كـتب فـضيلة تروىٰ عن الإمام علي عليه السلام.

---

(١) إن الأمر لم يقتصر على الحكام الطغاة فقط، بل تعدّاهم إلى الشعوب الإمّعة كـما حـدث مع النسائي حينما ألّف (مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) فقد اجـتمع عـليه المحدّثون والقرّاء وغيرهم في دمشق ـ وقيل: في فلسطين، وكان قد خرج من مصر وافداً على دمشق ـ في بعض مجالسه، فسأله بعضهم: أيهما أفضل علي أم معاوية؟ فـقال عـلى الفور: أما رضي معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضّل؟ وقال: والله لا أعرف له فضيلة إلّا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أشبع الله بطنك». فداسوه بأرجلهم وأخرجوه من الشام مضروراً، فتوجّه نحو مكّة المكرّمة وتوفّي بها متأثّراً بـإصابته. وفـيات الأعـيان ١: ٧٧، النـصائح الكافية: ١٩٩.

ونقل عنه أنه قال: «دخلت الشام، والمنحرف عن عـلي عليه السلام بـها كـثير، فـصنّفت كـتاب (الخصائص) رجوت بذلك أن يهديهم الله». شذرات الذهب (ابـن العـماد الحـنبلي) ٢: ٢٤٠.

ثم يأتي القرطبي ليلج هذا الميدان، فيقول: كان حامل لواء المسلمين في معركة أُحد رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد بن عثمان اللخمي: هل لك في المبارزة؟ قال: نعم. فبدره ذلك الرجل فضربه بالسيف على رأسه حتى وقع السيف في لحييه فقتله، فكان قتل صاحب لواء المشركين تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ[1].

مع أنّ الذي قتل في أُحد هو طلحة بن أبي طلحة العبدري (من بيت عبد الدار) ومعه ثمانية منهم أولاده وخادمه، وقد قتلهم أمير المؤمنين ﵇. ولما قتل صاحب لواء المشركين وسقط لواؤهم، رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية، ونزلت المعركة إلى أن توسّطتها وأصبحت في قلبها، وفي ذلك يقول حسان:

فلولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون في الأسواق بيع الجلائب[2]

فالإمام أمير المؤمنين ﵇ قاتل أصحاب الألوية، لكن القرطبي لم يصرّح باسمه هنا ولم يذكره، فهل تحجب مثل هذه المحاولات الحقائق من تاريخ هذا الرجل العظيم، أم إنّه يبقىٰ على حاله متألّقاً يضيء نوره جبهة التاريخ؟

سيدي يا أبا تراب يطيب الـ ... ـغرس فيه وتشرئبّ الجذورُ

أنا فيما ينمىٰ إليك وما تر ... ويه عن وجهك الرؤىٰ المأسورُ

هزني أنني المهوّم في دنـ ... ـياك حتى يفيق مني الشعورُ

وتصلّي مشاعري عند محرا ... ب به تُدمن الصلاة العصورُ

فكل نفس مسلمة مذعنة له، وحسب علي ﵇ ما قدّمه في سبيل خدمة المسلمين؛ ولذا نجد الأرواح تتهاوىٰ على ترابه، وتسجد على رملته السمراء:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٥. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٣٥.

على البعد يا وادي السلامِ تحيةً   لوادٍ ثوت فيه الوجوهُ النواضرُ
تكوّر فيه كلّ جيلٍ بحفرةٍ   فلخّصت الأجيالَ تلك الحفائرُ
بها يستوي من مات من عهد آدم   ومن مات من أمسٍ فكل دواثرُ
ركائب أجيال تيمّمن ماجداً   يؤمّل جدواه مقيم وحاضرُ
ومثل عليّ وهو من عزّ مثلُه   سريّ يرجي رفدَه من يجاورُ

فأمير المؤمنين عليه السلام وقف كل ذرّة من كيانه في خدمة الإسلام، غير أنّ الطغاة والجناة على التاريخ لم يهدأ لهم بال دون أن يحاولوا تشويه صورته، لكن هيهات ذلك. يصعد عبيد اللّه بن زياد على منبر الكوفة ويقول: الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين وحزبه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب وشيعته. فقام له عبد الله بن عفيف الأزدي وقال: يابن مرجانة، إن الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك، أتقتلون أولاد النبيّين: وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟ فأمر به ابن زياد، فمنعه الأزد وانتزعوه من أيدي الجلاوزة، فقال ابن زياد: اذهبوا إليه فائتوني به.

فلما بلغ الأزد اجتمعوا وقبائل اليمن معهم، فبلغ ذلك ابن زياد، فجمع قبائل مضر وضمّهم إلى ابن الأشعث وأمره بالقتال، فاقتتلوا وقتل بينهم جماعة ووصل أصحاب عبيد الله إلى دار عبد الله بن عفيف،فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: اتاك القوم من حيث تحذر.فقال: لا عليك، ناوليني سيفي. فناولته، فجعل يذبّ عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر   عفيف شيخي وابن أم عامرِ
كم دارع من جمعكم وحاسرِ[1]

---

(١) مثير الأحزان: ٧٢ – ٧٣.

ثم بعد هذا يعود ابن زياد ليقارع زينب عليها السلام ويشتمها، فكان أن اختنقت بعبرتها؛ حيث لم يبقَ أحد عندها يسلّ سيفه دونها:

منهو انصدع يا بين صدعي	**لهدات تسعر تحت ضلعي**
أخبّي عن الشمّات دمعي	**واضمّ ونّتي حتى على سمعي**

واذكرك بنصّ الليل والعِي



﴿١٥١﴾

أمير المؤمنين عليه السلام سيرةً وموقفاً

بشر أقلّ صفاته إن عاينوا — منهن ما ظنّوا به المعبودا

ضلّت قريش كم تقيس بسابق الـ — حلبات ملطوم الجبين مذودا

يا صاحب المجد الذي لجلاله — عنت السرايا منصفاً وعنيداً

لك غرّ أفعال إذا استقرأتها — أخذت عليّ مفاوزاً ونجودا

وصفات فضل أشكلت معنى فلا — إطلاقَ يكشفها ولا تقييدا

ومراتب قُلّدتها بمناقب — كالعقد تُلبسه الحسان الخودا [(١)]

المباحث العامّة للموضوع

وقفات في حياته عليه السلام؟

حينما يريد البعض أن يترجم لشخصيّة ما فإنّه يلجأ إلى طريقة إحصائية لبيان أبعاد المعرفة عنده، فيسلّط الأضواء على بعض الأُمور الهامّة في حياته. ونحن سوف نستخدم هذه الطريقة في دراستنا لبعض ملامح أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف نسجّل ذلك في وقفات عدّة، وسنخصّص كل وقفة بمبحث إن شاء الله:

المبحث الأوّل: قضية العمر عنده عليه السلام وإشكالية إسلامه

إنّ أوّل ما يمكن أن يحصى لأمير المؤمنين عليه السلام هو عمره، وهو وإن كان قصيراً

---

(١) ديوان الحاج هاشم الكعبي: ٣٩.

بالمدىٰ لكنه طويل بعطائه وإنجازاته وخدماته للإسلام ورسول الإسلام ﷺ وللمسلمين. وعمر الإمام ﷺ بالنسبة للأعمار الطويلة يعتبر قصيراً جداً، فهو لم يتجاوز العام الثالث والستين من عمره الشريف إذا عرفنا أنّه ﷺ ولد عام (١٠) قبل المبعث الشريف (بعد عام الفيل بثلاثين عاماً). وعلى هذا فإنّ عمره الشريف كان عشر سنوات حينما نزلت أوّل سورة من القرآن الكريم وسمعها ووعاها. وهذا المعنى حاول بعض المؤرّخين أن يرميه بسهام الشكوك، من جهة أنه لا يمكن أن يعتبر الإنسان في هذا العمر إنساناً كاملاً، ولا تعدّ مداركه ناضجة. وعليه فيكون إسلامه ﷺ غير صحيح في مثل هذا السنّ، ولا يعدو إسلامه أن يكون تقليداً؛ لأنّه صبي غير ناضج لم يعتنق الإسلام عن وعي وإدراك[1].

مناقشة دعوى أنّه ﷺ لم يسلم عن إدراك

وهذه الدعوىٰ مردودة من عدّة وجوه، منها:

الأوّل: أنه ﷺ نشأ مسلماً

إنّ هذا الكلام يمكن أن يوجّه إلى شخص لم يكن مسلماً ثم أسلم، أمّا مع أمير المؤمنين ﷺ الذي ربي في بيت التوحيد والنبوة، فالأمر مختلف؛ لأنه ﷺ كان يعيش الوحدانية في ذاته ومشاعره؛ فلم يسجد لصنم قط. وهذه الذهنية اللامعة إذا لم تكن تسجد لصنم أبداً فلمن كانت عبادتها تتوجّه إذن؟

الثاني: اصطحاب رسول الله ﷺ إياه إلى غار حراء

إننا نعرف ـ كما يثبت التاريخ ـ أنّ الرسول الأكرم ﷺ كان يصطحب أمير المؤمنين ﷺ خلال هذه السنوات العشر معه إلى غار حراء حيث يتعبّد، فكان ﷺ

---

(١) وهذا ما أثبته المأمون في مناظرته مع علماء السنّة. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

يفتح عينيه على الدنيا من خلال عبادة اللّه وتوحيده. وكان يعيش هناك في حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تهجّده ويحفظ أذكاره ويحاكي تعبّده. وهكذا يكون على مثل منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ويكون الاعتراض بأن إسلامه غير ناضج لا اعتبار له، وفي غير محلّه.

ثم إننا لو راجعنا التاريخ المعاصر لوجدنا فيه عباقرة وهم في سن دون السن التي كان عليها أمير المؤمنين عليه السلام، ففي العام (١٤١٥) مثلاً منح شخص شهادة البكالوريوس وكان عمره (١٢) سنة. ونحن لا نريد أن نبرهن على أنّ الإمام علياً عليه السلام كان على رأس النوابغ؛ فهو عليه السلام أكبر من هذا.

المبحث الثاني: الإمام عليه السلام ينذر حياته دفاعاً عن الإسلام وصاحبه صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كان عليه السلام منذ أن بعث اللّه تعالى نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم برسالته وحتى هجرته الشريفة واضعاً يده على قائم سيفه، ينافح ويكافح من أجل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ومن أجل هذه الدعوة المباركة الجديدة. وكان عليه السلام بهذا يعرّض نفسه للحجارة والآلام والمخاطر في سبيل هذا الهدف الشريف، وكان نصيبه من الاضطهاد كبيراً؛ حيث إنّه عليه السلام كان يلاقي كل ما كان يلاقيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه كان يلازمه كظلّه، ويدافع عنه دفاع المستميت.

دوره عليه السلام في حفظ الإسلام

وعندما هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون إلى المدينة كان عمر الإمام علي عليه السلام ثلاثاً وعشرين سنة، وفي السنة الأُولىٰ من الهجرة تزوّج من سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام. وكانت السنوات العشر الأُولىٰ التي قضاها في المدينة المنوّرة مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم تعدّ مركز الثقل في حياته عليه السلام من نواحٍ متعددة؛ لأنّ الإسلام بني خلال هذه السنوات العشر، وفيها تأسّس المجتمع المدني. وقد كان لأمير

المؤمنين عليه السلام الإسهام الأكبر في بناء هذا الدين والمجتمع على الأصعدة المدنية والحربية، وكل ذلك خدمةً للنبي صلى الله عليه وآله ورسالته، خدمة خالصةً لوجه اللّه تعالىٰ.

وبعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وارتحاله إلى الرفيق الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ وكان عمره الشريف آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة ـ عاش خمساً وعشرين سنة مع الخلفاء إبان فترة حكمهم، حيث بلغ من العمر ثمانياً وخمسين سنة. ولم يكن عليه السلام خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة مجمّداً أو يمتنع عن أن يكون له دوره الفاعل في حياة المجتمع والدولة، بل كان يشارك في كل الفعاليات بكل ما يمكنه المشاركة به، فكان عنصراً ذا وجود واضح على الساحة الإسلامية في المدينة، يتدخّل ليبدي رأيه في كثير من أمور الدولة والناس ومشاكلها ومشاكلهم[1].

---

(١) لعلّ في تدخّله عليه السلام في كثير من أحكام القضاء التي قضىٰ بها الخلفاء الثلاثة، انظر: الإرشاد ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨.

وفي مشورته على الخلفاء في أُمور الدولة؛ كقضية التاريخ، انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، البداية والنهاية ٧: ٨٥، الكامل في التاريخ ١: ١١.

ومنعه الخليفة الثاني من الذهاب بنفسه إلى المعركة حيث قال له: «نَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَه، وَنَاصِرٌ جُنْدَه. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ؛ فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ. إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ

وبعد استلامه عليه السلام دفّة الخلافة سنة (٣٦) هـ بقي في المدينة المنوّرة، لكنه عليه السلام ارتحل عنها إلى الكوفة بعد واقعة الجمل سنة (٣٧) هـ، وبقي فيها حتىٰ استشهاده عليه السلام عن عمر يبلغ الثالثة والستين عاماً. وكانت فترة حكمه أربع سنوات وثمانية أشهر. يقول أحد الشعراء:

ستّون عاماً فخاماً في حصائلها ... وإن تبدّىٰ قليلاً عندها العدد

لقد كان عمره الشريف كما قلنا (٦٣) سنة، لكن هل هذا هو العمر الحقيقي له (سلام اللّه عليه)؟ كلّا؛ إنّه لازال في صميم الحياة، فالعمر يقدّر بالعطاء، وعمره الشريف (سلام اللّه عليه) متدفّق بالعطاء، مفعم بالإخلاص والتفاني في خدمة دين اللّه تعالىٰ. وهكذا كان عليه السلام منذ دخوله الدنيا وحتى خروجه منها، ويظل عطاؤه يتوالد؛ فنظرياته تمسح كل أبعاد المعرفة:

ستلقاه حيّاً في الروائع كلها ... وفي كل سفر من روائعه فكرُ

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا ... أهذا الكيان الضخم يجمعه قبرُ

ولكنه باب إلى معطياته ... يمدّ غناه من بساحته فقرُ

فما يزال علي حيّاً بنظرياته وفكره وأخلاقياته وقيمه، وسيبقىٰ حيّاً وعطاءً بعد عطاء إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها. وهذه هي حصيلة عمر علي بن أبي طالب عليه السلام الإحصائية.

المبحث الثالث: زواجه عليه السلام وأسباب تعدد الزوجات أول الإسلام

لم يتزوّج أمير المؤمنين من غير فاطمة عليها السلام حال حياتها، ولم يعدّد إلّا بعد

☚ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ». انظر: نهج البلاغة / الخطبة: ١٤٦. أكبر دليل على ذلك.

وفاتها عليها السلام. وهذه نقطة تستحق الوقوف عندها، فعند الرجوع إلى تاريخ الصحابة في الفترة التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام من النادر أن نجد صحابياً لا يملك عدد الأزواج نفسه الذي يملكه أمير المؤمنين عليه السلام. فقد كان الصحابة يكثرون الأزواج لأسباب متعدّدة، منها:

الأوّل: تمتين الوشائج بين القبائل

فقد كان البعض من الصحابة يعمد إلى الزواج من قبائل أُخرىٰ، حتى تبقىٰ الوشائج قوية بين قبيلته هو كمسلم وقبيلة زوجته، وهكذا تستمر المصاهرة بهذا اللون حتى يأتي الوقت الذي تمّحي فيه الآثار القبلية. وهذا مردّه إلى أنّ الإسلام كان ضعيفاً في بادئ أمره، فاحتاج إلى أنّ يتجذّر في القبائل.

الثاني: تكثير المقاتلين

فالإسلام في أوّل أمره حوصر من جهات عدّة، فقد تكالب عليه العرب والأُمم الأُخرىٰ، وكان المسلمون معرّضين للقتل والذبح والإبادة في أية لحظة؛ فلذا كان لابدّ لهم من أن يهيّئوا وقوداً لمعركتهم ضد أُولئك، وهذا الوقود لا يجيء إلّا عن طريق الإكثار من الزوجات.

الثالث: عامل القربى والتربية

إنّ المتتبّع لبعض الزيجات وبالأخص عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعند أمير المؤمنين عليه السلام يجد أنّ عامل الرغبة منتفٍ جداً وبشكل واضح وكبير فيها. والعامل الوحيد المأخوذ بنظر الاعتبار هنا هو مراعاة أواصر القربىٰ بينهم وبين من يتزوّجون منهن أو من أزواجهن المتوفَّين عنهن، ومراعاة تربية أبنائهن تربية سليمة، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام في زواجه من أسماء بنت عميس. وإلّا فما الذي يجبر أمير المؤمنين عليه السلام على الزواج منها وقد كانت تحت تحت جعفر بن أبي

طالب عليه السلام، وقد أولدها، ثم تحت أبي بكر الذي أولدها محمداً (الابن النجيب والمطيع لأمير المؤمنين عليه السلام)؟ أليس هو عامل مراعاة القرابة وتربية هؤلاء الصغار تربية صحيحة سليمة؟ فمعظم نساء أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النوع.

إذن فقد كان أمير المؤمنين مكثراً من الزوجات، وكانت فاطمة الزهراء عليها السلام سكنه الأوّل وروحه من الدنيا، وكان عليه السلام يوليها رعاية وعناية لا حدود لهما ولا نظير. ثم تزوج بعدها أمامة بنت أبي العاص (ابنة اخت الزهراء عليها السلام)، وكان عليه السلام قد تزوّجها بوصيّة منها عليها السلام حيث قالت له عليه السلام: **«في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها»**. قال عليه السلام: **«بلى، عزّ والله عليّ فراقك يا بنت رسول الله»**. قالت: **«يا أبا الحسن، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة؛ فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة»**[1].

ثم تزوّج فاطمة بنت حزام أُم البنين (رضي الله عنها)[2]. ومن أزواجه خولة الحنفيّة (أُمّ محمد بن الحنفية عليه السلام)، والمحيّاة بنت امرئ القيس الكلبيّة، وأُم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي، بالإضافة إلى عدد من الجواري.

وكان عدد نسائه ثمانياً على أصحّ الأقوال، ومعظم زيجاته عليه السلام منهن كان يتجلّىٰ فيها الجانب الاجتماعي؛ حيث إنّه عليه السلام يصاهر عروة بن مسعود الذي يقول فيه القرآن الكريم على لسان المشركين: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً**

---

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) ومن باب أنّ الشيء بالشيء يذكر أنّ من أسباب تعدّد الزوجات هو من أجل إعداد المقاتلين للمعركة، نذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قد طلب من أخيه عقيل أن يبحث له عن امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب ليتزوّجها فتلد له غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولده الحسين عليه السلام بطف كربلاء. انظر: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾[1]. فكان زواجه من هذا البيت لهدف اجتماعي يصب في خدمة الإسلام. وأمّا جواريه فلم يكنّ لغير هدف اجتماعي كان ﵇ يرتئيه.

وأمّا عدد أبنائه وبناته فثلاثة وثلاثون ولداً؛ قتل منهم عشرة يوم الطف الذي لم يحضره آخرون لمرض أو لعذر آخر. والتاريخ لا يسعفنا بمعلومات كافية وافية حول امتناع من امتنع عن الطف، ولا يمدّنا بما نستطيع أن نخرج منه بنتيجة صائبة لا تقبل الردّ والنقاش، مع أنّ في هذه الواقعة تقرير مصير الدين والاُسرة والحق. وإلّا فلماذا يتخلّف أخ للإمام الحسين ﵇ عن الخروج معه في حين أنّه ﵇ حضر معه من لا يمتّون إليه بصلة دموية؟ لابدّ أن يكون هناك سبب ما يستحق أن تسلّط الأضواء عليه.

المبحث الرابع: عطاءاته ﵇

العطاء الأوّل: رصيده ﵇ من الهجرة

لقد كان له ﵇ هجرتان:

الأُولىٰ: هجرة الطائف

فقد كان ﵇ يخرج خلف رسول اللّه ﷺ حينما كان يذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام والإيمان بعد رفض قريش دعوته، فكان أهل مكـة يـدفعون جهّالهم وأطفالهم ليرموه بالحجارة التي كانت تأخذه يميناً وشمالاً حتى تـدمىٰ قدماه الشريفتان. وعندها اضطرّ ﷺ للخروج إلى الطائف، ولم يكن موقف أهل الطائف بأحسن من موقف أهل مكّة، فكانوا يسلطون عليه أطـفالهم بـالحجارة يرمونه بها؛ ولذا كان أمير المؤمنين ﵇ يخرج معه ليدفع عنه شرّهم وآذاهم.

---

(١) الأنعام: ٨.

مغالطات المؤرّخين فيما يخصّ أمير المؤمنين عليه السلام

والغريب من بعض المؤرّخين أنهم حينما يمرّون بمنقبة له عليه السلام أو فضيلة يحاولون نسبتها إلى غيره أو سحبها لذلك الغير[١]. ومن هذه الموارد:

١ ـ هجرته عليه السلام إلى الطائف

فبعض المؤرّخين يقولون: إنّ الذي كان يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله هو أُسامة ابن زيد[٢]، وليس أمير المؤمنين عليه السلام الذي ذكر ابن أبي الحديد أنه عليه السلام كان معه[٣].

٢ ـ توكّؤ رسول الله صلى الله عليه وآله على كتفه

وكذلك نحن نروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في مرضه من بيت إحدىٰ نسائه، وكان صلى الله عليه وآله متوكّئاً بيد على منكب الفضل بن العباس، وبيده الشريفة الأُخرىٰ علىٰ منكب أمير المؤمنين عليه السلام. أمّا الطرف الآخر فيروي أنّه صلى الله عليه وآله كان

---

(١) من قبيل ادّعاء ابن تيمية أن آية التطهير وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣ لم تنزل في أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: اتّفق أهل العلم على أن هذا كذب. منهاج السنة ٤: ٢٥٩.
وكذلك من قبيل ادّعائه أن سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾ لم تنزل فيه وفي فاطمة الزهراء وابنيهما عليهم السلام. مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩.
وادّعائه أنه ليس في الصحيح من أخبار مدح أمير المؤمنين عليه السلام ما يدل على إمامته ولا على فضيلته على أبي بكر وعمر، بل وليست من خصائصه وإنما هي فضائل شاركه فيها غيره بخلاف ما ثبت من فضائل أبي بكر وعمر فإن كثيراً منها خصائص لهما لا سيما فضائل أبي بكر فإن عامّتها خصائص لم يشركه فيها غيره. منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥.
وقد مرّ كل هذا مفصّلاً مع ردّ ابن الجوزي عليه في ج ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ من كتابنا هذا.

(٢) انظر: بحار الأنوار ١٩: ٢٢ عن الكازروني، الاستيعاب ١: ٤٠، الطبقات الكبرى ١: ٢١١، أُسد الغابة ١: ٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤: ١٢٧.

يتوكّأ على منكب الفضل بن العبّاس بيد وبالاُخرى على منكب رجل آخر. فهم لا يطيقون حتى ذكر اسمه ﴿ع﴾.

٣ ـ حامل لواء المسلمين في أُحد

وفي هذا المضمار يروي ابن شهاب فيقول: وحمل لواء المسلمين يوم اُحد رجل منهم، فلا يطيق ذكر اسم علي ﴿ع﴾ حامل اللواء يومها.

فالتشنّج الذي يحمله البعض إزاء أمير المؤمنين ﴿ع﴾، ويجعلهم لا يطيقون ذكر اسمه من الطبيعي أن يحملهم على رفض فكرة أنه صاحب الهجرة إلى الطائف مع رسول اللّه ﴿ص﴾ درعاً له وحماية، بعد أن اضطرته حجارة قريش إلى أن يخرج إليها. وهناك وقف له أهل الطائف ثلاث فرق، وقال له أحد رؤسائهم: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟ فأغضى النبي ﴿ص﴾ عنه؛ فالسكوت أحياناً يكون أبلغ جواب. وقال له الآخر: أنت يتيم أبي طالب، وتريد أن تسود العرب؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان اللّه بعثك؟ ولم يجبه النبي ﴿ص﴾ أيضاً. والتفت له الثالث فقال: أنت بين أمرين: إما أن تكون نبيّاً، وإما أن تكون كذّاباً، فإن كنت نبيّاً فأنت أكبر من أن اُكلّمك، وإن كنت كذّاباً فأنا أكبر من أن اُكلّمك.

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كلّ جانب ومكان حتى أدمته، فرفع ﴿ص﴾ رأسه إلى السماء وقال: **«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلني؟ إلى عبد يتجهّمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك،**

أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»[1].

وهذه هي الهجرة الأُولى.

الثانية: هجرته‌عليه السلام إلى المدينة

وهذه الهجرة تشكّل رقماً يلوي الأعناق، ويشدّ العيون إليه شدّاً، لأنّه تحدّى كبرياء قريش وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وخرج بالفواطم (فاطمة الزهراء‌عليها السلام، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) إلى المدينة قائداً لظعينة رسول الله‌صلى الله عليه وآله. وكان قد تحدّاهم في وضح النهار قائلاً: **«هذه ظعينة رسول الله‌صلى الله عليه وآله، وأنا خارج بها، ومن أحبّ منكم أن يتبعني فليفعل»**.

وخرج لظعينته يحميها وهو ماشٍ علىٰ قدميه، فقد ذكر المؤرّخون أن قدميه قد تشقّقتا؛ إذ لم يرضَ‌عليه السلام أن يركب على راحلة؛ طلباً لمرضاة اللّه تعالى ومرضاة رسوله، إلى أن أخذت الأرض من قدميه مأخذها، وحتىٰ تشقّقتا، وظهرت فيهما القروح، فتلّقاه رسول اللّه‌صلى الله عليه وآله يبارك قدمين سعتا في سبيل اللّه، ويداً ذادت عن عيال رسول اللّه‌صلى الله عليه وآله، فاحتضنه ومسح علىٰ رجليه واعتنقه وأبىٰ أن يدخل إلىٰ دار هجرته إلّا وساعده بساعد علي‌عليه السلام[2].

العطاء الثاني: رصيده من الوقائع والحروب

وخاض (سلام اللّه عليه) ثلاثاً وثمانين غزوة وسرية كان لواء المؤمنين فيها بيده، وكان فيها البطل الأوّل المدافع والمنافح عن الإسلام وعن رسول

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١. (٢) شجرة طوبىٰ ١: ٦٤ ـ ٦٦.

الإسلام ﷺ، وكان الجسد الذي يتلّقى الطعنات درءاً للخطر عن أن يصيب جسد المسلمين، وكان السيف الذي غرّد به جبرئيل بين السماء والأرض: **«لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علي»**[١].

إنّه السيف الذي لم يسلّ قط للبغي أو للتجبّر والظلم، بل إنّه سلّ ضدّ هذا.. كان سيفاً ينال الشجاع ويترفّع عن قتل الجبان، سيفاً أبىٰ أن يوضع على عنق عمر بن العاص الذي لم يستقبله ببطولة الرجال الشجعان، بل استقبله بانخذال الجبناء.. سيفاً ترفّع عن قتل بسر بن أرطاة وعمرو بن العاص[٢]، بل إنّه ترفّع حتى عن قاتله. إنّه سيف سُلّ تركيزاً لكلمة **«لا إله إلّا اللّه»** وللدفاع عن دماء المسلمين وأعراضهم، فأبلىٰ في اللّه أحسن البلاء.

وها هو ﷺ يعطينا صورة واضحة عن هذه المسيرة الطويلة المفعمة بالعطاء والجراح، والمليئة بالآلام في خدمة الإسلام؛ فيلج الحرب تلو الحرب. يقول ﷺ: **«وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي؟ لقد نهضت فيها وما بلغت**

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٩٧، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٣: ٩٤، ٤: ٧٠٧، كنز العمّال ٥: ٧٢٣ / ١٤٢٤٣.

(٢) حيث استقبلاه بعورتيهما، وقد نظم بعض الشعراء ذلك شعراً، فقال أبو فراس الحمداني:

ولا خير في دفع الردىٰ بمذلّة ... كما ردّه يوماً بسوءته عمرو

ديوان أبي فراس: ١٥٧. وقال آخر:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه ... له عورة وسطَ العجاجةِ باديهْ
يكفُّ بها عنه علي سلاحَهُ ... ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويهْ
بدت أمسِ من عمرٍو فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيهْ
فقولا لعمرٍو وابن أرطاة أبصرا ... سبيليكما لا تلقيا الليث ثانيهْ

الفصول المهمّة: ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين» [١].

أي أنّه عليه السلام أمضىٰ من عمره ثلاثاً وأربعين سنة لم يخرج فيها من لهوات الحرب. وقد أعطته هذه الفترة رصيداً ضخماً من الجراح، فقد حُمل في واقعة أُحد مثلاً وفي جسده أربع وستون طعنة رمح وضربة سيف كما يروي المؤرّخون. وكانوا قد وضعوه على حصير أحضرته الزهراء عليها السلام وهو قطعة واحدة من الدم، فراحت عليها السلام تمسح الدماء عنه وتضمّد جروحه، فنبذ إليها السيف وهو يقول:

«أفاطم هاك السيف غير ذميمِ فلست برعديد ولا بمليمِ

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمدٍ وطاعة ربّ بالعباد رحيمِ» [٢]

وجاءه رسول الله صلى الله عليه وآله يعوده ويواسي جراحه، فأخذ يمرّ بأنامله الشريفة وكفّه الكريمة فتتهاوى الجراح فتبرؤ. وكان عليه السلام طالما يقول: **«إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على فراش»** [٣].

إنّ كل جرح من هذه الجراح هو وسام من أوسمة البطولة؛ لأنّه كان يبتغي بها وجه الله تعالى وليس الانتقام لنفسه [٤]. فلذا كان كل واحد منها يغرّد بفضله

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٢٧.

(٢) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

(٤) وأكبر دليل على أنّه لا يروم الانتقام لنفسه موقفه مع عمرو بن ودّ العامري. انظر تاريخ الطبري ٢: ١٩٤.

وبطولته، فهو عليه السلام عندما ينزل إلى ساحة المعركة تتحاشاه الرجال والأبطال، فيخط صفحة من صفحات المجد والخلود، وهو يحمل ذلك السيف الفارق بين الحقّ والباطل، أولسنا نسمع رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطبه بقوله: **«ويلٌ لمن سلّ سيفه عليك، وسللت سيفك عليه»**[(١)]؟ فهو سيف لم يسلّ إلّا لينصر الحقّ ويخذل الباطل ويدحضه، وليقف بوجه البغي.

العطاء الثالث: رصيده من المؤلّفات

له عليه السلام من المؤلّفات عشرة:

١ ـ تفسير القرآن الكريم. لقد كان عليه السلام ما إن تنزل آية حتى يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وعن معناها ونزولها، فيجيبه الرسول صلى الله عليه وآله. وكان يكتب كل ذلك في ذيل كل آية يسأل عنها، حتى جمع القرآن كله على هذه الشاكلة على ترتيب النزول؛ المكي ثم المدني. وهذا القرآن هو الذي يعبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: **«مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات»، و«ما فيه من قرآنكم شيء»**[(٢)]، أي أنّه تفسير فقط.

فرى على الشيعة حول مصحف أمير المؤمنين عليه السلام

فهذا هو مصحف علي عليه السلام، لكن هنا بدأت الأقلام المأجورة والمزيّفة، والأيدي والأفواه غير الشريفة بالتطاول والتقوّل على الشيعة حول هذا المصحف، فيقولون:

---

(١) المزار (الشهيد الأول): ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦، وفيهما: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلّ سيفه عليك وسللت عليه سيفك يا أمير المؤمنين من المشركين والمنافقين إلى يوم الدين».

(٢) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.

إنّ للشيعة قرآناً غير قرآن المسلمين، ويزعمون أنّ المهدي حينما يخرج فإنّه يخرج به.

وهذا تخريف، فنحن ليس عندنا سوى هذا القرآن الذي يقرؤه مسلمو الأرض، وكل من يدعي غير ذلك فعليه أن يأتي بالبرهان ولا يكتفي بالتحكّم وإطلاق الدعاوىٰ والفرىٰ بغير دليل. ومن يقلْ بوجود رواية عند الكليني بهذا الخصوص، فنحن مستعدّون لأن نعطيه عشرات الروايات في كتب الحديث والصحاح، تقول بوقوع التحريف في القرآن[١]. غير أنّ المسلمين لا يأخذون بهذه الروايات ولا يعتدّون بها.

إنّ هناك روايات تُنسب إلى الخليفة الثاني يصرّح فيها بأنّ هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم[٢]، وينسب إلى عائشة حذف آيات الرضاعة بنسخ التلاوة[٣]، وينسب إلى بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً أنّ بعض الآيات قد أكلها الداجن[٤]، غير أنّ المسلمين كما ذكرنا لا يرتّبون على هذا أثراً. والكليني رحمه الله

---

(١) مرّ هذا البحث في محاضرة (تحريف القرآن) ج ٤ من كتابنا هذا، وانظر الهوامش التالية.

(٢) وهي: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله تعالى). انظر: الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، المنخول في علم الأُصول (الغزالي): ٣٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٣: ٢٣٠.

(٤) حول هذا الموضوع انظر: مسند أحمد ١: ٢٣، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٥٠، ٥: ١٢٩، ١٣٢، ٦: ٢٦٩، صحيح مسلم ٢: ١٠٥٠ / ٧٢٦، ١٠٧٥ / ١٤٥٢، سنن الدارمي ٢: ٢١٧٩، السنن الكبرى ٨: ٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٤٥٦، المصنف (الصنعاني) ٧: ٤٦٧، ١١: ٤٧٠، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٩، ٣٦٠، الكشاف ٣: ٥١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١١٣، ٢٠: ٢٥١، مناهل العرفان ١: ٢٧، ٢٥٧، ٢: ١١١، روح المعاني ١: ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، الإتقان ١: ٢٤٢، ٣: ٨٢، ٨٤، ٢٠٦، الدر المنثور ٦: ٥٥٩ ـ ٥٦٠، وغيرها كثير.

نفسه يشترط لصحة الأحاديث شروطاً في مقدّمة (الكافي)، حيث يقول: «فاعلم يا أخي (أرشدك اللّه) أنه لا يسع أحداً تمييز شيء ممّا اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلّا على ما أطلقه العالمعليه السلام بقوله: **«اعرضوها على كتاب اللّه؛ فما وافق كتاب اللّه عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب اللّه فردّوه»**...»[1].

وليس هناك مسلم يشهد الشهادتين يؤمن بوجود زيادة ونقيصة في القرآن الكريم؛ لأنّه حينذاك سوف لن تسلم له عبادة ولن يتمّ له حكم شرعي؛ إذ من الممكن أن تكون هذه الزيادة أو النقيصة قد تطرّقت لعباداته ومعاملاته وتكاليفه، فتكون ناقصة أو فيها أشياء ليست من اللّه ولا من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان أمير المؤمنينعليه السلام يسلّي فاطمة الزهراءعليها السلام عن فقد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بقراءة شروح الآيات لها وما فيها من معانٍ وأحكام؛ فقد كانتعليها السلام تعيش الألم والحزن لفقد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، فكان الإمامعليه السلام يسليها بذكر اللّه ومدارسة آيات كتابه العزيز.

٢ ـ **كتاب علوم القرآن**: وهو كتاب جمععليه السلام فيه أحكام علم التجويد والنحو المرتبط بالقرآن، وعلمي الفقه وأُصوله، والآيات التاريخية وغير ذلك.

٣ ـ **قضايا علي بن أبي طالب**عليه السلام. وهو مصنّف جمع فيه القضايا والأحكام القضائية التي استلّها من القرآن، وذلك حينما يترافع عنده اثنان فإنّه يحكم بينهما بالقرآن. وقد جمعت هذه المسائل في كتب مستقلّة.

٤ ـ **كتاب الجفر**. يقول أبو العلاء المعري:

لقد عجبوا لأهلِ البيتِ لمّا ... أتاهم علمُهم في مَسكِ جَفْرِ

---

(١) الكافي ١: ٨.

ومـرآةُ المـنّجمِ وهـي صـغرىٰ　　أرتـه كـلَّ عـامرةٍ وقـفرِ[١]

٥ ـ الجامعة.

٦ ـ كتاب في الزكاة.

٧ ـ كتاب في الفرائض والمواريث.

٨ ـ كتاب في أبواب الفقه العامّة.

٩ ـ كتاب في الفقه، لكن لم يحدّد المؤرّخون موضوعه.

١٠ ـ نهج البلاغة. وهو كتاب غني عن التعريف.

ومن المختصّين من يجعل مؤلّفاته أحد عشر مصنّفاً بجعل عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر كتاباً مستقلاً، أمّا من يعدّه ضمن (نهج البلاغة) فيجعلها عشرة مصنّفات.

محاولات التشكيك في نسبة (نهج البلاغة)

إنّ كتاب (نهج البلاغة) هو أهمّ مؤلّفات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد استأثر باهتمام عامة الناس وخاصّتهم من علماء وأُدباء وغيرهم؛ شرحاً وإثباتاً ونفياً، فلم تترك الأقلام المشبوهة هذا الكتاب وشأنه، بل نجد أنّه بين فترة وأُخرىٰ يطلّ علينا كاتب يدّعي أنّه ليس لأمير المؤمنين عليه السلام، بل إنّه من وضع غيره ثم نُسب إليه. وهذا مردود بأنّ أي أديب متمرّس يعرف بمجرّد قراءته أنه لأمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه من كلامه؛ فكلامه عليه السلام واضح بيّن لا يستطيع أحد أن يجاريه فصاحة وبلاغة[٢].

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٥٠ / ٤٠٨، والجفر: ولد المعز، وهو ما بلغ أربعة أشهر. الصحاح ٢: ٦١٥ ـ جفر.
والمسك: الجلد، ومنه قولهم: أنا في مسكك إن لم أفعل كذا وكذا. الصحاح ٤: ١٦٠٨ ـ مسك.

(٢) قد مرّ هذا المبحث والردّ عليه في محاضرة (تحريف القرآن) ج ٤ من كتابنا هذا.

ويبقى (نهج البلاغة) يصدح باسم أمير المؤمنين عليه السلام مهما سلطت عليه وضدّه الشبهات، وتظل هذه الشبهات تنحسر عنه بمجرّد أن ترتطم به. ثم إنّ من نسبوا إليه كتابته ـ وهو الشريف الرضي ﷺ ـ أجلّ وأشرف من أن يفتري ويكذب وينسب لعلي عليه السلام ما ليس له. يقول أحد الأدباء:

غير أن النفسَ اللئيمةَ تهوى ... أن يغطّي الحقائقَ التضليلُ

زعموه نهجَ الرضي ومهلاً ... أين من هادر الفحول الفصيلُ

كلُّ فصلٍ أبو ترابٍ به يبـ ... ـدو فتهتزّ بالهديرِ الفصولُ

فكل مقطع من هذا الكتاب يُستشفّ منه نفس عليّ عليه السلام، وترىٰ بصماته واضحة عليه؛ فخبرته عليه السلام وأداؤه متميّزان لا يتمكن أحد من أن يضاهيهما أو يحاكيهما.

المبحث الخامس: علي عليه السلام في القرآن

لقد مدحه القرآن الكريم في ثلاثمئة آية، وإن كان محلّ اتفاق المفسرين سبعين آية، وهذه الآيات التي تناولته إمّا بصورة مباشرة لوحده، أو بصورة ضمنيّة مع آخرين. وهذا المجموع من الآيات يعدّ رصيداً ضخماً لم يبلغه أحد غيره.

فمن الآيات التي ذكرته ضمناً آية التطهير[1] حيث ذكرته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

☚ قال ابن أبي الحديد: «وأمّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيّد البلغاء... وكلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة؛ قال عبد الحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت. وقال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة، حفظت مئة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب عليه السلام. ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاوية: جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس؟ فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره». انظر: شرح نهج البلاغة ١: ٢٤ – ٢٥، طبقات الحنابلة ٢: ١٢٠.

(١) هي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

وفاطمة والحسنين عليهم السلام. ومن الآيات التي اختصّت به واختصّ بها آية النجوى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[3]. وهكذا نجد أنّ ذكره عليه السلام مبيّناً في صفحات القرآن الكريم، واحتلّ مساحة كبيرة من مجال صدحه وذكره.

☚ الأحزاب: ٣٣؛ ففي كتب الصحاح الأسانيد وغيرها بعدّة طرق أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر، فيقول: «الصلاة يا أهل البيت»، ثم يتلو هذه الآية الشريفة. انظر: مسند أحمد ٣: ٢٥٨ ـ ٢٥٩، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، تهذيب الكمال ٥٣: ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣.

(١) المجادلة: ١٢.

(٢) الحاقة: ١٢، حيث إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله أمرني أن أُدنيَك ولا أُقصيَك، وأن أُعلّمك وأن تعي، وحقّ على الله أن تعي». فنزلت هذه الآية الشريفة.
وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية الشريفة، ثم التفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: «سألت الله أن يجعلها أذنك». قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنسيته». انظر: جامع البيان ٢٩: ٦٩ / ٢٦٩٥٤، تخريج الأحاديث والآثار ٤: ٨٤، كنز العمال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥، شواهد التنزيل ٢: ٣٦٥ / ١٠١١، ٣٦٨ / ١٠١٣، ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ١٠١٥، ٣٧١ - ٣٧٢ / ١٠١٩، ٣٧٤ - ٣٧٥ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤، المواقف ٣: ٦٢٧.

(٣) الرعد: ٧، حيث إنه لمّا نزلت هذه الآية الشريفة وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة على صدره وقال: «أنا المنذر ولكلّ قوم هاد». ثم أومأ بها إلى منكب أمير المؤمنين عليه السلام وقال «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي». جامع البيان ١٣: ١٤٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٩ - ١٣٠، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، تفسير ابن أبي حاتم ٧: ٢٢٢٥ / ١٢١٥٢، شواهد التنزيل ١: ٣٨٣ / ٣٩٩، ٣٨٤ ـ ٣٨٧ / ٤٠٠، ٣٨٨ / ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٢: ٥٢٠، الدر المنثور ٤: ٤٥.

محاولات طمس فضائله عليه السلام

لكنه عليه السلام لم يسلم من أقلام السوء المأجورة وهي تحاول أن تغطّي ذلك النور المنبثق من القرآن الكريم بحقّه، وكل ذلك تحت رعاية ونظر الأُمويّين والعباسيّين الذين حاولوا طمس هذا الواقع وتحريفه عبر شراء ذوي الأقلام الرخيصة والحناجر المبتذلة من وعّاظ السلاطين. لكن كل ذلك لم يفلح، ولم تنتج هذه المحاولات، ولم تستطع أن تهزّ ذرّة واحدة من كيانه عليه السلام، يقول أحد الأُدباء:

سلوا النفس قد طافت عليها عوالم ... أهل وجدت للجوهر الفرد ثانيا

وهل متناهي اللفظ يتبعه الثنا ... ليحمل معنى منك لا متناهيا

ولكنها الألفاظ مهما تناسقت ... إذا لم تزفّ المدح عادت هجائيا

إلى أن يقول:

وما مدحتي توليك فخراً وإنّما ... أردّ بإطرائي عليك الطواريا

إذا الملأ الأعلى تحدّد بالثنا ... عليك فما شأني وشأن ثنائيا

فإذا كان القرآن الكريم يغرّد بذكر عليّ عليه السلام ليلَ نهارَ، فما شأن مدحة مادح من أهل الأرض؟ إنّ هذا السيّد العظيم قد احتلّ مساحة واسعة من مدح القرآن الكريم، فلا يمكن أن يمدحه أحد آخر بمدح فوق مدحه، ولا يكون مدحه حينئذٍ شيئاً حيال مدح القرآن الكريم. ومما يروى في هذا المجال أن معاوية كتب كتاباً لعمرو بن العاص في واقعة صفّين يستدعيه، وقال له فيه: أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك... وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أُذاكرك أُموراً لا تعدم صلاح مغبّتها.

فلمّا جاءه قال له: ما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من

الغرر والخطر؟ قال: حكمك. فقال: مصر طعمة. فتلكأ عليه معاوية وقال له: يا أبا عبد الله، إني أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. فقال عمرو: دعني عنك.

ثم لمّا أخذ معاوية منه مصر وأعطاها لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، كتب إليه قصيدته الجلجليّة المشهورة:

معاويةُ الفضلَ لا تنسَ لي ... وعن موطن الحقّ لا تعدلِ

نسيتَ محاورةَ الأشعري ... ونحنُ على دومةِ الجندلِ

ولولاي كنت كمثل النساء ... تخاف الخروج من المنزلِ

تبعناك من جهلنا يابن هند ... على البطلِ الأعظمِ الأفضلِ

وحيث تركناك أعلى النفوس ... نزلنا إلى أسفلِ الأرجلِ

وإن كان بينكما نسبةٌ ... فأين الحُسامُ من المنجلِ

وأين الثريا وأين الثرىٰ ... وأين معاوية من علي

إلى أن يقول:

وأعطيت مصر لعبد العزيز ... وأعطيتني زِنة الخردلِ[1]

وموضع الشاهد هنا أن ما أُوتي هذا الرجل العظيم من مناقب ومفاخر وفضائل مما طوّقه به القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة، ومما يصدح به واقعه المشرّف

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٦١ - ٦٦. قال ابن أبي الحديد: «قال شيخنا أبو القاسم البلخيرحمه الله: قول عمرو له: «دعني عنك»، كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دع هذا الكلام لا أصل له؛ فإن اعتقاد الآخرة أنها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات. وقالرحمه الله: وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردّد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار».

على ألسنة أعدائه يلوي الأعناق إليه وإن تغافل عنه المتغافلون، وسيبقى ألقاً ونوراً ومشكاة تضيء وجه الدنيا وصفحة العالم؛ سواء رمقته العيون أم لم ترمقه.

المبحث السادس: زهده عليه السلام في الدنيا

لقد كان كل رصيده من الدنيا التي كانت تتكدّس بين يديه حين وفاته عليه السلام سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ لتعينهم على أُمور الطحن وأعمال البيت، فعاجلته الشهادة [(١)].

فلم تصرعه البيضاء والصفراء، وكان ينظر إليها نظرةَ من يعافها ويزدريها، وكل ما كان يشغله فم جائع يحسّه قريباً منه وإن كان يسير على البعد منه، فهو يحسّه يخاطبه بقوله: إنك مسؤول عن جوعي. لقد سمعناه يصغي لأنّات المظلومين في شرق الأرض وغربها، ويقول: «**اللهم اشهد على علي بن أبي طالب فقد أدّى إلى عبادك حقوقهم**». وكان يتمثّل دائماً بقوله:

هذا جناي وخياره فيه ... إذ كل جانٍ يده إلى فيه [(٢)]

فكان عليه السلام يذود عنه الذهب والفضة، ويتحاشاهما:

ما سرّه أن يرى الدنيا له ذهباً ... وفي البلاد قلوب شفّها السغبُ [(٣)]

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر عليه السلام بردّه إلى بيت المال بعد وفاته كما في الفتوح ٤: ١٤٦.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٥٧ / ٤٤٠، الفائق في غريب الحديث ٣: ١٧٥.

(٣) البيت للشيخ عبد المهدي مطر. من مواليد النجف الأشرف سنة (١٩٠٠)م، وكان عضواً عاملاً في جمعية منتدى النشر في النجف منذ إنشائها. تولّى تدريس النحو في كلّيّة الفقه. أعيان الشيعة ١: ٥٥٨، مستدركات أعيان الشيعة ١: ١١٢ – ١١٣.

وكان عليه السلام يقول: **«يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم»**[(١)] وكان عليه السلام يأكل العجوة والخل ويلبس لباس المساكين، فكان رصيده من الدنيا أن سجدت هي على أبوابه وأعتابه:

إن بيتاً أضلاعُه من جريد النـ ـخل والسقفُ والفراشُ حصيرُ

سجد النجم فوق رملته السمـ ـراءِ واستشرفت مداه العصورُ

المبحث السابع: جزاؤه عليه السلام في الدنيا

فحسبك أبا تراب أنك أخذت قلوباً من الناس فسكنتها، وحللت بمشاعرهم،وما يقدم الذهب والفضة وما يؤخران؛ سواء كانا لك أم لغيرك؟

لقد كان رصيده من العواطف لا حدود له، فقد امتلك قلوب المؤمنين كما ذكرنا، وهذا ما يشهد له قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»** [(٢)]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم له كذلك: **«إن الله عزّ وجلّ رسّخ حبي في قلوب المؤمنين وكذلك رسّخ حبّك يا علي في قلوب المؤمنين، ورسّخ بغضي وبغضك في قلوب المنافقين؛ فلا يحبّك إلّا مؤمن تقي، ولا يبغضك إلّا منافق كافر»** [(٣)].

فيامن سكنت إليك قلوب المؤمنين، إنّ القلوب لتتقرّح عليك أسىً وهي تحسّ بأنك في مثل هذه الليلة قد اشتدّت بك العلّة، وسرى السم في بدنك، وعلت الصفرة وجهك الشريف، وهدأ الصوت الهادر، وخلا المحراب من فارسه المصلّي ليله ونهاره، وإن العيون لتدمع لعينيك وقد غارتا، تلكما العينان اللتان كانتا تبكيان

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٤١.

(٢) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨.

(٣) الخصال: ٥٧٧.

من خشية اللّه تعالى وتقرّحتا وسهرتا في سبيله حتى ذبلتا. يقول سويد بن غفلة: دخلت ومعي نفر من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ومنهم الأصبغ إلىٰ داره بعد إصابته، فسمعنا البكاء والنحيب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحيبنا، فخرج الإمام الحسن عليه السلام إلينا وقال: **«إن أمير المؤمنين يقول لكم: انصرفوا وارجعوا»**.

يقول الأصبغ: فرجع الناس إلّا أنا لم تطاوعني قدماي، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: **«ألم أقل لكم: ارجعوا؟»**. فقلت: سيدي، واللّه لا تطاوعني قدماي. قال: **«ادخل»**. فدخلت، ولمّا وقع بصري علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء، واللّه ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت عند ذلك فالتفت إليّ أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: **«يا أصبغ لا تبكِ، إنها واللّه الجنّة»**. قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. ثم دخل عمرو بن الحمق الخزاعي فقال له: إن هذه الضربة مخدشة، وليست أعظم من ضربة عمرو بن ودّ العامري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«إني مفارقكم وراحل إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم»**. عند ذلك سمعت النساء، وعلت أصواتهن بالبكاء واشتدّ ضجيجهن[1]:

الليله مسه المحراب خالي   يعماد خيمتنا يغالي

ما چنت اظن لنّ الليالي   بيك اتْغَدر وتخيّب آمالي

وذهبت إحدى بناته إلىٰ محراب مسجد الكوفة الذي خلا من أمير المؤمنين عليه السلام، فجلست تمطره بدموع عينيها:

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

يا محراب ابوي اجيت اناجيك　　اصبّن ادموع العين وارويك

من طاح ابويه وانطبر بيك　　صدگ شيبته من ادماه تسگيك

* * *

هذي المحاريبُ أينَ القائمون بها　　والليلُ مُرخٍ من الظلماء أستارا

﴿١٥٢﴾

الإمام السجاد عليه السلام سيرة وقدوة

مولاي زين العابدين تحيّة	للخاشعين بشدّة الظلماءِ
والباسطين أكفّهم إن أصبحوا	بالفضل والآلاء والنعماءِ
والصابرين على الخطوب بكربلا	ما بين غمر مدامع ودماءِ
عاشت بقلبك كربلاء بكلّ ما	فيها فعشت بلوعة وبكاءِ
حتى مضيت وأنت جرح نازف	وأضالع تطوى على لأواءِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أثر البيئة على الإنسان

اعتاد الباحثون والكتّاب وأرباب الأقلام أن يحدّدوا إطاراً زمنياً للشخصية التي يبحثون حولها أو يكتبون فيها ويترجمونها، وهذا الإطار عبارة من بدء الولادة ونهاية الحياة وما بينهما. والحقيقة أنّ توجيه العناية وتركيزها على تاريخي الولادة والوفاة ليس أمراً مقصوداً بالذات، بل هو مقصود بالعرض؛ من حيث إنّهما تحديد لفترة حياة المترجم وبيان حيثياتها وجوانبها كافة؛ لأنّها تنعكس كلياً أو جزئياً بما فيها من أحداث على شخصية الإنسان ونفسيته.

ونحن نعرف أنّ بداية حياة الإمام السجاد عليه السلام ـ ونحن نعيش هذه الليلة في رحابه، نسأل اللّه جلّ وعلا أن نكون دائماً في رحاب أهل بيت العصمة عليهم السلام ـ

تبتدئ سنة ثمانٍ وثلاثين هجرية، في فترة خلافة جده أمير المؤمنين عليه السلام، وتستمرّ حتىٰ سنة خمس وتسعين. وكانت هذه الفترة مشحونة ومكتظّة بكل تفاصيلها؛ فقد كانت فترة حرجة؛ لأنّها شكّلت غمرة حروب الإمام علي عليه السلام ضد الباطل.

المبحث الثاني: لماذا تراجعت الفتوحات زمن أمير المؤمنين عليه السلام؟

إنّ الحروب الداخلية التي خاضها أميرالمؤمنين دفاعاً عن الحقّ والدين جعلت الفتوحات الخارجية تتراجع بشكل ملحوظ. وهنا يتساءل بعض الكتاب عن سبب هذا التراجع مع ما هو عليه أميرالمؤمنين من بسالة وشجاعة وبطولة، وهي اُمور معروفة عنه مشتَهَر ذكرها. إن هناك عدة أسباب تتمحور حول السبب الذي ذكرناه آنفاً، وهو اضطراره عليه السلام لخوض هذه الحروب الداخلية، ومن هذه الاسباب:

تعميق الإيمان والإسلام عند المسلمين

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يهدف من وراء خوض هذه الحروب الدفاعية الداخلية التي ألهته نوعاً ما وشغلته عن الحروب الخارجية، إلى تعميق الإسلام في نفوس المسلمين فحينما تسلّم عليه السلام كرسي الخلافة كان هناك كمّ هائل من المسلمين، لكنهم كانوا بعيدين عن روح الإسلام وتعاليمه وأحكامه. وبعبارة اُخرىٰ كان هناك تضخّم في الجانب الكمي وتضاؤل في الجانب الكيفي، فهل كان عليه السلام ـ وهو الحريص على الإسلام والضنين به أن يضيع ـ يطمئن إلى هذه الطبقة المتّصفة بما مرّ على أنّها تحمل الإسلام حملاً صحيحاً؟ إنّ هذا هو الذي جعله (سلام اللّه عليه) يعيد النظر في مسألة بناء البيت الداخلي للإسلام والمسلم، وأن يحرص فيه على ترتيبة من الداخل، وتربية أفراده تربية صحيحة وسليمة.

الشواهد التاريخية تدعّم فكر الإمام عليه السلام

وأكبر دليل على هذا شواهدنا التاريخية التي تثبت أنّ المسلمين فتحوا بلاداً طويلة عريضة وأدخلوا أهلها وأراضيها إلى سلطان دولة المسلمين وحكم الإسلام، وضمّوها إلى أراضيهم وأملاكهم، لكن أين كل ذلك بعد ذلك؟ وأين الرقعة الإسلامية التي بلغت أوروبّا والصين؟ لقد انحسرت وتراجعت وعادت إلى ما كانت عليه. وهذا هو الواقع، لأنّ المنظور في المسألة كان الكمية وليس الكيفية، بخلاف فكر أميرالمؤمنين عليه السلام الصائب ونظره الثاقب، فقد رأىٰ بما يملك من خبرة وفكر وتسديد أن الأولىٰ والأصحّ هو بناء الجبهة الداخلية وتمتينها أولاً،ثم بعد ذلك يُنتقل إلى توسيع الرقعة الجغرافية للمسلمين وبلادهم، والتي لم تتوقف تماماً في عهده.

والحصيلة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يضع لامة حربه إبّان حكمه أبداً؛ بل إنّه عاشها بكل إفرازاتها ومتاعبها، يخرج من حرب ويدخل في أُخرىٰ داعياً إلى الحق، ومدافعاً عنه.

وفي هذه الفترة كان الإمام السجّاد عليه السلام في حجر أبيه الحسين عليه السلام ،ثم جاء دور الإمام الحسن عليه السلام ولم يكن طويلاً، فقد امتدّ ستة أشهر، كان الإمام زين‌العابدين عليه السلام يعيش فيها غمرة الصراع حيث ذيول الصلح مع معاوية وما رافقه من ملابسات ونقض لبنوده ونكث لما جاء فيه. وهكذا ألقت بظلالها القاتمة على حياة الإمام السجاد، فمعاوية لم يفِ بشرط واحد من شروط الصلح، ولم تتوقّف ملاحقة السلطة لأشياع أميرالمؤمنين عليه السلام ، وكانت ملاحقة دنيئة غير شريفة وعلى شتّى المستويات والأصعدة؛ فكانت ملاحقة بالشدة والتخويف، وكانت ملاحقة بالرغيف، وملاحقة بنهب الأرض وسلبها من أصحابها وتضييق موارد العيش

عليهم، بل إنّها وصلت إلى حدّ أصبحت فيه ملاحقة لهم على دمائهم ووجودهم فقد طوردوا مطاردة عنيفة[١].

المبحث الثالث: نشاطات الإمام عليه السلام قبل واقعة الطف

واستمرّ الحال هذا إلى أن لحق الإمام الحسن عليه السلام بالرفيق الأعلى، وكانت الأحداث بين رحيله عليه السلام وواقعة الطف متتالية حافلة بالكثير من الممارسات والأعمال غير المشروعة على الرغم من أنّها كانت عشر سنين فقط. لقد كانت فترة مشحونة، غير أني أودّ أن أُشير إلى نقطة هامّة هي أن كل من كتب وألّف حول الإمام السّجاد عليه السلام لم يسلّط الأضواء كافية على الفترة التي عاشها قبل واقعة الطف، والتي تبلغ اثنين وعشرين عاماً. وهنا أُمور عدّة حول نشاطاته عليه السلام، أرغب في أن أُشير إليها في هذ المجال؛ حيث إنّه عليه السلام بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره أُنيطت به مهامّ عدّة في أداء رسالته، وهذه المهام تتوزّع بين عدّة أعمال:

الأوّل: النشاط العلمي

فبعد أن ترعرع الإمام عليه السلام عقد له مجلساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان يجلس هناك للفتوىٰ. ويلاحظ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على فترة ما قبل الطف، بل إن هذا النشاط استمرّ مع الإمام عليه السلام حتى انتقاله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر. فالذي نريد إثباته هنا أنّ بدايته كانت في تلك السنّ المبكّرة، وهذا الدور الذي

---

(١) كقتله حجر بن عدي رضي الله عنه وأصحابه. انظر: شجرة طوبى ١: ٨٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨، الكامل في التاريخ ٣: ٤٨٧، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦١، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام): ١٨٤، ينابيع المودّة ٢: ٢٧.

وقال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

أُنيط به عليه السلام لم يتوقف عند هذه الفترة، بل استمرّ معه حتى بعد أن ازدحمت الأحداث عليه سيّما إبّان فترة إمامته، فلم ينقطع عن مجلسه في مسجد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا عن نقاشاته العلمية ومحاجّاته وإفتاءاته.

نماذج من محاجّاته عليه السلام

وسأنقل هنا بعض احتجاجاته على من اعترض عليه في أمور كثيرة، ومنها:

الأوّل: حول قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إخواننا بغوا علينا»

دخل رجل على زين العابدين عليه السلام فقال: هل تستطيع أن تخبرني كيف قتل أبوك المؤمنين الذين هم إخوانه في الله؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه وقال: **«ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟»**. قال: لما سألوه عن أهل الجمل: هل نقول عنهم إنهم كفرة؟ فقال: **«معاذ الله إنهم قوم يصلّون»**. فقيل: فماذا نقول؟ قال: **«إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم»**. فهو نفسه يعترف بأنهم إخوانه، فكيف قاتلهم؟

وهنا يجد الإمام عليه السلام نفسه أمام واقع منحرف يجب تصحيحه، وأمام مغرّر به ينبغي أن يصحّح له فكره هذا؛ لأن البعض يتعامل مع الأُمور بشكل حرفي، فيأخذ جانباً واحداً من جوانب المسألة فقط دون أن يستوعبها كاملة، فقال عليه السلام له: **«ويلك أما تقرأ القرآن؟»**. قال: بلى. قال: **«فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟»**. أي أنه عليه السلام يريد أن يقول له: إن أهل مدين كفرة وشعيباً نبيٌّ، وكذلك ثمود، فكيف عبّر عنهم بأنهم إخوة مع ما هم عليه من ضلال؟ فقال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال عليه السلام: **«فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم»**.

وأُلفت نظرك إلى أن القرآن الكريم يعبّر دائماً عن الأنبياء ﵈ بأنـهم إخـوان قومهم. فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرجّ اللّه عنك [١].

الثاني: حول زواج النبي ﷺ من زينب ابنة جحش

وكمثال آخر على نشاطاته العلميّة سأله أحد المسلمين قائلاً: لماذا أقدم جدّك رسول اللّه ﷺ على الزواج من زينب بنت جحش؟ هل كان يعشقها، وكان يخفي ذلك في نفسه؟ فأجابه الإمام ﵇: **«إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلّقها. فلمّا جاء زيد وقال له: أُريد أن أُطلّق زينب. قال له ﷺ: أمسك عليك زوجك. فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾: حاجة بحيث ملّها ولم يبقَ له فيها حاجة وطلّقها، وانقضت عدّتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾»** [٢].

فهو ﵇ يقول له: إن هذه ابنة عمّته وهو يعرفها، ولو أراد أن يتزوّجها لفعل، ولكن الرسول أراد أن يكسر بها عرفاً جاهليّاً وهو مسألة التبنّي، إذ كان العرب إذا تبنّىٰ أحدهم أحداً فإنه يورّثه، وهذا المتبنّىٰ لو تزوّج فإن متبنّيه لا يتزوّج من زوجته فيما لو توفّي.

إنّ زينب ابنة عمة رسول اللّه ﷺ، وكانت تعيش معه في البيت، ولو أنّ هناك أمراً خلاف ما أراده القرآن كان قد حصل لما زوّجها رسول اللّه من متبنّاه زيد. وهذا المعنىٰ هو الذي حاول المستشرقون أن يصوروا عبره قصة غرام بين رسول اللّه ﷺ وزينب ابنة جحش، وهؤلاء طبعاً لهم هدف واضح وسيّئ هو الطعن

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣. (٢) التفسير الصافي ٤: ١٩١.

بالرسالة والنبوّة وبشخص النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه، وإخضاعه إلى مستوى الناس العاديّين. في حين أنّ حقيقة الأمر غير ذلك، فالعرب كانوا لا يرون الزواج من زوجة الربيب أو المتبنّىٰ ويأنفون منه؛ فكانوا إذا أعتق أحدهم عبداً فإن الولاء عندهم يبقىٰ للمعتِق؛ ولذا فهم يأنفون من زواج المعتِق من مطلقة المعتَق أو أرملته، ويعدّونه عاراً.

خطأ نظرية عدم الزواج من زوجة الربيب

وهذا العرف الجاهلي كان سائداً وهو تصوّر مخطوء من وجهين:

الأوّل: أن من الممكن أن تبقىٰ هذه المرأة معطّلة، وربما انحرفت سيّما إن كانت لا تزال شابة.

الثاني: أنه يشمّ منه رائحة التمييز. فالمعتِق يظل على نظرته إلى هذا الربيب على أنه رقّ ليس بمستواه، وأن زوجته مثله، أو أن الزواج من زوجته ولو كانت حرّة يهبط به عن مستواه إلى مستوى الربيب، وهذا ما لا ينبغي أن يكون من حرّ على رأيهم ووجهة نظرهم.

إنّ هذا المولىٰ لم يخلقه اللّه تعالى كذلك، بل إنّه أصبح كذلك لظرف طارئ مرّ به، وقد انتهىٰ هذا الظرف وعاد إلى حريته، فما معنى هذا اللون من التميّز، وهذا التصرّف؟ إن المفروض أننا مجتمع القرآن وأننا نتبع أخلاق القرآن وتعاليمه،وهو يقول: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(١) فهذا هو الشعار الذي رفعه القرآن، والذي يجب أن يكون شعار المجتمع القرآني.

---

(١) الحجرات: ١٣.

فرسول الله ﷺ أراد أن يكسر هذا العرف الجاهلي، وإلّا فإنّه ﷺ كان بإمكانه ومقدوره أن يتزوّج منها قبل أن يزوّجها من زيد. ثم إنّ المطلّقة ليست دائماً مخدوشة، فقد تطلّق المرأة لأنّها لم تنسجم مع زوجها في حياتها الزوجية، وليس بالضرورة أن تكون سيئة أو مخدوشة، ومجرّد عدم التناغم والانسجام في بيت الزوجية لا يخرجها عن كونها امرأة ذات أدب أو عفّة، وهذا ما يجعل الزواج منها ثانية أمراً ممكناً لا عيب فيه. بل ربما يكون الزوج نفسه سيّئ الأخلاق والسيرة، أو أنه لا ينفق عليها؛ مما يلجئ الزوجة إلى طلب الطلاق منه.

ورسول الله ﷺ كان بوسعه أن يتزوّج من أي فتاة من أشراف العرب يشاء، ويخطب إلى أي بيت من بيوتاتهم، لكن جلّ نسائه ﷺ كنّ إما أرامل أو مطلّقات، ولذا فهو ﷺ لجأ إلى مثل هذا اللون من الزواج لأنّه ﷺ يريد أن يضرب هذه القاعدة الجاهلية، ويكسر هذا العرف الجاهلي الذي كان من ضمن موروثات جاهلية تنخر في جسد المجتمع، وأن يقضي عليها. إنّه ﷺ إنما جاء ليرفع مستوى الأخلاق عند الناس، وليس من الخلق أن تترك المرأة تتعذب لمجرد وجود مثل هذا الوهم الجاهلي الذي يعشعش في أذهان الناس، وهذا الوهم هو أنّها مطلقة، مع أنها ربما طلقت لسبب معقول ووجيه كما ذكرنا. ومن كانت قد طلقت لمثل هذا السبب هل من الخلق الإسلامي أن تبقىٰ رهينة البيت وسجينة ضمن نطاق العادات والتقاليد الجاهلية، والتمثّلات الجمعيّة؟

فالإمام السجاد عليه السلام أجابهم بأن هدف الرسول ﷺ هو كسر هذا العرف المقيت الذي ليس له أي موجب أبداً؛ ولذا فإنه أقدم على الزواج من زينب ابنة جحش.

الثالث: حول مسألة الجمع بين الصلاتين

وهي من المسائل المعاصرة أيضاً؛ إذ أنّ زمانها يمتد مع امتداد وجودها

ووجوبها. دخل عليه رجل يوماً فسأله: لماذا تأمر الصبيان بأن يجمعوا بين صلاتي: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء؟ فقال عليه السلام: **«ما داموا على وضوء قبل أن يشتغلوا»**. ويقول عليه السلام: **«هو خير من أن يناموا عنها»**[١].

فهذه رخصة، واللّه تعالى يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه، والرسول صلى الله عليه وآله كان يجمع بين الصلاتين من غير عذر وفي غير السفر والمطر. ومن أحب أن يرى ذلك فليرجع إلى (المنتخب) لابن تيمية، و(المبسوط)[٢] للسرخسي وكتب أُخرى[٣] في هذا المجال[٤] مؤلّفة خصّيصاً لهذا الغرض (الجمع بين الصلاتين). فالإمام عليه السلام حينما أصّل الجمع؛ فلأنّه عليه السلام كان يرىٰ أن يخفّف عن المسلمين ويهوّن الأمر عليهم[٥] ويقربهم إلى الطاعة أكثر، فالإنسان قد يصيبه الفتور أيام المطر أو الحرّ أو غير ذلك عن التوجّه إلى المسجد خمس مرّات في اليوم. إضافة إلى ذلك أن هذا الجمع كما قلنا ليس ببدعة وإنّما هو رخصة من الله الذي أباح لنا ذلك. وقد صرّح القرآن الكريم بذلك حينما قال: **﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِن قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾**[٦].

فالقرآن الكريم في هذه الآية ينصّ على ثلاثة أوقات، وكذلك السنة النبويّة المطهّرة، وقد جمع النبي صلى الله عليه وآله كذلك، وهذه سنّة عملية. ومع كل هذا نجد الآن من

---

(١) الكافي ٣: ٤٠٩ / ٢، قرب الأسناد: ٢٣ / ٧٧، المصنّف (ابن أبي شيبة) ١: ٣٠٣ / ١٤، أحكام القرآن ٣: ٤٣٠.

(٢) المبسوط ١: ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) المغني ٢: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) قد مرّ كل ذلك في ج٥ ص ١٩٩ / المبحث الثالث من كتابنا هذا.

(٥) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «جئتكم بالشريعة السهلة السمحاء». الانتصار ٩: ٤٠٧، ذخيرة المعاد ١: ٩٧ (حجري).

(٦) الإسراء: ٧٨.

ينبز بقوله: لماذا يجمع هؤلاء؟ وأحياناً يتعدّىٰ الأمرُ النبز إلى الألفاظ الجارحة. وهذا التصرّف لا يعدّ مزاجاً فقهياً أو نمطاً علميّاً، بل هو نمط بعيد عنهما ومزاج مجافٍ لهما تماماً؛ لأنّه يحمل روح التحامل والمكابرة أمام الدليل. يقول السرخسي في (المبسوط): إنّ أحمد بن حنبل نفسه كان يجمع، وكذلك حال جماعة من الفقهاء على مرّ العصور، وغاية ما في الأمر أن التفريق أفضل. ونحن ليس عندنا جمع حقيقي وإنما هو جمع صوري، بمعنى أنّ هناك فترة فاصلة بين الصلاتين تتخلّلهما، تفرّق بين فرض وآخر، وهذه الفترة يقع فيها الدعاء والتسبيح والذكر، ثم بعد ذلك يقوم المصلّي إلى فرضه الثاني.

فكان الإمام ﵇ بجلوسه في مسجد جدّه الرسول الأكرم ﷺ يتصدّى لغرس العلم في نفوس الناس.

الثاني: النشاط الأخلاقي

لقد دأب الإمام ﵇ أن يعلّمنا كيف يكون الانتصار على النفس، فمثلاً أُسامة بن زيد كان ممّن تخلّف عن بيعة أمير المؤمنين ﵇، وسرّ تخلّفه عنه ﵇ أنه حدثت معه حادثة عنّفه رسول الله ﷺ على أثرها، فقال: سوف لن أشهر سيفي على مسلم. وهذه الحادثة هي أن المسلمين وجدوا يوماً وهم في سرية ومعهم أُسامة بن زيد رجلاً على رأس جبل ومعه غنماته، فلما رآهم نزل وقال: **«أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»**.

وفرح بالمسلمين، فقال له أُسامة بن زيد: إنك لم تسلم، إنما رأيتنا فخفت منا، واستعذت بهذه الكلمة. ثم جرد سيفه وقتله. فلما رجعوا وأخبروا النبي ﷺ حزن حزناً شديداً، فقال أُسامة: إنه استعاذ، وأراد أن يتستّر بالإسلام، ولم يسلم

صادقاً. فقال النبي صلى الله عليه وآله: **«هلا شققت عن قلبه»**[١].

على خلفية شتم الصحابة

فماذا يراد من الإنسان إذا أسلم؟ إنّه ليس أكثر من إشهاره نطقه بالشهادتين، وعدم إنكاره ضرورة من ضرورات الدين. وهنا لابدّ من أن أشير إلى أنّ البعض يعتبر شتم الصحابة كفراً وفاعله كافراً؛ لأن عدم المسّ بصحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يعدّ ضرورة من ضرورات الدين، وشتم الصحابي إنكار لهذه الضرورة.

من مظاهر الخلاف بين الصحابة

ونقول: لا شكّ في أن إنكار ضرورة من ضرورات الدين يعدّ كفراً، لكن من قال: إنّ من أخطأ وشتم أحد الصحابة فقد أنكر إحدى هذه الضرورات؟ أليس الصحابة أنفسهم كانوا يشتم بعضهم بعضاً؟ ألم تقل أُم المؤمنين عائشة: اقتلوا نعثلاً؛ فقد كفر[٢]. تعني عثمان بن عفّان؟ ألم تقع مشادّات كثيرة بين الصحابة[٣]؟ فما هو

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧، ومثله في مسند أحمد ٤: ١٣٩، غير أنه لم يسمّ أُسامة.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

(٣) قد مرّ كل ذلك، لكن لإثبات المقام نذكر أن عمر بن الخطّاب رفع الدرة مرّة على أبي هريرة وضربه بها على رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.
وحينما وقع نزاع بين الخليفة الثالث وأُم المؤمنين عائشة وحفصة أيّام بوادر الثورة؛ حيث دخلتا عليه تطالبانه بميراث النبي صلى الله عليه وآله. ومنعهما ذلك بقوله: والنبي صلى الله عليه وآله يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي صلى الله عليه وآله وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته. الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

....

☚ كما أن علي بن أبي طالب عليه السلام شُتم (٨٠) سنة على المنابر، بل حتى في الصلاة. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

ونقل عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت أنه قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.

وفوق كل هذا أن رسولنا الأكرم ﷺ يخبرنا عن نكوص بعض الصحابة، وذلك في روايات لعلّ أبرزها وضوحاً في هذا المقام هو قوله ﷺ مخبراً أن جماعة من أصحابه يحشرون يوم القيامة يختلجون دونه ـ يعني تأخذهم الملائكة ـ فيقول: «أصحابي». فيقال له ﷺ: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك». انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٤ / ٣٢١٥.

وحينما وقعت غزوة تبوك بين المسلمين والروم، ندب النبي ﷺ المسلمين إلىٰ قتالهم فتثاقلوا؛ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ التوبة: ٣٨. انظر: مجمع البيان ٥: ٦٥ جامع البيان، المجلّد: ٦ ج ١٠: ١٧٣ / ١٢٩٩١.

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ﴾ الذي يعني مجموعة من المعاصرين للنبي ﷺ. فهؤلاء صحابة لكن الله تعالى ذمّهم.

كما أن عثمان أمر بضرب عمار، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه. الإمامة والسياسة ١: ٣٥.

ويروي عبد الله بن عباس رواية يبيّن لنا كيف أن الخليفة الثاني كان يعيب على بعض الصحابة أخلاقهم ويذكرهم بسوء فيسترسل حتى يقول: فقلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من طلحة بن عبيد الله؟ قال: الأكتع؟ ما كان الله ليعطيها إياه، ما زلت أعرف فيه بأواً مذ أُصيبت يده، مع هَناة كانت له على عهد رسول الله ﷺ. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من الزبير؟ قال: وعقة لقس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عثمان؟ قال: أوّه، ووضع يده على رأسه وقال: والله لئن وليها ليحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس. تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩، وليس فيها: مع هَناة كانت له على عهد رسول الله ﷺ.

الدليل على كفر من يشتم أحدهم؟ إنّ الإنسان تارة يشتم معاندةً للدليل ووقوفاً بوجه القرآن، وهذا كفر صريح، لكن من يخطئ فهل يجوز تكفيره؟.

يزيد بن معاوية ودعوى عدم جواز لعنه

وهنا أودّ أن اطرح سؤالاً، وهو: إنّ يزيد بن معاوية قتل سبعمئة صحابي من حملة القرآن في واقعة الحرّة، وعشرات الآلاف من الناس غيرهم فيها، وأباح المدينة ثلاثة أيام حتىٰ أُبيحت أعراض المسلمين [1]، وأحرق الكعبة بالمنجنيقات [2]، وسلّط البلاء على المسلمين في كل مكان، فهل يصحّ أن يقال

☚ والهَناة هي الذنب، والذنب الذي أشار إليه عمر بن الخطاب هو أنه لمّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نساءه ألّا يكلّمن الناس إلّا من وراء حجاب، فقال طلحة هذا: أيحجبنا محمد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده. الدرّ المنثور ٥: ٢١٤، فتح القدير ٤: ٢٩٩.
وتناجى عمر بن الخطاب وعثمان بن حنيف في المسجد، فأغضب عثمان عمر، فقبض عمر من حصى المسجد قبضة فحصب بها وجه عثمان فشجه بالحصى في وجهه وترك بها آثاراً من شجاج. فلما رأى عمر كثرة تسرّب الدم على لحيته، قال: أمسك عنك الدم. تاريخ المدينة ٢: ٦٩١.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦. وأليس هو المتمثّل:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزلْ

انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩،

عنه: إنّه مسلم؟ يقول الغزالي: أنا لا أستطيع أن أشتم يزيد؛ لأنّه مسلم[1].

يالله! يزيد ما زال يعدّ مسلماً وإلى الآن، ومن يشتمه كافر، وأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ شُتم ثمانين سنة على المنابر، وسبّ ﷺ في صلاتهم. ومع ذلك يعدّ هو ومن كان على شاكلته مسلمين بنظر البعض[2]! وهذا البعض الذي يرى إسلام من سبّ خليفة رسول الله ﷺ وابن عمه على المنابر، يرىٰ كفر من أخطأ نتيجة ردّ فعل تحدث عنده، وشتم من يشتم أمير المؤمنين ﷺ، أليس هذا تهافتاً؟ فهل يراد للمجتمع الإسلامي أن يتحوّل إلى أنعام سائمة لا تعقل ولا تعي ما يدور حولها؟

على أية حال فبعد أن قال رسول الله ﷺ لأُسامة: **«هلّا شققت عن قلبه»**، حزن وقال: سوف لن أُشهر سيفي بوجه مسلم. ولمّا تولى أميرالمؤمنين ﷺ الأمر، وقاتل القاسطين والمارقين بأمر رسول الله ﷺ[3] رفض مبايعته والقتال معه، وكان يقول له: أعطنا سيفاً يفرق بين الحقّ والباطل حتى نبايعك[4]. ويقول له: أنا

☚ الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(١) مع أنه نفسه يكفّر من يسبّ أحد المسلمين، لكنه يعود فيتغاضى عن أن يزيد نفسه كان يعلن السبّ والشتم لأمير المؤمنين ﷺ. انظر: إحياء علوم الدين ١: ١٩٣، حياة الحيوان ٢: ١٧٦.

(٢) كما عن ابن العربي. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. وكابن تيمية الذي يرى أن يزيد لم يقتل الإمام الحسين ﷺ، انظر: اجتماع الجيوش الإسلاميّة ١: ١٠٥، منهاج السنّة ٤: ٥٥٩، مجموع الفتاوى ٣: ٤١٠ ـ ٤١١، ٤: ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٢٧: ٤٧٠، ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٤٩٣.

(٣) فقد قال ﷺ: «أمرني رسول الله ﷺ أن أُقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين». المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلىٰ ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٤) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠.

لا أُبايعك؛ لأنك تقتل المسلمين والكافرين على حدّ سواء[١]. ولما سئل عن السبب قال: أخشىٰ أن أقتل مسلماً. سبحان اللّه! من يخرج مع **«إمام المتقين»**، ومع رجل يقول فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما عن أُم سلمة (رضي الله عنها) وقد رئيت باكية وهي تذكر الإمام علياً عليه السلام ـ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«علي مع الحق والحق مع علي، ولن يتفرّقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة»**[٢].

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم له: **«ويلٌ لمن سل سيفَه عليك، وسللت سيفَك عليه»**[٣].

موقفه عليه السلام من محمّد بن أُسامة بن زيد

على أية حال إن أُسامة بن زيد هذا ترك ولداً له هو محمد، ولم يكن يختلف عن منهج أبيه في شيء، وحينما حضرته الوفاة قال الإمام السجاد عليه السلام لأصحابه: **«قوموا بنا لعيادة محمد»**. فلمّا دخل عليه سمعه يقول: وا غمّاه. قال: **«ما غمّك؟»**. قال: دَيني. قال: **«كم هو؟»**. قال: ستون ألفاً. قال الإمام عليه السلام: **«هي عليّ»**. وكان عليه السلام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[٤].

فانظر إلى هذا اللون من النبل من رجل لرجل عاش ومات على بغضه وبغض

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخصال: ٤٩٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ٤٤٩، الإمامة والسياسة ١: ٧٣، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». الجامع الصغير ٢: ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٣) ورد في الزيارة الشريفة: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلّ سيفه عليك وسللت عليه سيفك يا أمير المؤمنين». المزار (المشهدي): ٢٧٨، المزار (الشهيد الأوّل): ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وفيهما أنها جرت بين الإمام الحسين عليه السلام، وبين أُسامة أبيه.

آبائه.. عاش منحرفاً عن خطّه الذي هو خطّ رسول اللّه ﷺ. فالإمام عليه السلام بهذا اللون من التعامل مع الآخرين يريد أن يعلمنا كيف ننتصر على نفوسنا، وأن يعطينا درساً في تغليب خلق الإسلام على رغبات النفس وشهواتها ومطالبها، وعلى الهوى الذي يسيطر على تلك النفوس. إنّ هذا العطاء أكبر عند اللّه من أن يكون صاحبه خاضعاً لذاك اللون من التأثر بالنفس وأهوائها ضدّ الآخر وإن آذاه.

وهذا الخلق ليس أمراً جديداً ولا طارئاً أو عارضاً عند الإمام السجاد عليه السلام، بل هو خلق ورثه من جديه رسول اللّه ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يمرّ على قتلى معركة الجمل ممّن خرجوا لقتاله، وهي الواقعة التي خلّفت الآلاف من القتلىٰ، وكانت الدماء تسيل والأشلاء متناثرة، إلىٰ أن وصل إلىٰ طلحة ـ وكان قد قتله مروان بسهم ـ فقال: **«من هذا؟»**. قالوا: طلحة هذا. فأقعدوه فقال: **«أبا محمد، اعزز علي»**، أي ليس من السهل أن أراك قتيلاً، فهذا نبل أيمّتنا عليهم السلام. وهو شعور في غاية النبل يعجز أي شعور أن يرقى إلى مستواه نبلاً ومودّة وعطفاً ورقّة:

أَ أَبـا الحُسـينِ وتِلكَ أروعُ كـنيةٍ	وكِـلاكُـما بـالرّائـعات قَـمِينُ
لكَ فـي خَـيال الدّهـرِ أيُّ مَـلامحٍ	تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِمُ النَّسـرينُ
في الصبح أنت المُستَحِمُّ منَ اللّظىٰ	واللّـيل فـي المـحرابِ أنتَ أنـينُ
تكسـو وأنتَ قـطيفةٌ مَـرقوعةٌ	وتَـموتُ مـن جـوعٍ وأنت بَـطينُ
ما عـدت ألحـو عـاشقيك بـما أتَـوا	وصـفاتُك الغـرّاءُ حـورٌ عـينُ
آلاؤك البـيضاءُ طـوّقَتِ الدُّنـا	فـلها عـلى ذِمَـمِ الزَّمـانِ ديـونُ
فـبحيثُ تَـحتَشِدُ الورودُ فَـراشَةٌ	وبـحيثُ ليـلى يـوجدُ المـجنونُ[1]

فحقّاً إنّه ذو خلق كريم ولون عجيب من الأدب السامي، وكذلك كان الإمام

---

(١) ديوان المحاضر: ١٩.

السجاد عليه السلام في مواقف الانتصار للحق على النفس.

الصحيفة السجّاديّة محاولة توازن وانتصار على النفس

اعتاد الناس في تلك الأيام وسيّما في الفترة التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام أن يعاملوا الموالِي معاملة مزرية، قد كانوا يعدّونهم في مستوىً أدنىٰ بكثير من المستوى الذي يرونه لأنفسهم. ففي عصر السجاد عليه السلام كثرت الفتوحات وكثر معها احضار الموالي الذين لم يكونوا يراعونهم ويعاملونهم كما أمر اللّه تعالى، أو كما هو الخلق الإسلامي المطلوب في هذا المجال. ومن هنا نشأت الحركات الشعوبية أو بذورها على نحو الدقّة. وكان من مظاهر الفتوحات تلك أن جرت الأموال بأيدي الناس؛ مما حوّلهم إلى حياة الترف واللهو. وقد عالج الإمام عليه السلام هذه الظاهرة بالأدعية، فكانت صحيفته الشريفة محاولة لإيجاد حالة من التوازن بين الترف المادّي في جانب، وفراغ النفس وحاجتها إلى الدعاء وإغناء الروح في جانب آخر.

مواقف كريمة من الموالي وغيرهم

طلبه من غلامه أن يقتصّ منه

لقد كان عليه السلام يعامل الرقيق على أنّهم بشر لهم كامل حقوقهم كما أمر الإسلام والقرآن بذلك، ومن ذلك أنه عليه السلام غضب في يوم من الأيام على غلام له كان قد طلب منه أن يقوم على ضيعة تخصّه، إذ أنه عليه السلام دخلها يوماً فوجد فيها ضَياعاً كثيراً، ورأى أن الزرع قد فسد، فصاح به: **«لم تفعل هذا؟ إنك تأخذ جلّ وارد هذه الضيعة، فلم لا تعتني بها؟»**. فسكت الغلام، فقرعه الإمام بسوط كان بيده، ثم ندم. فلما رجع إلى الدار ألقى ملابسه وأظهر موضع ضرب السوط من الغلام ثم بعث

وراءه. فلما جاء ورأى الإمام بهذه الهيئة اضطرب أكثر وخاف، وظن أن الإمام يريد أن يعاقبه، فقال له الإمام: **«هوّن عليك، وخذ هذا السوط واضربني كما ضربتك»**. فقال: معاذ اللّه. قال: **«بل افعل، إني أُريد هذا»**. قال: معاذ اللّه، إن يدي لا تطاوعني على ذلك. فقال الإمام: **«أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك»**[1].

فهذا اللون من الخلق العالي لم يقتصر أثره على النفس فقط، وإنما يتعدّاه إلى مرحلة الإيحاء للآخرين بأن يعاملوا غلمانهم أو فتيانهم على هذا المثال الذي اختاره هو عليه السلام. فهو عليه السلام يريد أن يقول لهم: إنّ هذا الغلام إنسان كما أنّ مالكه إنسان من غير فرق، وله كرامة وعزّة كما لغيره، فإذا ما ملّك اللّه أحداً إيّاه فيجب أن يشكر اللّه تعالى على هذا التمليك الذي كان من الممكن أن يكون بالعكس، أي أن يجعل السيد خادماً والخادم سيداً.

إعتاقه غلمانه ليلة كل عيد فطر

كان الإمام السجاد عليه السلام يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد جمعهم وقال لهم: ارفعوا أيديكم و**«قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا»**. فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل، ويقول لمن يعطيه: **«استعن بها علىٰ دهرك، أصلح اللّه لك أمرك فيها»**[2].

فانظر إلى انتصاره (سلام اللّه عليه) على النفس، وكيف أنه بلغ القمّة في سلوكه هذا. فالإنسان حقّاً يبلغ قمة الأخلاق حينما يقهر نفسه وليستثمر طاقاتها لوجه

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ١١٦٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٧.

(٢) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

اللّه تعالى، وفي خدمة مخلوقاته.

مواقفه من قتلة أبيه السبط الشهيد عليه السلام

وهذه القمّة في الخلق امتدّت لتشمل حتى قتلة أبيه الحسين السبط عليه السلام، فحين ثار الناس في واقعة الحرّة في المدينة عزم أهل المدينة على اجتثاث الأُمويين منها وقتلهم كلّهم، فقد كانت النفوس مشحونة ضدّهم، وهذا أحد الشعراء يخاطب الأمويين حينما أخذوا البيعة ليزيد:

ولو جاؤوا برملة أو بهندٍ	نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ	نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لوَ ان لنا ضيوفاً	ولكن لا نعود كما عُلينا
إذن لضُربتُمُ حتىٰ تعودوا	بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا	دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم	تصيدون الأرانب غافلينا(١)

وهكذا كانت النفوس مشحونة تلتهب، وكان هذا الشاعر يتكلّم بلسان أغلب المسلمين. على أية حال لقد عزم أهل المدينة على استئصال شأفة الأُمويين في المدينة المنوّرة، فمن الذي آواهم ودفع القتل عنهم؟ ومن الذي فكروا هم في الالتجاء إليه من شدّة خوفهم؟ إنّه زين العابدين عليه السلام الذي جند أتباعه وكل الهاشميّين ـ وكان هو عليه السلام في طليعتهم ـ لحماية عوائل بني أُمية كلها، وكانوا بالمئات. ولم يقتصر الأمر على توفير الحماية لهم، بل تعدّاه إلى إيصال الماء

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار؛ لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

والطعام لهم، وقضاء كل حوائجهم حتى انتهت الثورة[١].

وهذا اللون من الخلق النبيل غريب حقّاً، ولا يمكن أن يوجد في مكان آخر أو عند شخص غيره، لأنّه من بيت تميّز بهذا الأدب السامي والخلق الرفيع.. من بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي والتنزيل.. من بيت حمل شعار القرآن: ﴿**خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ**﴾[٢].

الثالث: النشاط التربوي

لقد كانت جوانب مسجد الرسول الأكرم ﷺ تردّد صدىٰ خطب الإمام السجاد عليه السلام، فلقد كان عليه السلام يخطب كل جمعة ويذكّر الناس بالآخرة والجنة والنار والحساب والعقاب. وكان عليه السلام يقول: «**من جمعة إلى جمعة فترة يحتاج الناس فيها إلى من يذكّرهم بآلاء الله تعالى وبأيّامه، ويدعوهم إلى القرب منه**». وهكذا يبدأ الإمام عليه السلام خطبته. ولا يمكن لأحد أن يتصوّر مقدار عطاء الإمام عليه السلام فهو عطاء يقصر اللسان عن وصفه والفكر عن حصره.

المبحث الرابع: نماذج من أدعيته عليه السلام ومناجياته

ومن أراد أن يعرف مدى ذلك العطاء فليقرأ الصحيفة السجادية التي تعدّ كنزاً من الكنوز الإلهية أتحفنا الله بها على لسان ولي من أوليائه. فهي نسيج متميّز لا يكاد يدافعه نسيج ولا يضاهيه كلام.

الأوّل: دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال

ولنأخذ من هذا مثلاً هو دعاؤه عليه السلام: «**اللهم صلّ على محمد وآله، ونبّهني**

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

لذكرك في أوقات الغفلة، واستعملني بطاعتك في أيّام المهملة، وانهج لي إلى محبّتك سبيلاً سهلة»[1].

وهو دعاء يشتمل على معانٍ سامية لا تكون إلّا من ذي نفس مطمئنة، فقوله عليه السلام: **«نبّهني لذكرك في أوقات الغفلة»**، كأنّه يريد به أن يخاطب بارئه بقوله: أنا إنسان لا أستطيع أن أُسيطر على مشاعري بعيداً عنك، ومن غيرك، فالمرجوّ من رحمتك أن تفيض عليّ عطاء التنبيه إلى ذكرك كما أفضت عليّ عطاء العمر وعطاء الصحة والعافية وغير ذلك من نعمك الكثيرة. فاجعلني أتجه إليك في أوقات الغفلة؛ فهذا العمر مهما امتدّ فإنّه لا قيمة تذكر له. ولذا فإنه عليه السلام يسميه **«أيّام المهلة»**، أي ما يمهل به الإنسان من وقت قبل لحوقه باللّه جلّ وعلا. فهو عليه السلام يطلب من اللّه أن يجعله منشغلاً بطاعته فقط دون أي شيء آخر.

ثم قال عليه السلام: **«وانهج لي إلى محبّتك سبيلاً سهلة»**، أي اجعل لي طريقاً واضحاً إليك غير معقّد؛ كي أصل إليك من غير أن يحول دوني ودونك حائل.

وفعلاً كان عليه السلام إذا دخل محرابه ناغم السماء، فيحسّ به من يراه نوراً يتحوّل إلى روح ذائبة في ذات اللّه وسابحة في ملكوته، ويشعر بوقع تلك الكلمات التي كانت إذا خرجت من فمه الشريف فكأنما هي ينبوع من ينابيع السماء، فيسمعه من بجانبه إذا جن عليه الليل في مناجاته اللّهَ تعالى، مناجاة فيها دروس أخلاقية وتربوية ضخمة.

الثاني: دعاؤه عليه السلام في يوم عرفة والجنبة الفلسفية فيه

وأنا لا أُريد أن أضع المتلقّي في متاهة، لكني سأُعطيه نماذج لبعض النصوص

---

(١) الصحيفة السجّاديّة الكاملة: ١١١.

من ذلك؛ كي نرىٰ عظمة هذا الإمام ونحن نسمعه يقول ـ مع أنه عاش في مجتمع نيام في معاطن الإبل ـ: **«أنت الذي قصرت الأوهام عن ذاتيّتك، وعجزت الأفهام عن كيفيّتك، ولم تدرك الأبصار موضع أينيّتك. أنت الذي لا تُحدّ فتكون محدوداً، ولم تُمثّل فتكون موجوداً، ولم تلد فتكون مولوداً. أنت الذي لا ضدّ معك فيعاندك، ولا عِدل لك فيكاثرك، ولا ندّ لك فيعارضك. أنت الذي ابتدأ واخترع، واستحدث وابتدع، وأحسن صنع ما صنع. سبحانك ما أجلّ شأنك، وأسنى في الأماكن مكانك»**[1].

ويمشي على هذا النهج دون أن يتعثّر في نطقه أو يصيبه عيّ وحصر. إضافة إلى ذلك فإن كل مقطع من مقاطع هذا الدعاء يلخّص ويصوغ نظرية من أعقد النظريات الفلسفية والكلاميّة. فمثلاً قوله: **«أنت الذي لا تُحدّ فتكون محدوداً»**، يبهر العقول ويثير في النفوس شديد الإعجاب؛ إذ الحدّ هو التعريف المنطقي، فحينما نعرّف الإنسان بقولنا: الإنسان حيوان ناطق، فإننا إنما نضع حدّاً للإنسان نميّزه به عن غيره، والإمام ﷺ يناجي ربه ويقول له: إنك أجلّ وأرفع من أن تعرّف، لأننا إن عرّفناك جعلنا لك حدّاً، وإن جعلنا لك حدّاً جعلناك جسماً، وأنت منزّه عن الجسمية ـ تعاليت وتقدّست ـ لأن الجسم لا يمكن أن يكون محيطاً بالسماوات والأرض كما هو شأنه تعالىٰ.

إنّ هذه الأفكار هي في الواقع أكبر من مدارك شابّ عمره خمسة وعشرون عاماً، لكنه ابن بيت هم أهل العلم، ومعدن العطاء والمعرفة. وهكذا تكون الصحيفة السجادية المشرّفة نبعاً صافياً وسلسالاً رقراقاً فيّاضاً بالمعرفة، يغدقه آل

---

(١) الصحيفة السجّاديّة الكاملة: ٢٤٧.

النبي صلى الله عليه وآله على الناس ليعرّفوهم كيف يتصلون بربّهم، فينقذوهم ويخرجوهم من الضلال إلى الهدى.

فكان الإمام عليه السلام فارس ميدان العطاء والتصوّف الصحيح الذي يريده اللّه تعالى.. ميدان الانقطاع إليه تعالى وما يرافقه من عطاء في التضرّع والاستكانة إليه تعالىٰ.. عطاء الإنسان الذي يشعر بحجمه وحقيقته وحقيقة نهايته.

الثالث: دعاؤه عليه السلام في سحر شهر رمضان

ونجده أيضاً وقد ضمّته الأسحار وهو يناجي ربه تعالىٰ: **«وما لي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري، وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت؟ فمالي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي، أبكي لحلول رمسي.. أبكي لظلمة قبري؟ أبكي لضيق لحدي؟ أبكي لسؤال منكر ونكير إياي؟ أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري، أنظر مرّة عن يميني، ومرّة عن شمالي إذ الخلائق في شأن غير شأني؟ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[1]»** [2].

وهي مقاطع تبيّن الموقع الحقيقي لعلي بن الحسين عليه السلام في انتمائه إلى اللّه تعالىٰ.

أقوال معاصريه فيه

هذه بعض من الجوانب التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام في مسجد جدّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وهي جوانب تنبي عن عظمته وقدرته الروحية والعلمية. وهذا ما يشهد

---

(١) عبس: ٣٧ ـ ٤١.

(٢) الصحيفة السجّاديّة الكاملة: ٢٢٦.

له به علماء عصره؛ فالشافعي مثلاً يقول فيه: «كان أفقه أهل المدينة».

ويقول مالك: «إنّما سمي زين العابدين لشدّة عبادته».

ويقول له عمر بن عبد العزيز: «أنت سراج العالم وزينة الدنيا».

ويقول تلميذه الزهري: «ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين﵇، وكان إذا جنّ عليه الليل يأخذ اللحم الميت من مواضع سجوده؛ ولذلك لقب بالسجّاد».

وكان حتى ألدّ أعدائه يعطيه الصفات الغريبة، يقول عبد الملك بن مروان للإمام﵇: «والله ما أُوتي أحد من الورع والعلم والفقه مثل ما أُوتيت إلّا من سلف من آبائك».

المبحث الخامس: دور الإمام﵇ بعد واقعة الطف

وهكذا نجد أنّ للزمن ألسناً تردّد مِدَح هذا الإمام العظيم وتتغنىٰ بالثناء عليه، وهو﵇ أهل لذلك؛ إذ أنه لم يتخلّف عن أداء واجبه أبداً في الميادين التي يريدها الله عزّ وجلّ كافّة؛ سواء كانت ميادين علمية أو عملية. هذا قبل واقعة الطف، أما بعدها فالباحث يجد أن العبء قد اشتدّ والمسؤولية قد كبرت على الإمام السجاد﵇، وازدادت بحكم تسنّمه منصب الإمامة الشرعية، وفي المقابل يجد أن ضغط الأُمويين قد اشتدّ عليه أكثر؛ لأنّهم كانوا يظنون أن الإمام﵇ سوف لن يسكت بعد الواقعة.

سرّ عدم اشتراكه في الحركات التي أعقبت وقعة الطف

كما أن الباحث المنصف سيجد أنه﵇ قد أخذ حجم الزمن وحجم مَن حوله؛ ولذلك لم يشترك بواقعة الحرّة ولا بواقعة بعدها. وهناك أسباب كثيرة منعته من القيام بأي تحرّك أو الاشتراك بتحرّك قام به غيره في عصره، ومن هذه الأسباب:

الأوّل: طبيعة الجوّ آنذاك وعداؤه لأهل البيت عليهم السلام

أننا إذا أمعنّا النظر في الظروف التي عاشها الإمام عليه السلام فسنجد أن الأجواء في عصره كانت مشحونة ومعبّأة ضد أهل البيت عليهم السلام. وأبسط مثال على هذا أنّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وسيما الذين استشهدوا معه تحت رايته قد حرمت السلطات أبناءهم من عطائهم ونصيبهم من بيت المال؛ بغضاً لأمير المؤمنين عليه السلام. فالإمام عليه السلام لم يجد المجال الكامل للتحرّك والذي يمكن أن يوصله إلى الهدف الذي يراد من مثل هذه التحركات.

ولذا فإنّه عليه السلام لجأ إلى الدعاء كمجال للتحرّك الفكري والنفسي وإعداد الأمّة لذلك، وفي الوقت نفسه لجأ إلى مجال العلم والمعرفة. وهي مجالات لا تستلزم سلّ سيف أو قتالاً؛ لأن الإمام عليه السلام كان عارفاً بحجم المسؤولية من جهة وحجم من هم حوله؛ وهذا ما دعاه إلى عدم الاشتراك في هذه الحركات. وإلّا فإنّه عليه السلام من بيت لا يجرؤ أحد أن يصفه بالجبن أو ينعته بالتخاذل وإن كان عليه السلام لم يسلم من هذه التهمة البشعة، حيث إن أحد الكتاب قد وصفه بتلك التهمة بقوله: إنّه لم يثُر ولم يخرج لأنّه متأثر بأخواله، يعني الفرس.

لكن هل إنّ زين العابدين عليه السلام وحده متأثر بأخواله، أم إنّ هذا التأثر يشمل أبناء الخليفتين أبي بكر وعمر؟ إن كون الفرس أخوالاً لأحد لا يعدّ عيباً وليس فيه ضير على ذلك الرجل، والمذاهب الإسلامية بأجمعها مدينة للفرس بالفلاسفة والعظماء والفقهاء والمحدّثين والمناطقة والمتكلّمين والكتّاب عامّة حتى على صعيد اللغة العربية وعلومها وآدابها. فهل السجاد عليه السلام هو الوحيد الذي تأثّر بالفرس؟ إنّ هذا الكلام غير علمي ولا يعتدّ به.

فأهل البيت عليهم السلام أبعد ما يكونون عن الجبن، وبيتهم أشجع البيوت وأشرفها، بل

هم أصل الشجاعة ومنبعها ومثالها، لكن في الوقت نفسه هم مثال التعقّل[1]. فللظروف حكمها أحياناً، وهذا ما دفع الإمام﴿ع﴾ لأن يتّخذ خطوة الدعاء والمناجاة والتعبئة الفكرية والعلمية والدينية سلاحاً بدلاً من السيف.

الثاني: مصيبة الحسين﴿ع﴾

فهو﴿ع﴾ دائم الحزن، ولم يكن بالذي ينسىٰ واقعة الطّف وما جرىٰ فيها من انتهاك حرمات اللّه وسفك دماء وتقتيل أطفال وسبي نساء، فقد كانت وقعة الطف تعيش في مشاعره وهمومه، وكان كما خاطبه الشاعر﴿ره﴾ في صدر المحاضرة:

والصابرين على الخطوب بكربلا	ما بين غمر مدامع ودماءِ
عاشت بقلبك كربلاء بكلّ ما	فيها فعشت بلوعة وبكاءِ
حتى مضيت وأنت جرح نازف	وأضالع تطوى على لأواءِ

فهو يقول له: إن كربلاء عاشت في ذهنك وقلبك ومشاعرك، فقضّيت عمرك الشريف كلّه باللوعة والحزن والأسىٰ والبكاء. وهذا ما حدث فعلاً، فواللّه لم تبارح طيوف الطف ذهن الإمام﴿ع﴾ وقلبه؛ ولذلك حينما دخل عليه أبو حمزة قال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، إن جدّك﴿ص﴾ قتل وأباك﴿ع﴾ قتل، فقال: **«شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكنني أذكر أشياء منها أنهم أدخلونا على يزيد ونحن موثوقون بالحبال، وكان الحبل يمتد من عنقي إلى كتف عمتي وأكتاف سائر الفاطميّات، وكنا كلما قصرنا عن المشي ضربونا. وواللّه ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين»**.

---

(١) يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أولٌ وهي المحلّ الثاني

انظر شرح نهج البلاغة ٢٠: ٤٣.

فالإمامعليه السلام يجيبه بأن كلامه حق، لكن أُموراً أُخرىٰ تعتمل في ذهنه وتتصارع داخله فتجعله لا يهنأ بطعام ولا شراب، ومن ذلك ما كان الجنود يعاملونهم به في رحلة السبي؛ فكانوا كلما قصروا من المشي نتيجة التعب ضربوهم بالسياط، ومنها إدخالهم على يزيد وهم مصفّدون بالأغلال، وكان الحبل يربط بين عنق السجادعليه السلام وكتف الحوراء زينبعليها السلام وأكتاف بنات الرسالة:

عجباً لم تلن قلوب الأعادي لعليل عضّت عليه القيودُ

وله حنّت الفصيل ولكن هيّمته أُميّة لا ثمودُ

وكانت أشدّ فصول حياته حزناً فصل عتابه الفرات حيث مرّ به يوماً، فقال يخاطبه: «**إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟**».

ولم يزل يبكي أباه السبط الشهيد ليلَ نهار إلى أن حضرته الوفاة، فجلس عنده ولده الإمام الباقرعليه السلام يرثيه بلوعة وحزن، وكان قد شخص ببصره إلى السماء وقال: «**سجّوني إلى القبلة**»، فأغمض عينيه وفاضت روحه الطاهرة ولحقت ببارئها في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وضجّت المدينة بأهلها، لكن السبط الشهيد الإمام الحسينعليه السلام حينما لفظ أنفاسه الشريفة الطاهرة لم يكن بجانبه أحد، كانت زينبعليها السلام ليلة الحادي عشر من المحرم قد لفعّتها تلك الليلة بظلمائها، وكان الأطفال حولها يتصارخون وهي تجول ما بينهم:

يبويه عليّه الليل هوّذ وآنه غريبه وما لي احّذ

* * *

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شَجواً قَرَعْنَ سِياطُهم رأسَ اليَتيمِ

﴿ ١٥٣ ﴾

من صفات اللّه تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وهـو الْـغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَـعَّالٌ لِـمَا يُرِيدُ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

ذكرت الآيات الكريمة سلسلة من صفات الجلال والكمال نعت بـها القـرآن الكريم الذات القدسية، وهي تتضمّن مجموعة من المعاني والبحوث أعرض لها تباعاً إن شاء اللّه تعالىٰ.

المبحث الأوّل: العوامل التي تحرّك الإنسان في الحياة

إن هذا المعنى الذي طرحته الآية الأُولى، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ هُـوَ يُـبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعدّ من أخطر المعاني والمضامين ومن أهمّها؛ فقد ثبت أنّ الإنسان يُسيّره في الدنيا عاملان: عامل الإغراء، وعامل الضغط. فأي إنسان تلاحظه تجد أنـه خاضع لهذين العاملين الهامّين والفاعلين.

(١) البروج: ١٣ ـ ١٦.

عامل الإغراء

فمسيرة الإنسان في هذه الحياة مسيرة حافلة بالكثير من المؤثّرات التي تطبع حياته وسلوكه بطابعها إذا ما وقع فريسة لها، ومن هذه المؤثّرات عنصر الإغراء. وهو عنصر أعمّ من أن يكون مختصاً بحالة من حالاته، بل هو يشمل كل ما فيه مصلحة له أو ربح يعود عليه.

عامل الضغط

وهو عامل هامّ أيضاً؛ حيث إنّ الإنسان يظل مشدوداً في حياته لعامل الخوف والرجاء، ويبقىٰ سلوكه محدّداً بهذين الأمرين وأعماله منوطة بهما.

المبحث الثاني: العقيدة ضرورة حتميّة للإنسان

إذا عرفنا هذا فلننتقل إلى أعظم شيء عند الإنسان في هذه الدنيا وهو التصديق والاعتقاد بأن الدنيا ليست نهاية كل شيء، فمن يعتقدْ أنّ وراء الحياة الدنيا حياة ثانية، وأنّ هناك حساباً وعقاباً يخنعْ لهذا الأمر ويصُغْ حياته ويقولبْها بهذا القالب، وبالتالي فإنّه يظل يراقب اللّه في تحركاته. ولهذا نجد أنّ الكفار يتنصّلون من هذا الالتزام لعدم اعتقادهم بهذه القاعدة: **﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**[١].

يعني أنه إذا لم يكن هناك حياة ثانية وحساب وعقاب ـ على حدّ زعمهم ـ فإنّ هذه الدنيا تمثّل فرصة لهم لاحتلابها واحتلاب كل ما يمكن أن يحتلب فيها:

---

(١) الأنعام: ٢٩.

إذا درّت نـــياقك فـــاحتلبها　　فما تدري الفصيل لمن يكـون[١]

ووفق هذا المنظور تصبح الدنيا ميدان سباق ومضمار جري وراء الرغبات، فتصبح القيم مجرد هراء. ولذا فإن القرآن الكريم اعتنىٰ كثيراً بهذا الجانب عند الإنسان وأراد أن يضعه في موضع المسؤولية حيال كل ما يجري حوله، فينبّهه إلى أنّ وراء هذه الدنيا حياة ثانية تقوم على أساس الحساب والعقاب وعلى مبدأ العدل في ذلك، وأنّ في ذلك العالم الآخر يثاب المحسن ويعاقب المسيء. وهذا المضمون هو الذي أرادت الآية الكريمة الأُولىٰ من آيات المقام أن تطرقه وأن تؤكّد عليه: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

إنّ في هذه الآية الكريمة دعوة للتفكير بالمبدأ لكي يسهل علينا هضم فكرة البعث مرّة أُخرىٰ، فالإنسان إذا عرف أنه أُخرج من التراب في المرة الأُولىٰ فإنّه يمكن أن يُخرج منه ثانية ويبعث للحساب والعقاب[٢]؛ لأنّ الأبوين ليسا هما من أخرجه إلى الدنيا، ولو صحّ ذلك لما سمحوا لأبنائهم أن يموتوا؛ فليس هناك أب دوماً يرتضي لولده أن يبعده الموت عنه، كما أنه لا يوجد ولد

---

(١) النور السافر ١: ٢٦٧.

وهو من ضمن تخميس على بيتين مشهورين في الوعظ، والتخميس هو:

ألا طاعات نفسك فاجتنبها　　وساعات الأماني فارتقبْها

وزردة منحة إن تحتلبها　　(إذا درّت نياقك فاحتلبْها

فما تدري الفصيل لمن يكونُ)

تحذّرْ من أُمورك واحتكمْها　　ومن دنياك فاقطع واتّهمْها

وسفْن الصبر فاركب واستلمْها　　(فإن هبّت رياحك فاغتنمْها

فإن لكلّ خافقة سكونُ)

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يس: ٧٨ ـ ٧٩.

يرتضي أن يفارق أباه.

إذن فالأبوان مجرد واسطة لإخراج النسل إلى الحياة، ولو أنّهما كان لهما أنّ يتحكّما بخلق الولد لكان باستطاعتهما أن يتحكّما بجنس الولد؛ لأننا نعرف أنّ بعض الآباء يغتمّ فيما لو جاءته أنثىٰ، فلو كان يقوى على التحكّم بجنس المولود لفعل، ولو كان يقوىٰ على التحكّم بالحياة أو الموت لما سمح بموت أبنائه وأعزائه. وعليه فلا الأبوان ولا الطبيعة العمياء ولا غيرهم يمكنهم أن يخلقوا هذا الإنسان الذي لو أمعن النظر فيما يكتب علماء الطبّ عن أدنى عضو من أعضائه بما يحدث فيه من تفاعلات كيميائية تتمّ على أساس معادلات بالغة الدقة، وبما فيه من أجهزة متعددة بتعدّد الوظائف التي تؤدّيها، وكيف أنه خلق من تراب، لعرف أن وراء كل هذا مصوّراً خالقاً عظيماً حكيماً عادلاً لا تدركه الأبصار، وأنه وحده الذي يمكنه فعل هذا دون غيره.

فإذا كان هذا الحكيم العادل هو الذي خلق الإنسان وأخرجه مبدئياً من التراب، ثم جعله بهذه الهيئة والصورة والكيفية، أفلا يقدر على أن يخرج الإنسان ثانية من الأرض وينشره من التراب للبعث والمعاد والحساب والعقاب؟ **﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**[(١)].

فهل يعلم هذا الإنسان أن مئة وخمسين مليار خلية من جسمه تموت كل ثانية وتولد خلايا مثلها بقدرها؟ أليس هذا موتاً وحياة داخل الجسم؟ فالذي يستطيع أن يحيي مبدئياً يستطيع أن يحيي ثانية. وهذه الحقيقة هي التي أكّدت عليها هذه الآية الكريمة، وأن تضع أيدي الناس عليها. ويجب أن نلتفت إلى أنّ في هذه الآية

---

(١) ق: ١٥.

نقلة علمية ضخمة، فالمجتمع الجاهلي، كان يعيش حالة من التخلّف يرثىٰ لها؛ فهو إن مرض أحد قال: أمرضته الجن، وإن أراد أن يتعالج فإنه يلجأ إلى عظم ميّت، أو يطّلي بالنجاسات:

وعلّق أنجاساً عليّ المعلّقُ [١]

وبعض هذه الرواسب لا زالت موجودة إلى الآن عندنا وتعيش معنا وهذا ما حدا بالدجّالين والمشعوذين إلى استغلال هذه الرواسب سيّما إذا كان المجتمع على فطرته وبراءته؛ فيجنون الأموال من وراء تعميق هذه الرواسب والخرافات عنده، ويستغلّون جهله أبشع استغلال، خصوصاً إذا كانت ضغوط الحياة خانقة.

وهؤلاء الدجّالون ليسوا إلّا أُناساً بعيدين عن اللّه تعالى، وليس لهم ثقة به، ولا رحمة عندهم بالإنسان والإنسانية، فيميلون إلى استغلال جانب الضعف عند الانسان ويحوّلونه إلى أداة لكسب المال الحرام. وليت الأمر يقتصر عند هذا الحدّ، بل إنهم يمارسون عملية تلويث لعقول هؤلاء أثناء عملهم هذا، فيقومون بتسميم أفكاره ومعتقداته بأُمور بعيدة عن الواقع والدين، وربما يمرضونه حقاً ـ بعد أن كان مريضاً وهماً ـ بما يعطونه من مركّبات غير صحيّة.

المبحث الثالث: في معنى الغفور الودود

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**وهو الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾. وهنا صفتان أُخريان هما:

الأولىٰ: الغفور

الغفور هو ذو النفس الكبيرة، الذي لا يعاقب مع أنّه يمتلك القابلية والقدرة

---

(١) عجز بيت للمزق العبدي، وصدره:

فلو أن عندي جارتين وراقياً

شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٩٨.

والاستطاعة على إيقاع تلك العقوبة على الطرف المقابل متىٰ شاء. أي أنّه لا يستعجل بالعقوبة؛ لأنّه يستطيع إجراءها متى أراد ذلك، وعليه فإنّه لا يعاجل المسيء بها: «**إنما يعجل من يخاف الفوت**»[1]، وهو تعالى لا يخاف الفوت.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنّ الغفران خير من العقاب، فنحن نقرأ مثلاً في القرآن الكريم: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ**﴾[2]. والمسألة لا تعدو كونها إجراءً تأديبياً؛ لأنّ العقوبة عند اللّه تعالى ليست انتقاماً، فهو تعالى يريد أن يؤدّب العبد ويردع به غيره، ولذا فإنّه لا يعاجله بالعقوبة ليعطيه فرصة للتوبة والندم والتراجع عن فعل المعصية.

بين النفس الكبيرة والنفس الصغيرة

وهذا الأمر كان ولا زال خطّاً فاصلاً بين النفوس الكبيرة والنفوس الصغيرة في هذا الميدان؛ فالنفوس الصغيرة التي تخاف أن تفوتها الفرصة التي تواتيها تُسرع لإيقاع العقاب، أمّا النفس الكبيرة فتترفع عنه. وسأروي في هذا المجال روايتين إحداهما تنم عن نفس صغيرة تخشى الفوت فتعاجل الآخرين بالعقوبة، والثانية تنمّ عن نفس كبيرة تتسامىٰ فوق الدنيا كلها وفوق كل ما هو مادي.

مروان الحمار يعاجل عدوّه بالعقوبة

تقع أحداث الرواية الأُولىٰ في أيّام مروان الحمار آخر خلفاء بني أُميّة، وذلك أنّ أبا مسلم الخراساني ـ وكان يدعو سرّاً لبني العبّاس ـ كتب كتاباً ووجّه به إلى إبراهيم أخي أبي العبّاس السفّاح، والملقّب بالامام يذكر له فيها اشتداد شوكته وتمكّنه، وأنه في طريقه إلى الظفر، ويطلب منه الرأي والمشورة. فوقع الكتاب في

---

(١) مصباح المتهجّد: ١٩٥.	(٢) النساء: ١٤٧.

يد مروان؛، فساوم الرسول على حياته مقابل أن يذهب بالكتاب إلى إبراهيم ثم يأتيه بالجواب، وأعطاه عشرة آلاف درهم مكافأة. فذهب بالكتاب إلى إبراهيم الذي كتب كتاباً لأبي مسلم الخراساني يأمره فيه بألّا يبقي أحداً بأرض خراسان ممّن يتكلّم بالعربيّة إلّا أباده.

فانطلق الرسول بالكتاب إلى مروان، فوضعه في يده، فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامله على دمشق أن اكتب إلى عامل البلقاء فليسيّر إلى كداد والحميمة، وليأخذ إبراهيم بن محمد فليشدّه وثاقاً، ثم ليبعث به إليك في خيل كثيفة، ثم وجه به إلي. فأتاه وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وحمل إلى حران، فأُدخل على مروان فأنّبه وشتمه، بعد أن أراه رسالته، فأحسّ إبراهيم بأنه قد أُتي من مأمنه، ثم قال له مروان: أدركك الله بأعمالك الخبيثة، فإن الله عزّ وجلّ لا يأخذ على أول ذنب، اذهبوا به إلى السجن.

فحبسوه أيّاماً، وكان معه اثنان من بني أُميّة هما: عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. يقول الثعلبي ـ وكان معهما في السجن ـ: ثم وجّه بعد شهرين قوماً فدخلوا السجن ليلاً فغموا عبد الله بن عمر والعبّاس بن الوليد وإبراهيم، فلما أصبح الصباح وجدوهم ميّتين، ويقال: أُدخل رأس إبراهيم في جراب نورة حتى مات [1].

وهذا التصرّف وهذه العقوبة تنم عن أنّ صاحبها يمتلك نفساً صغيرة يخالجها خوف فوت الفرصة فيلجأ إلى معاقبة أعدائه بهذه الصورة البشعة التي ليس فيها أي جانب من جوانب الرحمة التي كتبها اللّه علينا في كل شيء حتى في ذبح الحيوان

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٣٧، البداية والنهاية ١٠: ٣٦، ٤٣، وفيات الأعيان ٤: ١٨٧، أخبار الدولة العباسية: ٣٩٤ - ٣٩١.

التي ينصّ الفقهاء في فتاواهـم عـلى ألّا يـذبح أمـام أبـويه، وأن يـحدّ الذابـح الشفرة[1]. وللغربيّين علينا في هذا الباب مؤاخذة هي أنّ ذبح الحيوان يؤلمه، ولذا فإنّهم يصعقونه كهربائياً. وهذا أمر يثير العجب والاستغراب؛ إذ أنّ قتل الشعوب عندهم أمر عادي أمّا ذبح الحيوان فيعدّ جريمة.

على أية حال فإنّ اللّه تعالى كتب علينا الرحمة بغيرنا؛ فإذا كان هناك أعداء فيمكن للحاكم أن يخلّدهم في السجن مثلاً، أمّا أن يضع رأسه في جراب مـلـيء بالنورة ويخنقه، أو يضع الوسائد على وجوههم حتى يموتوا خنقاً فهذا ممّا ليس فيه أدنى جنبة من الرحمة التي أوجبها اللّه علينا. وهذا الفعل كما قلنا ينمّ بشكل صارخ عن نفسية صغيرة وضعيفة.

أمير المؤمنين ﷺ وأسرى الجمل

أما الرواية الثانية فهي أنه بعد انتهاء معركة الجمل التي تمخّضت عـن مأسـاة كبيرة وعن جبال من الجثث والأشلاء؛ حيث راح ضحيّتها سبعة وثـلاثون ألف مقاتل، وهي فتنة كانت اليد الطولى والأساسيّة فيها لعبد الله بن الزبـير ومـروان والوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذين هيّؤوا لها عدّتها، وأبرزوا لأجـلها حـليلة رسول الله ﷺ. وهنا نلمس مظاهر النبل عند أمير المؤمنين ﷺ، وأي نبل هو؟ إنه النبل الذي يدفع صاحبه لأن يصفح عن مثيري الفتنة وقائدة الجيش ثم يأمر بتهيئة أربعين خادمة يخدمنها. لقد كانت دماء الضحايا تسيل أنهاراً بسبب هذه الحرب ومثيريها، لكن خلق أمير المؤمنين ﷺ ونفسه الكبيرة التي لا يتّسع لحجمها الكون

---

(١) المسائل المنتخبة (السيد السيستاني): ٤٥٨، المبسوط (السرخسي) ١١: ٢٢٦ - ٢٢٧، ١٢: ٥، بدائع الصنائع ٥: ٦٠.

كلّه دفعاه إلى أن يجيء ليتفقّد عائشة؛ لأنّها عرض النبي ﷺ [١].

والغريب أنه ﷺ مع شدّة عنايته بهذه المرأة وشدّة صيانته حياتها وشرفها، والتفاته إلى مكانتها نجد من الألسن والأقلام المزيّفة والحاقدة وغير النظيفة من يقول: كيف نلتقي مع هؤلاء الذين يرمون أُم المؤمنين بالزنا؟ نستجير بالله من هذا الكلام وهذه التهمة لنا ولها، وأنا لا أدري هل إن هذا الذي يطلق مثل هذا الافتراءات والأقاويل عنده ذرّة من ضمير أو ذمّة تمنعه من إطلاق مثل هذا الكلام؟ هل يعرفون تاريخنا وتاريخهم؟ لينظروا إلى تفاسيرنا مثل (مجمع البيان) [٢] للطوسي، و (الكاشف) [٣] لمغنية و (الميزان) [٤] للطباطبائي (قدس الله سرّهم) وغيرها من كتب التفسير [٥] أو الحديث [٦] مما يبلغ العشرات بل المئات،

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٢) مجمع البيان ٤: ١٥١.

(٣) الكاشف ٥: ٤٠٩.

(٤) الميزان ١٥: ٩٦.

(٥) التبيان ٧: ٤٠٨، فقه القرآن ٢: ٣٨٨.

(٦) بحار الأنوار ٢٠: ٣١٥، وإن كان ذكر بعد ذلك أن الأقرب أنها في ماريّة القبطيّة زوجة رسولنا الأكرم ﷺ.

وعلى العموم فإنه حتى من يرى من علمائنا أن آية الإفك ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ٢٢ ـ ليست في عائشة خاصّة، وأنها في نساء رسولنا الأكرم ﷺ عامّة، فإنهم يدخلون عائشة ضمن المجموع، يقول الشيخ الطوسي: «قال سعيد بن جبير: هذه الآية نزلت في عائشة. وقال الضحاك في نساء المؤمنين. وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة، فلا تقصر الآية على سببها». التبيان ٧: ٤٠٨.

ويلاحظ هنا أمران، هما:

الأول قوله: «وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة». وهذا معناه تنزيه لكل نساء النبي الأكرم ﷺ.

الثاني قوله: «وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة»، وهو قول صريح بعدم نفيه عنها.

ومثله قول القطب الراوندي في فقه القرآن ٢: ٣٨٨.

فهل فيها من هذا الادّعاء الجائر شيء؟ بل لينظروا كيف يدافعون عن عائشة دفاع المستميت حينما يتناولون حديث الإفك، ويستدلّون على طهارتها هنا بكلام أمير المؤمنين عليه السلام **«إن الله طهّر نعلك، فكيف لا يُطهّر عرضك؟»**.

وبقول عبد الله بن عباس «ما زنت امرأة نبيّ قط»[1]. والمسألة موضع إجماع عندنا، وهناك إصرار من أئمّة فكرنا وقادتنا على تطهير ساحة بيت النبي صلى الله عليه وآله من كل دنس ورجس. فصحيح أننا لا نرضى بخروج عائشة على إمام زمانها؛ لقوله صلى الله عليه وآله: لأمير المؤمنين عليه السلام: **«حربك حربي وسلمك سلمي»**[2]، و**«من أحبّك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»**[3]. لكننا لا نرميها بما أمر الله تعالى بحفظه منها. ثم إننا لسنا بدعاً بين المسلمين في مسألة إدانة من يخرج على إمام زمانه؛ فلقد أدان المسلمون أهل الردّة الذين خرجوا على أبي بكر، وأدانوا من خرجوا على غيره[4]، وهذا الشيء عين ذاك، وحكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وقد يقول قائل: إنها تابت وندمت. فنقول: هذا أمر حسن، لكننا لا نوصل الأمر إلى اتّهام عرض النبي صلى الله عليه وآله (حاشا رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك).

وهذه المسألة مفروغ منها عندنا، فعرض النبي صلى الله عليه وآله مصان، وشرفه محفوظ،

---

(١) التبيان ٥: ٤٩٥، مجمع البيان ٥: ٢٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقال له بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣/٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١/ ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٤) كما فعل البعض حيث خطّأ من خرج على عثمان، انظر محاضرة (الإخاء) ج ٢ من كتابنا هذا، وكما خطّأ ابنُ العربي الإمام الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد، انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

ولا يمكن أن يبتلي الله سبحانه وتعالى نبياً من أنبيائه بمثل هذا، فكيف بخاتم الأنبياء وسيّدهم وسيّد الكائنات كلّها وسيّد البيت الطاهر وموضع عناية القرآن الكريم والسماء؟

يروون عن أحد التفاسير عندنا أنّ القائمعليه السلام إذا خرج يجلد عائشة ويقيم عليها الحدّ، لكن ما اسم هذا التفسير؟ ومن هو صاحبه؟ لا أحد يدري. إن هذا التفسير الذي يُنقل فيه أن يفسّر فيه قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**[1] بما يروى عن أبي عبد الله عليهعليه السلام من أن أمير المؤمنينعليه السلام البعوضة وما فوقها رسول اللهصلى الله عليه وآله نضرب به عرض الجدار وإن ثبت أنه لعلي بن إبراهيم[2]، لكن هل هو حقاً له؟

فهذا عرض رسول اللهصلى الله عليه وآله، وبيت النبوّة الذي نكنّ له في قلوبنا ومشاعرنا أسمىٰ حب واحترام وننزّهه عن أن تناله الألسن أو تلوكه، ونربأ بألسنتنا أن نخوض فيما نهى الله عن الخوض فيه. فمن يروّج لهذا الكلام (أنّ الشيعة يتّهمون أم المؤمنين عائشة بالزنا ويرمونها به) لهو مهرّج، وكلامه كلام معيب، فيجب أن تغلق أسواق هذه البضاعة الشنيعة، وينبغي عدم لوك عرض النبيصلى الله عليه وآله بهذا التهريج الشائن، بل إن الذي يروّج له هو من يريد أن يسيء إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله في عرضه.

رجع

على أية حال، فالإمام أمير المؤمنينعليه السلام لم يشأ أن ينام دون أن يتفقّد حال السيدة عائشة؛ لأنه يرى أنّها عرض رسول اللهصلى الله عليه وآله مع ما كان لها من مواقف معه تمزّق أعصاب الإنسان حتى إذا كان في غاية الصبر، سيّما شنّها الحرب عليه؛ لما

---

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) تفسير القمي ١: ٣٤ - ٣٥.

أُريق من دماء، وأُزهق من أرواح على غير سبب سوىٰ رغبة عند البعض في إهاجة الفتنة وإثارتها عليه عليه السلام.

المهم أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام حينما دخل البصرة بعد واقعة الجمل وقفت له امرأة بباب الدار وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم اللّه ولدك. ولو أننا وضعنا مكان أمير المؤمنين عليه السلام أحد خلفاء بني أُميّة أو بني العبّاس كعبد الملك بن مروان والحجّاج وأمثالهما، فماذا يمكن أن يكون ردّة فعله حينها؟ أليس الحجّاج هو الذي خطب الناس ذات مرة حتىٰ غابت الشمس، فقام له أحدهم وهو يخطب وقال له: أصلحك اللّه، الوقت لا ينتظرك، والربّ لا يعذرك. فقال له الحجّاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن[1].

أمّا علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد كان جوابه أن قال لها: **«لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»**[2]؟ وكان فيها مروان بن الحكم، وعبد اللّه بن الزبير، والوليد بن عقبة بن أبي معيط.

فهذه هي النفس الكبيرة التي تسمو على كل ما هو حطام دنيوي زائل[3].

---

(١) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأُدباء ١: ٢٣٩.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.

(٣) وإن كان كرسي حكم ودست رئاسة، أليس هو عليه السلام القائل: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقية.

وقال لابن عبّاس: «والله لهما أحبّ إليّ من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً» يعني نعليه. الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣.

كانعليه السلام يعرف أنّ العفو سيخلّده أكثر من الانتقام، وإلّا فإنّهعليه السلام كان قادراً على أن ينتقم من كل من قام بالحرب ضدّه[1]. وهكذا فإنّ التاريخ الآن حينما يمرّ بموقف من المواقف الكريمة والنبيلة لهذا الرجل السيد النبيل فإنّه ينحني له إجلالاً وإكراماً وإكباراً، وهو يفعل هذا مع كل موقف يمرّ به لأمير المؤمنينعليه السلام:

أَأَبا الحُسينِ وتِلكَ أروعُ كنيةٍ	وكِلاكُما بالرّائعات قَمِينُ
لكَ في خَيال الدَّهرِ أيُّ مَلامحٍ	تَروي السَّنا ويُترجِمُ النَّسرينُ
في الصبح أنت المُستَجِمُّ منَ اللَّظى	واللَّيل في المحرابِ أنتَ أنينُ
تكسو وأنتَ قطيفةٌ مَرقوعةٌ	وتَموتُ من جوعٍ وأنت بَطينُ
آلاؤك البيضاءُ طوّقتِ الدُّنَا	فَلها على ذِممِ الأنامِ دُيونُ
وترقّ حتى قيل فيك دعابة	وتفحّ حتى يفزع التنّينُ
خلقٌ أقلُّ نعوتِه وصفاتِه	أن الجلالَ بمثلِه مقرونُ
ما عدت ألحو عاشقيك بما أتوا	وصفاتُك الغَرّاءُ حورٌ عينُ[2]

الثاني: ﴿الْوَدُودُ﴾ ومعانيه

إن لكلمة ﴿الْوَدُودُ﴾ عند المفسرين معنيين:

المعنى الأوّل: أنه المتحبّب لمن لم يقبل عليه

إنّ من الأمر الطبيعي أن تكون العلاقة بين المتحابّين تبادلية، بمعنى أن تكون

---

(١) وإلّا فلماذا ترفّع بسيفه أن ينال بسر بن أرطاة وعمرو بن العاص بعد أن كشفا عن عورتيهما خوفاً من سيفه القاضم الحاطم؟ يقول ابن الأثير وابن منظور: «كان علي بن أبي طالبعليه السلام إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ ـ قضم، لسان العرب ١٢: ٤٨٨ ـ قضم.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٩.

المودّة متبادلة بين الطرفين، لكن عندما يعرض عنك شخص أنت تحبّه وتظلّ توليه حبّك ومودّتك ورعايتك، فهذا يعني أنك ذو نفس كبيرة وتحمل خلقاً عالياً وأدباً سامياً. والإمام﵇ يقرّر هذه الحالة التي تعتري الإنسان وتتملّكه، فيقول في دعائه: **«فلم أرَ مولى كريماً أصبر على عبد لئيم منك عليّ يا رب، إنك تدعوني فأولّي عنك، وتتحبّب إلي فأتبغّض إليك، وتتودّد إليّ فلا أقبل منك، كأن لي التطوّل عليك، ولم يمنعك ذلك من الرحمة لي، والإحسان إليّ، والتفضّل عليّ بجودك وكرمك، فارحم عبدك الجاهل وجد عليه بفضل إحسانك؛ إنك جواد كريم»**[1].

وفي هذا المقطع الشريف من هذا الدعاء العظيم دلالة واضحة على أنه تعالى ودود حتى لمن أعرض عنه ومع من يصدّ بوجهه عن مودّته؛ لأنّ ذات اللّه تعالى هي محض العطاء والرحمة والخير.

المعنى الثاني: أنه لا ولد له

والذي أودّه هو أن يُلتفت إلى هذه النقطة التي سوف أطرحها هنا، وهي أنّ هناك نوعين هامّين من أقسام التفسير هما: التفسير النفسي، والتفسير الاجتماعي. والتفسير النفسي هو التفسير الذي يقرأ خلجات النفس، فمثلاً إن الشخص الذي يحرمه اللّه الولد ـ وهذا ليس بخلاً منه تعالى، بل هو من باب **«فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعلّ الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور»**[2].

فاللّه تعالى حينما يعطي فإن عطاءه رحمة محضة وكذلك منعه فإنّه رحمة محضة أيضاً؛ لأنّ عطاءه ومنعه منوطان بمصلحة لا يدركها العبد، بل إنّه تعالى وحده الذي يعلمها ـ ثم يرىٰ هذا الشخص الآخرين وهم ينعمون بما رزقهم اللّه به

---

(١) مصباح المتهجّد: ٥٦٤، ٥٧٩. (٢) مصباح المتهجّد: ٥٧٩.

من ولد يمشون ويلعبون أمامهم؛ فإنّ هذا سيكون من أصعب الأُمور عليه، فينتابه شعور بالخيبة وعدم تحقيق رغبته التي بنى زواجه عليها. والذي ينتج من هـذه المعادلة والتركيبة العاطفية شعور بكبير شفقة على الأولاد؛ وهذا ما يجعل الولد لا يقدّر حبّ أبيه له ولا يثمّن عطفه عليه حتى يرزقه اللّه ولداً، وعندها يحسّ بقيمة ذلك العطف وذلك الحبّ. فالبارئ جلّ وعلا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[(١)].

فالآية هنا تصف الباري عزّ وجل بأنّه لم يلد ولم يولد، ولكنه مع ذلك يملك عظيم الشفقة على الناس كافّة، فهو ودود لكل أحد وإن لم يكن له ولد. وهذا ناشئ من أنّ الناس عادة يكون تحابّهم وتباغضهم خاضعاً لأسباب، أما البارئ جـل وعلا فهو غير خاضع لهذه القاعدة، لأنّ ذاته المقدّس هو محض الرحمة والخير والعطاء. ولتوضيح هذه المسألة أكثر سوف نقربها بمثال، فالإنسان حينما يتلبّس بدور ما فإنه يستطيع أن يستشعر كل الأحاسيس التي ترافق ذلك الدور فـلو أنّ رجلاً رأى غيره يحمل ولده المريض فإنّه سوف يشعر بمقدار ألم ذلك الأب لأنّه لبس الدور وراح يحسّ بأن ما أصاب ولد غيره قد أصاب ولده.

وكذلك الأمر مع البائع، فالمستهلك ربما انتقد البائع لجشعه أو لغـلاءِ أسـعار البضائع التي عنده، لكن هذا المستهلك لو أنه كان هو البائع لوجدناه يـضع ألف تبرير وعذر ويعطي ألف سبب ليبرّر ارتفاع أسعار بضائعه. فالذي يحصل هنا هو حدوث تفاوت في الأدوار، ومن النادر أن نجد شخصاً موضوعياً.

إذن من لا يلبس دور الأب لا يعرف قيمته أبداً، أما إذا لبس ذلك الدور فإنّه سوف يبدأ يتحسس الألم في قلب الطفل، ويُصبح ودوداً ويفيض رحمة وشفقة. هذا مع الإنسان أما مع اللّه تعالى فالأمر مختلف؛ إذ أنه جلّ وعلا منبع الرحـمة

---

(١) الإخلاص: ٣.

والعطف والشفقة على الناس فهو ودود شفيق رحمٰن رحيم بعباده، وبالطفل الصغير خاصة؛ لأنّ الطفل من المصادر التي تستدر العطف وإن لم يلبس جلّ وعلا الدور الذي يلبسه الإنسان. قيل لابنة الخسّ: أي ولديك أحبّ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم [١].

المبحث الرابع: في تحقيق معنىٰ العرش وصفته

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾، والمقصود بالعرش: مطلق القدرة، أي دائرة الأمر والنهي. فمن باب تقريب المعنىٰ إلى الحسّ سمي الشيء المعنوي باسم الشيء المادي، وإلّا فإن العرش ليس بجسم أبداً. فهو تعالى يريد أن يقرب الشيء المعنوي إلى الذهن كما قرّب نوره إلى الذهن بالشيء المعنوي، فقال عزّ من قائل: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [٢]. فالعرش ليس مكاناً يجلس عليه اللّٰه تعالى كما يتصوره البعض، وهؤلاء هم المجسّمة الذين يقولون: إنّ اللّٰه عزّ وجلّ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ٦١.

(٢) النور: ٣٥. وقال المعري:

يروى أن أبا تمام الطائي أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يمدحه فيها، فلما بلغ إلى قوله:

في حلم أحنف في شجاعة عامرٍ ... في جود حاتم في ذكاء إياسِ

قال له الكندي وكان حاضرا: ما صنعت شيئاً. قال: وكيف؟ قال: لأن شعراء دهرنا قد تجاوزوا بالممدوح من كان قبله، ألا ترى إلي قول أبي العكوك في أبي دلف:

رجل أبرّ علي شجاعة عامرٍ ... بأسا وغيّر في محيّا حاتمِ

فأطرق الطائي ثم رفع رأسه وأنشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراسِ

الأمالي (المرتضى) ١: ٢١٠ - ٢٠٩.

عنده عرش ويُعطونه حجماً معيناً، بل إنه تعالىٰ منزه عن الجسمية.

فقوله تعالىٰ: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ يعني أنه تعالى ذو مكانة مجيدة. والمجيد لفظ يتضمن صفتين هما: القوي المترفّع عن الدنايا. وقد مرّ بنا سابقاً أنّ عروش الأرض ضعيفة متزلزلة سرعان ما تتهاوىٰ وتسقط لسبب من الأسباب، فكلّ عرش من الممكن أن يهتز ويقتلع من جذوره خلال أقل من ساعة كما حصل للمتوكّل مع الأتراك. وهناك تجارب كثيرة في حياتنا في هذا المجال تُثبت صحة ما قلنا، وهذه التجارب تنمُّ عن أنّ هذه العروش متزلزلة لأنّها عرضة للخطر في أية لحظة، كما أنّ هذه العروش الأرضية ليست عروشاً كريمة؛ لأنّها لا تترفع عن الدنايا والآثام، فتجد عرشاً يطارد امرأة ليقتلها، فهل هذا عرش كريم؟ فحينما لاحق عبد الله بن الزبير زوجتي المختار وقتل إحداهما لأنها رفضت أن تتبرّأ من المختار مع أنها امرأة ضعيفة [1] هل من الممكن أن يكون ذا عرش كريم؟ وهل

---

(١) وهما أُمّ ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاريّة وعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّة، حيث إن مصعب بن الزبير كتب إلىٰ أخيه عبد اللّه بخبرهما، فكتب إليه: إن تبرّأتا من زوجهما، وإلّا فاقتلهما. فعرضهما مصعب علىٰ السيف فرجعت ابنة سمرة وتبرّأت منه، وقالت: لو دعوتموني إلىٰ الكفر مع السيف لأقررت. وأبت ابنة النعمان وقالت: شهادة أُرزقها، ثمّ أتركها؟ يا رب، إنها موتة ثمّ الجنّة والقدوم علىٰ رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الطاهرين. ثمّ قالت: اللهم اشهد أني متّبعة لنبيّك وابن بنت نبيّك وأهل بيته وشيعته. فأمر بها مصعب فأُخرجت إلىٰ ما بين الكوفة والحيرة، وقتلت صبراً. وفي هذا يقول عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي	قتل بيضاء حرّة عطبولِ
قتلوها ظلماً علىٰ غير جرم	إن للّه درّها من قتيلِ
كُتب القتل والقتال علينا	وعلى المحصنات جرّ الذيولِ

تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣.

يوصف بذلك بسر بن أرطاة وهو الذي حينما مرّ ببني كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأُمهما، فلمّا انتهى بسر إليهم طلبهما، فدخل رجل من بني كنانة كان أبوهما أوصاه بهما، فأخذ السيف من بيته وخرج، فقال له بسر: ثكلتك أُمّك! والله ما كنا نريد قتلك، فلم عرّضت نفسك للقتل؟ فقال: أُقتل دون جاري أعذر لي عند الله والناس. ثم شد على أصحاب بسر بالسيف حاسراً وهو يرتجز:

آليت لا يمنع حافات الداز ... ولا يموت مصلتاً دون الجاز

إلّا فتى أروع غير غدّاز

فضارب بسيفه حتى قتل، ثم قدّم الغلامان فقتلا، فخرج نسوة من بني كنانة، فقالت امرأة منهن: هذه الرجال يقتلها، فما بال الولدان؟ والله ما كانوا يُقتلون في جاهلية ولا إسلام، والله إن سلطانا لا يشتدّ إلّا بقتل الطفل الضعيف والشيخ الكبير ورفع الرحمة، وقطع الأرحام لسلطان سوء. فقال بسر: والله لهممت ان أضع فيكن السيف. فقالت: والله، إنه لأحبّ إلي إن فعلت[1].

فالعرش هو الذي يجب أن يكون في القلوب وليس على الأخشاب؛ لأن العروش التي تقوم على الظلم والاضطهاد والإبادة ليست عروشاً، وأصحابها ليسوا بشراً وإنما هم وحوش. فالعرش المترفع عن هذه المظاهر هو الذي يتصف بكونه كلّه رحمةً وعطاء، فهذا هو العرش الذي يدوم ويبقىٰ مخلّداً في القلوب لا يزول عنها ولا يحول. وهذا ما تؤيده شواهد التاريخ؛ حيث نلاحظ أن العروش الدنيوية القائمة على الحقد والقتل والظلم كلّها قد ذهبت ولم يعُد يذكرها ذاكر. فقصرا المتوكل في سامراء: الجوسق والجعفري بما كانا عليه من فخامةٍ وعظمة بناء قد ذهبا، أما خان الصعاليك الذي كان يقابلهما، وكان يسكن فيه الإمام

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ١٤.

الهادي ﷺ فهو يناطح السماء علوّاً وبريقاً، يقول أحد الأُدباء:

أخانَ الصعاليكِ هل مرّت الـ	ـتعابيرُ في تربِك المقفرِ
لتـنبيك أن ديـارَ الطـغا	ةِ من جوسقٍ ثَم أو جعفرِ
تهاوت رماداً وظلّ الخلودُ	ينامُ على رملِكَ الأسمرِ

فالحقيقة إذن أنّ العرش المجيد هو الذي يقوم في القلوب والأنفس وتبقىٰ آثاره المادية في الدنيا تبعاً لقيامه في القلوب. فالقرآن الكريم ينعت اللّه تعالى بأنّه ذو مكانة قوية ممتنعة على الدنايا.

المبحث الخامس: هل إن اللّه تعالىٰ يخلق الشرّ؟

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، وهنا نقطتان هامّتان أودّ أن أُشير إليهما:

الأولىٰ: خلق فعل الشر

فالبعض من المذاهب الإسلامية يستدلّ بهذه الآية على أنّ اللّه تعالى خلق الشر كما خلق الخير؛ لأنّ كل شيء في الوجود خاضع لإرادته جلّ وعلا، فلا شيء يمكن أن يلج الوجود دون إرادة منه عزّ وجل. وبعبارة أُخرىٰ أنه ليس هناك شيء لا يريده اللّه تعالى وهو موجود، وبما أنّ الشرّ موجود فهذا يعني أنّ اللّه تعالى خلقه ويريده؛ لأنّه تعالى لو لم يكن يريده لدفعه. وهذا في الواقع مغالطة وقياس غير كامل؛ فاللّه تعالى يخلّي بين العبد وفعله ولا يمنعه عنه، فتارة يمنع الإنسان عن فعل الشر فيسلب قدرته منه على ذلك، وتارة يمنعه بالنهي ثم يخلّي بينه وبينه، كما لو أنّ شخصاً أراد أن يشرب خمراً؛ فإنّ اللّه تعالى تارة يمنعه عن طريق إغلاق فمه، وتارة يمنعه بأن يوجّه إليه النهي ثم يخلّي بينه وبين فعله.

وهذه التخلية لا تعني أنّ اللّه تعالى يريد هذا الفعل، بل إنّ الأمر لا يعدو كون

أنه إذا لم يكن هناك تخلية صار الأمر جبراً، واللّه تعالى لا يريد أن يجبر أحداً على فعلٍ لسقوط معنى الثواب والعقاب حينئذٍ، فاللّه لا يجبر الإنسان على فعل الطاعة وفعل المعصية ولا يجبره على الانتهاء عنهما.

الثانية: القدرة المطلقة للّه تعالىٰ

فقوله جل وعلا: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ يعني أنّ عرشه تعالى بخلاف عروش الدنيا، لأنّ العروش الدنيوية تمرّ بأدوار لا تتمكن من أن تحصل على ما تريده، فتطلب شيئاً دون أن تستطيع الحصول عليه، أو تأمل وقوع شيء دون أن تقدر على تحقيقه. وهذا ما حصل فعلاً مع كل العروش التي مرّت في التاريخ. يقول الشاعر:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قال له ... كما يقول الببّغا[(١)]

فأحد الخلفاء أُدخل الحمام وأُغلق الباب عليه ومنع عنه الطعام والشراب حتىٰ مات جوعاً وعطشاً. والآخر صبّوا في عينيه الرصاص المذاب.

فعروش الدنيا هكذا حالها، أما العرش الإلهي (القدرة الإلهية المطلقة) فعكس ذلك تماماً؛ إذ أنه تعالى قادر على فعل كل شيء وفي أي وقت يشاء، فكل شيء خاضع لقوته وإرادته؛ ولذا فهو تعالى ذو عرش مجيد، وهو غفور ودود، يبدئ

---

(١) البيتان لجنبذ الكاتب، وقبلهما:

خلافةٌ جائرةٌ ... فاسدةٌ ما تبتغىٰ
صاحبُها محتجبٌ ... يفرق من حرِّ الوغىٰ

ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ٤٨٨ / ٧٩١، باختلاف يسير، مع ذكر مناسبة قولهما في المستعين.

ويعيد، فكل شيء بيده. ولذا فإنّ القلوب العارفة باللّه تعالىٰ تقطع كل صِلاتها وعلائقها الدنيوية وتبقي على تلك العلاقة التي تربطها باللّه جلّ وعلا؛ لأنّها تعرف أنّ اللّه وحده هو الضارّ والنافع، والمعطي والمانع، والمثيب والمعاقب، وهو الفعّال لما يريد.

وهذا الأمر هو الذي يجعل النفوس الكبيرة تتعلّق به جلّ وعلا وحده ساعة الخروج من الدنيا.. ساعة مغادرة الحياة إلى العالم الأرحب. ولقد كان رسول اللّه ﷺ في لحظاته الأخيرة يرمق السماء بطرفه ويقول: **«رفقاً بي ملائكة السماوات، رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون»**. ويقول: **«حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا تخذلني»**[1].

وكذلك فعل أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن سقط إلى الأرض، حيث راح يرمق السماء بطرفه ويقول: **«فزت وربّ الكعبة»**[2]:

بعيد البله يا داحي الباب	**يا سور عزنه يبن الاطياب**
مطروح بويه على المحراب	**وتلوج من حر الصواب**

وكذلك فعل سيد الشهداء أبو عبد اللّه الحسين عليه السلام حيث رمق السماء بطرفه وقال: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»**[3].

وهكذا مرّت عليه لحظات اشتدّ عليه الأمر، فأطبق جفنيه من الألم، فحتىٰ هذه النظرة الأخيرة إلى السماء وإلى عياله وأطفاله حرم منها. والأنكىٰ من هذا أنه

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦/ ١٠٠٤. (٢) انظر بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

حينما وقع إلى الأرض هرع إليه مالك بن النسر، ورفع سيفه وشتم أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ أهوىٰ عليه بسيفه فأطبق حاجبيه على عينيه، فقال له الإمام عليه السلام: **«لا أكلت بيمينك ولا شربت بها، وحشرك الله مع الظالمين»**. ثم ألقى القلنسوة ودعا بخرقة فشدّ بها رأسه، ودعا بقلنسوة أُخرى، فلبسها واعتمّ عليها[1].

وهذه الصورة بقيت عالقة بأهداب عيني الحوراء زينب عليها السلام؛ إذ كانت في تلك اللحظات تنظر إلى الإمام الحسين عليه السلام وتصيح: «يابن أُمي يا حسين، نور عيني يا حسين، إن كنت حياً فأدركنا؛ فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلىٰ الله»[2]. فوصل إلىٰ سمعه صوتها القادم من أعماق المخيم، لكنه لم يكن يقدر علىٰ تلبية ندائها، فقام وسقط:

نايم يخو زينب يواعي … ما هيّجنك هالنواعي

* * *

هذي القبورُ ومنها في الحشا شعلُ … فيها مناسكُ أحبابٍ بها نزلوا

من طيبةٍ بلغوا في كربلا أفلوا … (بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا

وخلّفوا في سويدا القلبِ نيرانا)

---

(١) الإرشاد ٢: ١١٠، مثير الأحزان: ٥٥، ينابيع المودّة ٣: ٨٢. وروى القندوزي عن أبي مخنف قال: لما أخذ الكندي عمامة الحسين عليه السلام قالت له زوجته: ويلك! قتلت الحسين وسلبت ثيابه؟ فوالله لا جُمعت معك في بيت واحد. فأراد أن يلطمها، فأصاب مسمار يده، فقطعت من المرفق، ولم يزل فقيرا حتى مات. ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(١٥٤)

السبط المخلّد عليه السلام

تُسـامرني والكـائناتُ هـجوعُ	بـدنياك فـي قلبِ الظلام شموعُ
سهرتُ عليها الليلَ أستلهمُ الرُّؤى	فألهـمني مـمّا وهـبتَ نـجيعُ
نـجيعٌ مشـى عبر القرونِ بـخِصبهِ	فـلا دهـرَ إلّا مـن حَـباهُ ربـيعُ
تـفجّر فـيه العنفوان فـللدما	شـموخ وللسـيف المـذلّ خضوعُ
وعـند الرمـال السمر من دم ثـائر	عـبير إذا هبّ النسـيم يـضوعُ
تـنشّقه شمّ الأُنـوف ولم يكـن	ليـنشقه أنـف أذّل جـديعُ
أبـا الشـهداء الواهـبين وجـوههم	نـجوماً لهـا عـند القـتامِ طـلوعُ
هـمُ مـن جـذور الأنـبياء وشـائج	ومـن شـجرات الأنـبياء فـروعُ
غرست بـهم أرضَ الطـفوفِ فبرعموا	وهـاهُمُ قـد جـدّ الزمـان فـروعُ
تـوحّدهم دنـيا الفـداءِ فـيستوي	بـها طـاعنٌ فـي سـنّه ورضـيعُ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: سرّ خلود الحسين عليه السلام

لابدّ لنا من وقفة في هذه الليلة الكبيرة بعطائها؛ لنجتلي سرّ خلود الإمام أبي الأحرار وأبيّ الضيم أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام الذي يمتدّ في كل أبعاد الدنيا. وهذا كلام حقّ وواقع ليس فيه أدنىٰ مبالغة؛ فما من بلد فيه مجموعة من المسلمين أو جبهة إسلامية، أو جماعة حتّىٰ لو كانوا ممّن لا يحسب على شيعة الحسين عليه السلام من

باقي الفرق والمذاهب الإسلامية إلّا وللحسين عليه السلام دويّ فيه يردّد أصداءه تأثّرهم وتفاعلهم مع حركته عليه السلام. ولابدّ أن يكون لهذا سرّ يدفع الناس لفعلهم هذا، ولتجاوبهم مع أصداء هذه الحركة المباركة.

وهذا الخلود لم تكن الطرق إليه معبّدة سهلة؛ لما وضع فيها من صوارف كثيرة، ومحاولات مضادّة حاولت جهد إمكانها أن تبعد الحسين عليه السلام عن الساحة الإسلامية، لكنه عليه السلام أصرّ فتجذّر وتعمّق وامتدّ إلى تخوم الساحة. ولنا أن نسأل الآن: ما هو سرّ هذا الخلود مع كل المحاولات التي بذلت لإعاقته كما سيمرّ علينا؟ إنّ هناك عدة اُمور تفسّر لنا سرّ هذا الخلود، نذكر منها:

الأوّل: إرادة الله تعالى في تخليد رسالات الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام

لقد شاءت الإرادة الإلهية المقدّسة أن تخلّد رسالات الأنبياء وأدوار أوصيائهم عليهم السلام والمصلحين من بعدهم، أي ما هو من سنخ رسالات الأنبياء عليهم السلام التي يلخّصها القرآن الكريم بقوله: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾(١)، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾(٢).

فمهمة رسالات الأنبياء عليهم السلام هي إحياء البشر وإنقاذهم وهذا لا يكون ولا يستمرّ إلّا بتخليد تلك الرسالات؛ ولذا فإنّه تعالى آلى على نفسه أن يخلّد رسالاتهم عليهم السلام لهذا الغرض. وبطبيعة الحال إنّ رسالات الأنبياء عليهم السلام تنبع من صميم الحياة، وكل مجتمع يريد الحياة ويرغب في البقاء ويصارع من أجله، وهذا مايجعل هذه الرسالات خالدة وإلّا لم تكن كذلك. فضلاً عن أن أهم وسيلة من

---

(١) الحجّ: ٤١.
(٢) الأنفال: ٢٤.

وسائل التمسّك بالحياة والدفاع عنها، ووسائل الصراع من أجل البقاء هي وسيلة التمسك بالفكر والرأي اللذين يعتقدهما الإنسان ويعتنقهما.

ورسالات الأنبياء عليهم السلام لا تخرج عن هذا الخطّ، لأنّها عبارة عن منظومة فكرية وسياسية واقتصادية متكاملة تستهدف حياة المجتمعات إصلاحاً وتعبئة وتنمية؛ ولذا كانت في طليعة الحركات التي تقف بوجه ظلم الإنسان أخاه الإنسان، واستغلاله واستغلال حقوقه، ولتوفّرَ للناس الرغيف والكرامة والحرّية. فهذه هي رسالات الأنبياء عليهم السلام وقد جعل الله تعالى لها وسائلها الخاصّة والتي وضعها فيها لتحقيق ذلك.

فكل رسالة من هذا النوع لابدّ أن تخلّد لتحقيق هذه الأهداف السامية، وكل رسالة من رسالات السماء لها أهدافها التي تقوم من أجلها ومبرّراتها التي تدفعها لذلك القيام، والتي تجيب عن أي تساؤل ربما يخطر في ذهن البعض. وهذا هو شأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فهي ثورة رسالية لها أهدافها التي قامت من أجلها. وبمعرفة هذا الأهداف التي تمثّل وجه الحقّ نعرف سرّ خلود هذا الثائر العظيم. فهل ثار الإمام الحسين لأجل كرسي هو عينه الذي جلس عليه مروان؟ وهل مثل هذا الكرسي يمكن أن يكون فيه رجاء؟ يقول أحد الشعراء:

إنـي أتـيتُك أجتليك وأبـتغي ... وِرداً فـعندك للـعطاش مـعينُ

وأغضُّ من طرفي أمام شوامخٍ ... وقـع الزمـان وأُسُّـهُنَّ مـتينُ

وأراك أكـبرَ مـن حـديث خـلافةٍ ... يسـتافُها مـروانُ أو هـارونُ

لك بـالنفوس إمـامةٌ فـيهونُ لو ... عصفت بك الشورى أو التعيينُ

فـدع المـعاول تـزبئرّ قسـاوة ... وضـراوة إن البـناء مـتينُ [١]

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

الثاني: إخلاص الإمام الحسين عليه السلام في حركته

لقد كان همّ الإمام الحسين عليه السلام أن يوصل مضامين رسالة جده صلى الله عليه وآله التي هي رسالة السماء إلى النفوس، وهذه المضامين لا يمكن أن تأتي أو توصل إلى الناس عن طريق عروش زائفة، وإنما عن طريق القنوات الروحية التي تعانق القلوب والعقول والنفوس فتفعل فيها فعلها. والإمام الحسين عليه السلام هو ابن الرسالة وابن بيت النبوّة؛ ولذا فإنّ بمقدوره أن يشق قنوات عدّة إلى الأرواح دون أن يكون بحاجة إلى عرش أو كرسي لإيصال تلك المضامين إليها.

وهذا تاريخ المسلمين على امتداده شاهد على ما نقول، فمن من الخلفاء استطاع أن يوصل رسالة السماء إلى الناس عن طريق كرسيّه أو عرشه؟ هل استطاع ذلك عبد الملك أم ابنه الوليد أم الوليد بن يزيد أم مروان الحمار أم الواثق العبّاسي أو غيره من الخلفاء؟ إنّ هؤلاء في حقيقة الأمر لم يكن يهمّهم سوى أن يكونوا على قمة الهرم ليس إلّا، أما إيصال مضامين الإسلام إلى الناس وفتح نفوسهم أمام رسالة السماء وفتح الآفاق أمام رسالات الأنبياء كي تلج تلك النفوس وتصل إليها فليس هذا من همّهم[1]، وهي أُمور لا تصل إلينا إلّا عن طريق القنوات الروحية كما أسلفنا.

---

(١) وكدليل على هذا ما فعله المنصور مع ابن هرمة الشاعر، وكان صديقاً له، فقد وفد على المنصور وسأله: أن يوعز إلى الشرطة والولاة بألّا يلاحقوه على شربه الخمرة وألّا يقيموا عليه الحدّ فيها، فقال المنصور: لا أستطيع أن أُعطّل حدّاً من حدود اللّه أمام الناس، ولكن اذهب وسأحتال لك.

ثم بعث المنصور إلى الوالي بأن إذا جاءك من يشهد عندك أن ابن هرمة شرب الخمرة، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر علانية وينادي: من يشتري ثمانين بمئة؟ فلم يتجرّأ عليه أحد. جواهر المطالب ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام

وإذا تحقّق هذا فعندها نقول بلغة الواثق المطمئن: لا يعني الحسين عليه السلام أن يجلس على كرسي أو لا يجلس، والدليل على هذا أنّ التاريخ يحدّثنا أنّ هشام بن عبد الملك مثلاً كان لا يخرج في سفر له إلّا ويخرج معه ستمئة جمل يحمّلها بزينته وثيابه، أمّا علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول: **«ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»**[1].

ولم يكن القميص الذي كان يلبسه سوىٰ قطيفة جاء بها معه من المدينة، وهو الذي خرج به من الدنيا، وقال له هارون بن عنترة وقد رآه يرعد تحت سمل قطيفة: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال ما يعمّ، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟ فقال عليه السلام: **«والله ما أرزأكم من أموالكم شيئاً، وإن هذه لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي من المدينة ما عندي غيرها»**[2]. فهو عليه السلام يقول لهم: إن خرجت من الدنيا بغيرها فأنا خائن لكم.

وهذا هو الذي كان يريده أميرالمؤمنين من الخلافة[3]، وليس الطعام الهنيء أو

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) كشف الغمّة ١: ١٧٢، بحار الأنوار ٤٠: ٣٣٥ - ٣٣٤ / ١٥.

(٣) فهو عليه السلام يقول: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقية.

ودخل عليه ابن عباس رضي الله عنه فوجده يخصف نعلاً، فقال له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوجُ منّا إلى ما تصنع. فلم يجبه حتى فرغ من نعله، ثمّ ضمّها إلى صاحبتها ثم قال عليه السلام له: «قوّمهما». فقال له: ليس لهما قيمة. قال: «علىٰ ذاك». قال: كسر درهم. فقال عليه السلام: «والله لهما أحبّ إليّ من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً». الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣.

اللباس الناعم أو السلطان، بل إنه عليه السلام كان يكدّ ويتعب، ثم يتصدّق بما يكسبه على الفقراء والمساكين، ويقنع بقليل من الخبز أو بشيء من التمر يأكله، ثم يمسح بيده على بطنه ويقول: **«من أدخله بطنه النار فأبعده اللّه»**[١].

يقول سويد بن غفلة: دخلت عليه وهو في طريقه إلىٰ الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: **«أوَتظن ذلك لبخل؟ لا واللّه ولكن هذا طعامٌ من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا أُحبّ أن يدخل بطني إلّا الطعام الطيب»**[٢].

فهذا طعامه وهذه ثيابه، أمّا بيته فكان عبارة عن كوخ إذا قام ضرب السقفَ رأسُه، مسيّج بالبواري والحصر، أمّا ما خلّفه حين وفاته عليه السلام فكان سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ لتعينهم على أُمور الطحن وأعمال البيت،

---

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٢) بل إن الأمر تعدّاه عليه السلام إلى أصحابه؛ فقد أرسل معاوية هدية ضخمة فيها شيء من الحلواء أبي الأسود الدؤلي، وكتب معها كتاباً يطلب منه فيه ألّا يساعد عليه إن لم يشأ أن يساعده. فلما قدمت الهدية تناولت منها ابنته لقمة من الحلواء، فقال لها أبوها: ألقيها يا بنيّة؛ فإنها السم من معاوية يريد به أن يخدعنا عن أمير المؤمنين عليه السلام. فقالت: قبّحه اللّه، يريد أن يخدعنا بالشهد المزعفر عن السيد المطهر؟ تبّاً لمرسله وآكله، ثم عالجت نفسها حتىٰ قاءت ما ابتلعته، وأنشدت تقول:

أبالعسل المصفّى يا بن هندٍ ... نبيع عليك أحساباً ودينا
معاذ اللـه كيف يكون هذا ... ومولانا أمير المؤمنينا

الكنى والألقاب ١: ١٠.

فعاجلته الشهادة [١]:، فهل هذا شأن طامع بالخلافة [٢]؟

فالإمام الحسين عليه السلام لو كان يطلب الخلافة لما عدا فعله فعل أبيه أمير المؤمنين عليه السلام هذا، ولما جاوزه، ولما تفاوت منهجه وهذا المنهج قيد أنملة؛ لأنه منهج جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنهج أخيه الحسن عليه السلام كذلك. وعلى هذا فإننا نخرج بنتيجة هي أنّ الحسين عليه السلام لم يخرج طلباً للدنيا [٣]، ولم يكن الدافع وراء نهضته المباركة الوصول إلى الكرسي؛ فالأحداث كلها تبرهن على خلاف هذا. إننا بعد أن نستقرئ التاريخ بدقة نجد أن الإمام الحسين عليه السلام؟ لم يكان يريد مكانة في نفوس المسلمين، ولم يبغِ ذلك؛ لأنّه عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة [٤]، وله في قلب كل مسلم طاهر عرش؛ فهو حبيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أحبّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يجب علينا أن نحبّه [٥]، وهو صلى الله عليه وآله وسلم القائل: **«لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه**

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر عليه السلام بردّه إلى بيت المال بعد وفاته كما في الفتوح ٤: ١٤٦.

(٢) قد مرّ ما تركه بعض الصحابة من أموال عظيمة تسدّ ما بين الرجلين الواقفين، أو ما يكسر بالفؤوس من الذهب والفضة في محاضرة (أُمّية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) ج ٤ من كتابنا هذا.

(٣) وهاهي قولته الشهيرة التي شقت الأجواء صارخة: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين». بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٤) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٥) قال القاضي عياض: «قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في الحسن والحسين: «اللهم إني

من نفسه وولده»[١].

والإمام الحسين جزء من رسول اللّه ﷺ[٢] الذي كان يعتبره ريحانته من الدنيا[٣].

إذن حبّ النبي ﷺ هو حبّ الحسين عليه السلام، وحبّ الحسين عليه السلام هو حبّ النبي ﷺ[٤].

وبعد أن عرفنا أن عرش الإمام الحسين عليه السلام في قلوب الناس، فلنا أن نسأل: أي عرش يسعىٰ إليه أفضل من تلك القلوب الطاهرة؟ ليس هناك من عرش في الدنيا مهما كان يمكن أن يفضل عروش القلوب، فكل العروش التي حكمت في هذه الدنيا انهارت مع أصحابها ولم يبقَ لها من أثر أبداً، أما عروش القلوب فهي

☚ أُحبّهما ،فأحبّهما»... وقال: «من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ اللّه، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»...». الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٢٦.

(١) الأمالي (الصدوق): ٤١٤ / ٥٤٢، وزاد: «وأهلي أحبّ إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحبّ إليه من ذاته»، صحيح البخاري ١: ٩.

(٢) فقال ﷺ: «حسين منّي وأنا من حسين». المصنف (ابن أبي شيبة)، وسيأتي تخريجه بعد قليل.

(٣) سئل عبد الله بن عمر عن المحرم: يقتل الذباب؟ فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب ،وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ، وقد قال ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا». صحيح البخاري ٤: ٢١٧، ٧: ٧٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٢ / ٣٨٥٩، مسند أبي داود الطيالسي: ٢٦٠ - ٢٦١، مسند أبي يعلى ١٠: ١٠٥ / ٥٧٣٩، المعجم الكبير ٣: ١٢٧، ٤: ١٥٥ - ١٥٦، أسد الغابة ٢: ١٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٠ - ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٨١ - ٢٨٣، تاريخ الإسلام ٥: ٩٩ ـ ١٠٠، الإصابة ٢: ٦٨ - ٦٩.

(٤) يقول ﷺ: «أحبّ اللّه من أحبّ حسيناً، وأبغض اللّه من أبغض حسيناً». مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

المخلّدة، وساكنوها هم الذين لا يبارحون حَدَق الدنيا ولا تفكير الناس؛ لأنهم جزء منهم ،فاحتلّوا قلوبهم ونفوسهم، ومن يحتلّ القلوب والمشاعر لا يمت أبداً.

إذن فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يريد جاهاً ولا مكانة دنيوية؛ لأن الجاه لم يكن يعنيه بشيء، والمكانة مغروسة له في قلوب المؤمنين بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله منذ كان صغيراً، كما أنه لم يكن يريد الأموال أمّا الكرسي فهو أرفع من أن ينظر إليه؛ لأنه يهتزّ كل يوم لرجل بعد أن يفارقه رجل آخر[1].

ونخلص من كل هذا إلى أنّ هدف الإمام عليه السلام من النهضة هو إقامة العدل وحمل رسالة السماء التي جاء بها جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، والقضاء على مبادئ الجاهلية وقيمها التي بدأت تعود إلى المجتمع وتتجذّر فيه بموافقة السلطة الأُمويّة ومباركتها ورعايتها. وهدف كهذا لابدّ أن يخلّد، وأن يخلّد معه صاحبه؛ لأنّه امتداد للرسالة الإلهية. ونحن حينما نقرأ: **«حسين منّي وأنا من حسين»**[2] فيجب أن نلتفت إلى أن **«من»** هنا ليست للتبعيض؛ فكل واحد منا يعرف أنّ الولد بعض أبيه، بل هي لبيان الجنس والسنخيّة، أي أنه من سنخي.. أنّه امتداد لرسالتي. وفعلاً فإنه عليه السلام لم يكن يريد غير تفتيت مظاهر الجاهلية التي بدأت تظهر على الساحة من جديد وتبرز فيها.. الجاهلية التي حاربها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله منذ بواكير دعوته المباركة الشريفة.. الجاهلية التي راح الأُمويّون وأتباعهم منذ

---

(١) وحال الناس في كل زمان وكل مكان: مات الملك عاش الملك.

(٢) المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، تحفة الأحوذي ١٠: ١٩٠، المعجم الكبير ٣: ٣٣، ٢٢: ٢٧٤، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، ١٠: ٤٢٧، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩، البداية والنهاية ٨: ٢٢٤.

وصولهم إلى السلطة، يعملون جاهدين على إعادتها إلى المجتمع ونشرها بوجه المبادئ الإسلامية المتمثّلة بأمير المؤمنين عليه السلام والحسنين عليهما السلام من بعده ثم بالأئمّة عليهم السلام.

المبحث الثاني: أبعاد وقوف الأمويين في وجه النهضة الحسينية

إن وقوف الإمام الحسين عليه السلام بوجه هذا المدّ الجاهلي المتنامي على أيدي الأُمويّين لا بد أن يعيش في فكر كل حرّ حتى مع وجود الصوارف التي حاولت إبعاد فكر الحسين ومبدئه عن عقول الناس وساحة المجتمع. وهذه الصوارف تتمثّل في أنّ الأُمويّين لم يتركوا بعداً من الأبعاد يدخل ضمن دائرة قدرتهم إلّا وجنّدوه ضد الإمام الحسين عليه السلام وفكره وامتداد خطّه؛ لإخراجه من الساحة جسداً وفكراً وروحاً. ويمكن حصر هذه الأبعاد بالتالي:

البعد الأوّل: أنّ الحسين عليه السلام ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وليس ابنه

لقد استغلّ أعداء الإمام الحسين عليه السلام هذه النقطة، فأشاعوا بين الناس فكرة أنه عليه السلام ليس الابن الصلبي للنبي صلى الله عليه وآله، بل إنّه ابن ابنته، وابن الابنة لا علاقة له بجدّه لأُمّه ولا يعتبر ولداً له، بل إنّه يتبع أباه وجدّه لأبيه[1]. وقد سبق أن عالجت هذا

---

(١) ويستدلّون بقول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا   بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٨. وقد مرّ في محاضرة (البناء الأُسري في الإسلام) ج ٤ من كتابنا هذا ردّ القرطبي على الاستدلال به، وعدم صحّته. وكذلك ببيت عمران بن حفصة:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ   لبني البنات وراثة الأعمامِ

عيون أخبار الرضا ٧: ١٨٩، تاريخ بغداد ١٣: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٧: ٢٩٢.

الموضوع فيما مرّ من محاضرات[١]، وقلت هناك: إنّ العلماء يعتبرون ابن البنت كابن الولد من ناحية جملة من الأحكام المترتّبة عليه. ثم إن جواب الإمام الكاظم عليه السلام للرشيد يكفي في المقام[٢]؛ فقد سأله عليه السلام: لمَ جوّزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبي صلى الله عليه وآله جدّكم من قبل أُمّكم. فقال عليه السلام له: **«لو أن النبي نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟»**. قال: سبحان الله! ولم لا أُجيبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك؟ فقال عليه السلام له: **«لكنه لا يخطب إليّ، ولا أُزوّجه»**. فقال: ولم؟ فقال عليه السلام: **«لأنه ولدني»**[٣]. وقد

---

(١) في القسم المطبوع منها انظر ما ورد في الهامش السابق.

(٢) وكذا روي عن الباقر أنه قال: «يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن والحسين عليهما السلام؟». قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله عزّ وجلّ في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥. قال: «فأي شيء قالوا لكم؟». قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله تعالىٰ لرسوله صلى الله عليه وآله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ آل عمران: ٦١. قال: «فأي شيء قالوا؟». قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول: أبناؤنا.
قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، لأُعطينّكها من كتاب الله عزّ وجلّ أنّهما من صلب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يردّها إلّا كافر». قلت: فأين ذلك جعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ النساء: ٢٣، فسلهم يا أبا الجارود: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه». الكافي ٨: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ / ٥٠١.

(٣) الاحتجاج ٢: ١٦٤، بحار الأنوار ٤٨: ١٢٨، ٩٣: ٢٤٠، ومثلها مناظرة الإمام الرضا عليه السلام والمأمون. بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

وضع النبي ﷺ احتياطه لهذه المسألة من أيّامه الأُولى؛ لما كان ﷺ يعرفه من محاولات الأُمويين وغيرهم من أعداء البيت النبوي لتشويه الحقائق وتزويرها، ودفع الثوابت لأغراضهم الشخصية. وكان ﷺ يعلم أيضاً أنهم سيثيرون مثل قضية أن الحسنين عليهما السلام سبطا رسول الله ﷺ وليسا ولديه، فكان يكرّر أمام الملأ عنهما: **«ابناي»**[1]، ويقول ﷺ: **«كلّ بني أُمّ ينتمون إلىٰ عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»**[2]. وهو ﷺ لم يكن بالذي يلقي الكلام جزافاً حينما أكّد على هذا المعنى وعلى هذا الجانب، بل إنّه ﷺ كان يعرف أنّ هذا الجانب سوف يعتّم عليه ويتعرّض إلى هزة تحاول زعزعته في النفوس. وهكذا فشلت هذه المحاولات، وظلّت الحقيقة قائمة.

البعد الثاني: استعمال مبدأي الترهيب والترغيب

وكذلك لجأ هؤلاء إلى تجنيد الأموال الطائلة والسجون الكثيرة والكبيرة لإغراء الناس وجذبهم إليهم وإبعادهم عن أهل الحقّ، ولتعذيب من يقف بوجههم

---

(١) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٢) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

ويرفض أساليب الإغراء التي يحاولون استدراج الناس بها وشراء ذممهم. فسجنوا كل من كان يميل لأهل البيت عليهم السلام؛ فقد كبسوا بيت سعيد ليلاً وأرعبوا عائلته لا لسبب سوىٰ أنه يوالي علي بن أبي طالب عليه السلام.

وطورد عمرو بن الحمق الخزاعي ولوحق حتى الكهف الذي التجأ إليه حيث هجموا عليه، وأخذوه وضربوا عنقه وحملوا رأسه من الموصل إلى بلاد الشام[1]، وكذلك فُعل بحجر بن عدي الكندي حيث أُخذ هو وجماعته إلى الشام ثم ذبحوا في مرج عذراء؛ لأنّهم استنكروا شتم أميرالمؤمنين عليه السلام ورفضوا أن يسبّوه. وخلاصة الأمر أنّ كل من كان يحب أمير المؤمنين عليه السلام، وكل من كان يتّهم بحبه تعمد السلطة إليه فتسجنه وتذيقه أليم العذاب ثم تقتله، وكان المقصود من هذه الممارسات إبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن الساحة، واستهداف حركته وفكره.

البعد الثالث: تجنيد الأقلام المأجورة

لقد عمدت السلطة من ضمن ما عمدت إليه لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام وفكره إلى تجنيد جملة من حملة الأقلام المحسوبين على الإسلام، مع أننا لا نستطيع أن نعطيها شرف الانتساب إلى الإسلام. إنّ تلك المحاولات كانت محاولات يائسة غير ناهضة، غير أنّ الإصرار عليها يبعث على لفت النظر إليها؛ لأن بعض هذه الأقلام بدأت تركّز على أسباب خروج الإمام الحسين عليه السلام، وتؤكّد على أنه باغٍ خرج على إمام زمانه، فقتل. لكن لنا أن نسأل: من هو إمام زمانه؟ طبعاً يقصدون به يزيد، مع أنّ هؤلاء أنفسهم يروون أنه كان يصعد على منبر المسلمين والخمرة ترنّح أعطافه ويقول:

---

(١) الاستيعاب ٣: ١١٧٤ / ١٩٠٩، البداية والنهاية ٨: ٥٢.

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ[١]

ومن أحبّ أن يطّلع على حاله أكثر فليرجع إلى كتاب (حياة الحيوان)[٢] للدميري في باب (فهد)، ولينظر إلى آراء العلماء في يزيد وما الذي يقولونه فيه. وكذلك لينظر مقدمة كتاب مقتل الحسين عليه السلام) للسيد عبد الرزاق المقرّم؛ حيث عقد فيها فصلاً خاصاً ذكر فيها آراء علماء المسلمين في نهضة الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد، وما هي حقيقة يزيد. وكذلك لينظر مؤلفات جملة من أصحاب الأقلام الحرّة التي تناولت الإمام الحسين عليه السلام وكيف وصفت خروجه على يزيد وكيف هي الحالة التي كان عليها يزيد قبل تسنمه الحكم وبعده. إنّ هؤلاء يذكرون أنّ يزيد لم يترك حرمة للّه لم ينتهكها[٣].

لكن كما قلنا يأتي البعض من أصحاب الأقلام الرخيصة وغير النزيهة فيصف

---

(١) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروّي فؤادي ... ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زيادِ
موضع العدل والأمانة مني ... ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

(٢) حياة الحيوان ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) وأبرز تلك الحرمات التي انتهكها وأشدها حرق الكعبة، كما في سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ – ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

وهتك حرمة المدينة وقتل (٧٠٠) من القرّاء كما في تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

سيد شباب أهل الجنة بأنه باغٍ[1]. وهذا عبور على الحقيقة وظلم التاريخ والخلق الإسلاميّين.

البعد الرابع: التعتيم على ذكرىٰ استشهاده

وهذا البعد قد اتّخذ عدة أشكال وأطوار، ذلك أنّ السلطات الحاكمة حينما رأت أن هذه الفرية لم تنطلِ على الناس ـ حيث إنّهم راحوا يتتبّعون سيرة الحسين عليه السلام، وأثرها في واقعهم، وعرفوا أنه خرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولتجسيد مبادئ الإسلام اتجهوا إلى أبعاد أُخرىٰ منها التمويه على ذكراه ليخرجوه من الأفكار ومن دنيا الواقع وليطردوه من أذهان الناس. وأرادوا لذكراه أن تمرّ بشكل بارد دون أن تشوبها شائبة الحركة والحرارة الثورية أو حرارة الحمية والانفعال من أجل علم من أعلام المسلمين. وقد حاولوا فعل ذلك عبر عدّة أشكال منها:

الأوّل: أنّ شعار الثورات المستوحاة منها فيه استعانة بغير الله

وهكذا أخذوا يشكلون عل نوع الشعارات، فشعار «ياحسين» فيه استعانة بغير اللّه تعالىٰ من وجهة نظرهم، وهو شرك.

معنى الاستعانة ومشروعيّتها

لكن لنا أن نسأل: ما معنى الاستعانة؟ وهل نحن نستعين بالحسين عليه السلام بما أنه لحم ودم؟ إننا نقف في المكان الذي أراد اللّه عزّوجلّ له أن يعظّم، ألم يأمرنا اللّه

---

(١) ويا ترىٰ حينما قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله ذلك ـ بأنه سيد شباب أهل الجنة ـ هل كان يعلم بأنه سيخرج على يزيد أم لم يكن يعلم؟ والنتيجة في كلا الحالين ممّا يجب أن ينزّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن وصفه بها.

تعالى بتعظيم الشعائر[١]؟ وألم يكن من جملة شعائر اللّه تكريم الشهيد والإشادة بدمه؟ إننا حينما نقف على ضريح الإمام الحسين عليه السلام فإنّما نقف على مربض من مرابض الشهادة المهمّة في تاريخ المسلمين، ونستوحي من اللّه رحمته، ونقول: يارب بحق هذا الدم الطاهر، وبحقّ هذا الموقف الكريم للذي ترسّم خطّ نبيّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم واقتفىٰ خطاه الكريمة، ارحمني ولا تحرمني من رحمتك. فأين هي الاستعانة بغير اللّه تعالى؟

ثم إنّ هؤلاء قد كرّروا هذه النغمة على مدىٰ ألف وأربعمئة سنة، ونحن أجبناهم عليها بقدر أسئلتهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع، أفلا يكفي هذا؟ وأنا أعرف أنّ هذه النغمة لن تتوقف، وهذه التهمة لن تنتهي لسبب بسيط هو أنّ هناك أسواق مفتوحة لهذه البضاعة البائرة لتي تدعو إلى إثارة النعرات وبثّ التفرقة.

الثاني: ادّعاء استحباب صوم يوم عاشوراء

ومن هذه البضائع ما يروّج له من ندب صوم يوم عاشوراء، ويروون في ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل المدينة فوجد أهلها يصومون يوم عاشوراء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما هذا من الصوم؟»**. قالوا: هذا اليوم الذي نجّىٰ اللّه فيه نبيّه موسىٰ بن عمران عليه السلام، وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، فصامه موسىٰ عليه السلام شكراً. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«أنا أحقّ بموسىٰ، وأحقّ بصوم هذا اليوم»**[٢].

ثم قالوا بعد ذلك: إن هذا الصوم نسخ بصوم شهر رمضان[٣].

وأقول: إذا كان هذا الصوم قد نسخ كما تروون، فلماذا تدعون له؟

---

(١) في قوله عزّ من قائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحجّ: ٣٢.
(٢) مسند أحمد ٢: ٣٥٩، باختلاف.
(٣) المجموع شرح المهذّب ٦: ٣٠١، ٣٨٣ – ٣٨٤، وقد نقل عن الماوردي عليه الإجماع.

فإن أجابوا بأنهم يدعون له لا على نحو الوجوب بل على نحو الاستحباب.

فنقول: نحن لا نقول بأنّ الصوم أكثر من أن يكون عبادة، فإذا كان الغرض الاستحباب والتقرّب إلى اللّه تعالى فكل يوم هو للّه، فلماذا الإصرار على هذا اليوم؟

فالاستحباب حينئذٍ بعد نسخ الصوم هذا بصوم شهر رمضان لا وجه لتخصيصه بهذا اليوم وإن كان قد نجّى اللّه تعالى فيه نبيّه موسى بن عمران عليه السلام. أمّا إذا كان صيامه بعنوان التشفّي من الإمام الحسين عليه السلام، أو بأي صورة تعطي هذا المعنى فهو حرام بلا كلام؛ لأنّه حينئذٍ سيؤول إلى كونه نصباً، وإذا وصل إلى كونه نصباً أصبح إنكاراً لضرورة من ضرورات الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً**﴾[1]، ومادام أمر اللّه متوجّهاً إلينا بهذه المودّة، وما دام من مظاهر مودّتهم هو الحزن لحزنهم[2] فالواجب إذن ألا يُظهر أحد التشفّي بهم، بل لا يضمره أصلاً.

في أنّ مصرع الإمام الحسين عليه السلام أبكى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم

فصوم عاشوراء إن كان بعنوان التقرّب إلى اللّه تعالىٰ فقط فهذا الاعتبار علّة لصحّته، أما إذا كان في صومه إيماءة أو إشارة تعطي لوناً من الشماتة فهو صوم

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «رحم الله شيعتنا؛ خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، يحزنون لحزننا ويفرحون لفرحنا». شجرة طوبى ١: ٣ - ٦.
وهو أعم من الفرح والحزن المألوفين عندنا؛ لأنهم عليهم السلام يفرحهم أن يطاع اللّه تعالى، ويحزنهم أن يعصى. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كل يوم لا يعصى اللّه فيه فهو عيد». روضة الواعظين: ٣٥٤، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٧٣. أي يوم فرح. فهو صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار عليهم السلام يفرحون إن أُطيع اللّه تعالى ويحزنون إن عصي.

محرّم؛ لأنّه هذا اليوم يوم عزاء لرسول اللّه ﷺ. وليس من مسلم يشكّ في أن مقتل الإمام الحسين عليه السلام قد آذىٰ رسول اللّه ﷺ وآلمه أشدّ إيلام وأفجعه أي فجيعة.

مشروعية البكاء على الحسين عليه السلام وإقامة المآتم عليه

ويمكن الاستدلال لهذا بالكثير من الروايات التي يرويها علماء المذاهب الأربعة في خصوص بكاء الرسول الأكرم ﷺ على الإمام الحسين عليه السلام أو في بكائه على غيره من أصحابه، فهذه كتب علماء أبناء المذاهب الأربعة غنية بالروايات التي تصبّ في هذا المجال، وهي متوفّرة بين أيدينا.

وهكذا فنحن حينما نقيم مآتم على الإمام الحسين عليه السلام نذكر فيها مواقفه البطولية وأهداف حركته السامية ونبكي لما أصابه، فإننا إنما نمشي مع السنّة وعلى خطّها في هذا، ولا نخالفها في شيء. ولست أدري لماذا يعبّر البعض عن إقامة مثل هذه المآتم بأنها بدعة وأنها مخالفة للسنة؛ فهناك الكثير من الروايات في هذا المضمار كما ذكرنا، ومنها ما يرويه ابن الصبّاغ المالكي في (الفصول المهمّة): عن أُمّ الفضل بنت الحارث زوجة العبّاس بن عبد المطلب، أنّها دخلت علىٰ رسول اللّه ﷺ فقالت: يارسول اللّه إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة. قال ﷺ: **«وما هو؟»**. قالت: إنّه شديد. قال: **«وما هو؟»**. قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري. فقال ﷺ: **«رأيتِ خيراً، تلد فاطمة إن شاء اللّه غلاماً فيكون في حجرك»**.

وفعلاً ولدت الزهراء عليها السلام الإمام الحسين وأرضعته أمّ الفضل التي تذكر ذلك فتقول: فولدت فاطمة الحسين عليهما السلام، فكان في حجري، كما قال رسول

اللهﷺ ،فدخلت يوماً علىٰ رسول اللهﷺ، فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول اللّهﷺ تهريقان من الدموع، فقلت: يا نبيّ اللّه، بأبي أنت وأُمّي، مابك؟ قال: **«أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أُمّتي ستقتل ابني هذا»**. فقلت: أيكون هذا؟ فقالﷺ: **«نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء»**[1].

وهذه التربة أودعها رسول اللّهﷺ عند أُمّ سلمة وقال لها: **«يا أُمّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل»**[2].

ومن أحبّ فإني أُرشده إلى عشرات المصادر عند المذاهب الأربعة في هذا المضمار، ودونه كتاب (إقناع اللائم في إقامة المآتم)[3]، وهو مطبوع ومتوفّر، وكل مصادره من كتب المذاهب الأربعة.

بكاؤهﷺ على شهداء مؤتة

إن على المعترض على أمثال هذه الأُمور أن يرجع إلى (الموسوعة الفقهية) في الكويت ولينظر في باب (مأتم) كيف أنهﷺ بكى لما قُتل جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة بمؤتة، وقال: **«المرء كثير بأخيه»**[4]. وقالﷺ **«على مثل**

---

(١) انظر: المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧. قال الحاكم: «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين». وقد مرّ التنبيه في ج ١ ص ٣١ من كتابنا هذا إلى أن صاحبة الرؤيا هي أُمّ سلمة وليست أُمّ الفضل، ويدلّ عليه أن رسول اللّهﷺ قد أودع التربة التي أتاه جبرائيلعليه السلام بها من كربلاء عند أُمّ سلمة.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.

(٣) للسيّد محسن الأمينرحمه الله.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٢.

جعفر فلتبكِ البواكي»[١].

الثالثة: تحريم أكل الطعام الذي يصنع على شرف الحسين عليه السلام

ثم عمد هؤلاء إلى الدعوة إلى الامتناع عن أكل الأطعمة التي تصنع في ذكرىٰ الإمام الحسين عليه السلام، معلّلين ذلك بأنّها محرّمة، مع أنّها تجمع كل شرائط التذكية الصحيحة التي أرادها اللّه تعالى من كون الذابح مسلماً، وتوجيه الذبيحة إلى القبلة، والتسمية عليها عند الذبح، وغيرها. فهذا الذي يصنع الطعام على شرف الإمام الحسين عليه السلام إنّما يدعو الناس إلى الأكل منه ابتغاءً لوجه اللّه تعالىٰ وطلباً لرضوانه؛ لأنّه يبعث ثوابه إلى روح الإمام الحسين عليه السلام. وهو بهذا لا يعدو أن يكون عمله كباقي أنوع البرّ التي يعملها المسلمون لأمواتهم.

هذا مع أننا نعتقد بأن الإمام الحسين عليه السلام ليس بميت[٢]، لكننا نريد أن نسرّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بتقديم الطعام على مائدة ولده، وجعل ثوابه له. فما هو وجه الحرمة إذن؟ ومن أين جاءت، وليس إطعام الطعام هنا كما قلنا إلّا محاولة لإهداء ثوابه إلى الإمام الحسين عليه السلام؟

وأنا أؤكد من على هذا المنبر أن طرح مثل هذه المسلّمات على الساحة والنقاش فيها ليس إلّا مضيعة للوقت، لأن من يطرحها ليس طالب حقيقة، بل هو طالب عناد ومجانف للحقيقة. إن المسلمين اليوم بحاجة إلى الهدوء لتصفية

---

(١) الاستيعاب ١: ٢٤٣، أسد الغابة ١: ٢٨٩، وأضاف فيه: ودخل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك همّ شديد، حتى أتاه جبريل فأخبره أن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرّجين بالدم، يطير بهما مع الملائكة.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران: ١٦٩.

مشاكلهم؛ لأنهم بحاجة إلى الوئـام والتكـاتف والتآزر، فـلدينا كـمسلمين مـن المشاكل مع الآخرين في العالم المحيط بنا ما يكفينا ويكون حرضاً لنا وسبباً لأن نتّحد ونتكاتف في وجه هذه المشاكل التي يراد من ورائها أن يحاق بنا. وإن كان لابدّ من مناقشة مثل هذه الأُمور، فالعالم مليء بالمنكرات التي ترتكب كلّ يوم علانية فلتحارَب تلك المنكرات بعيداً عن الأُمور التي تشحن الأجواء، وتؤجّج المشاكل والصراعات،وتشغل المسلمين عما يدور حولهم مما يراد بهم.

فمن يرد وجه اللّه تعالى فلينكر ذلك المنكَر ولا يظلّ يدور حول هذه الدائرة التي ليس لها مخرج وليس منها مفرّ، أمّا أن يشيع أنّ اللّه تعالىٰ سيعاقب من يصنع هذا الطعام على شرف سيد الشهداءعليه السلام طلباً لمغفرته ولرضوانه وسيعاقب آكـله الذي سيذكر مصيبة ابن رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم ويستعبر لها، فلا أظنه مقتنعاً بما يشـيع ويقول، وإنما هو العناد والعزّة بالإثمّ.

إننا نعرف طريقنا الذي نسير عليه[1] وواثقون منه، ونحن على هدْي الذين قال فيهم رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم: **«إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»**[2]، وعلى هداهم وحبّهم ومودّتهم (نسأل اللّه تعالىٰ أن يجعلنا دائماً من المتمسّكين بكتابه ونبيهصلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عترتهعليهم السلام)، وإن شـاء اللّه سوف لن نضل ما دمنا على هذا الطريق أبداً، فلا يعنينا أنّ هناك من يـوزّع

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف: ١٠٨.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

الكفر والإيمان اعتباطاً[١]، ولا يعنينا أنّ هناك من جعل كل رسالته وهدفه في الحياة تمزيق وحدة المسلمين وشقّ صفوفهم بما يصدر عنهم من فتاوى[٢] وتكفير لمذاهب إسلامية أُخرى[٣].

فاللّه اللّه على وحدة الإسلام والمسلمين، ولتكن أعمالنا نابعة من هدي القرآن الكريم ووحيه، ومن إرشاد السنة النبوية المطهّرة (على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام وأتم التحية والإكرام).

المبحث الثالث: لماذا فشلت محاولات طمس ثورة الحسين﵇؟

إذن يتّضح من كل ما سبق أنّ جميع الصوارف التي وضعها أعداء الإمام الحسين﵇ وأعداء رسول اللّه ﷺ قد فشلت، وظلت ثورة الإمام الحسين

---

(١) فالمتوكّل عندهم محيي السنة، ومميت البدعة كما في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩، مع أنهم يروون أن لحمه وقع في كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان الغانيات. ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

(٢) فقد أفتىٰ الشيخ نوح الحنفي في حلب مثلاً بإباحة دماء الشيعة، وباستحلال فروج نسائهم، ونهب أموالهم. خاتمة مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١٥٩، الكنى والألقاب ٢: ٣٣١.

(٣) مع أن الأشعري يقول: «أنا لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة؛ فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لأن الكلّ يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات». السنن الكبرى ١٠: ٢٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٨، ثم قال الذهبي: وبنحو هذا أدين. وحول هذا انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ١٥ / ٦٢٦٨.

وهذه الظاهرة امتدّت إلى المذاهب كافّة، فمثلاً يقول الحافظ أبو حاتم بن خاموش: كلّ من لم يكن حنبليّاً فليس بمسلم. انظر: تذكرة الحفّاظ ٣: ١١٨٦، سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٢٥، ١٨: ٥٠٨. ويقول: عبد الله بن محمد بن عقيل الباوردي ـ وكان من بقايا الصحابة على رأي الذهبي ـ: من لم يكن معتزليّا فليس بمسلم. ميزان الاعتدال ٢: ٤٩٨ / ٤٥٨٣، لسان الميزان ٣: ٣٥٣ / ١٤٣٠.

ومعالم نهضته المباركة واضحة عالية تتسامىٰ مع الزمن، وتزداد رفعة وعلوّاً كلما ازدادت محاولات طمسها. وهكذا راحت تناطح السماء شموخاً ورفعة، وذلك يرجع للأسباب التالية:

أوّلاً: أن ثورة الحسين عليه السلام امتداد لإرادة السماء

فهذه النهضة الكريمة التي أبت على كلّ المحاولات أن تُقتلع من نفوس الناس، مع ما بذل الطغاة الحاكمون من محاولات ترهيب وترغيب، وتجويع وقتل وتشريد وتعذيب، ومع كل ما جنّدت لها من أموال وأقلام وأزلام، استطاعت أن تصمد بوجه كل تلك المحاولات لا لشيء إلّا لأنها امتداد لإرادة السماء المقدّسة، وامتداد لوحي السماء ورسالتها. وهذا مما لا شكّ فيه؛ لأن هذه النهضة هي امتداد لحركة رسول صلى الله عليه وآله وسلم التغييرية التصحيحية.

ثانياً: أنّ صوت الحسين عليه السلام هو صوت المحرومين في كل زمان

إن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي صوت كل معذّب على الأرض يتطلّع إلى الحريّة ورفض الذلّ والعبودية، وصوت المعذّب لا يمكن أن يموت أبداً. فالإمام الحسين عليه السلام حمل آلام الأمة وهمومها وحمل ألم الناس الجياع والمضطهدين. ومن يقرأ تاريخ الكوفة أو تاريخ أي بلد توجد فيه معارضة لبني أُمية فسيجد أن الرغيف قد مُنع عنها مع أن الإمام الحسن عليه السلام حينما صالح معاوية كان قد صالحه على بنود وشروط كان منها أن يدفع معاوية مليوني درهم أو خراج «أزدجرد» لمن قُتل آباؤهم مع الإمام علي عليه السلام في معركة صفين [1].

---

(١) وقد مرّ بنا كيف أنه حرّك جماعة وأمرهم أن يذهبوا إلىٰ الركب لينتهبوه، ففعلوا، وأرجعوه إلىٰ معاوية، فكان يقول: ماذا أفعل؟ إن الناس هم الذين نهبوا هذا المال.

ومع هذا نجد أن الأمر قد وصل مع هؤلاء الايتام أن أحدهم كان لا يجد رغيفاً يأكله، وكان يطلب الثوب ليلبسه فلا يجده،بل إنّ السجون قد ملئت بهم بعد أن حوربوا في رغيفهم واضطهدتهم السلطة وتتبعتهم في كل مكان لتنكل بهم، فأذاقتهم ضروب الذلّ والهوان. وبطبيعة الحال فإن أصوات هؤلاء هي أصوات المعذّبين التي لا يحجبها عن السماء حجاب، وأصوات كل مظلوم ومضطهد. فالإمام الحسين عليه السلام عندما خرج فإنّما خرج ليطالب بحقوق هؤلاء وليرفع أصواتهم إلى الدنيا، وبما أنه حمل هذه الأصوات وهي أصوات لا تموت فإنّه عليه السلام لا يمكن أن يموت أو أن تستنفد ثورته ونهضته بل ستبقىٰ خالدة مع الدهر.

إننا حينما نعبر عن الحسين بأنّه ضمير المعذّبين فلأنّه عبر عنهم وعن ضمائرهم بموقفه البطولي الرسالي، وهذا الموقف لا يمكن أن يموت وإن حاول الأُمويون خنقه وقتله؛ ظانّين أن بمقدورهم فعل ذلك، وأنهم بفعلهم هذا سيدفنونه تحت التراب، وبالنتيجة أنه عليه السلام سينتهي بهذا. غير أنّ الواقع يصرخ بأن الحسين عليه السلام قد تمرد على التراب فلم يستطع التراب أن يضمّه، يقول الشاعر:

امْرُر على جدث الحسيـ ـن وقل لأعظمه الزكيّة

يا أعظماً رضّتك قو م بالجياد الأصبحية

وإذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيّة

وابكِ المطهر للمطهـ ـر والمطهّرة النقيّة [1]

فهذا الصوت الثائر قد تبرعم ونما وأصبح أقوىٰ من أن تضمه دائرة ضيقة، وهكذا ركب الموجة الكبرىٰ ومشى ليمتد مع الأُفق الواسع، وأصبحنا نسمع الإمام

---

(١) الأبيات للسيد الحميري. كامل الزيارات: ٢١١ / ٣٠١، مثير الأحزان: ٦٤، الغدير ٢: ٢٣٦.

الشافعي يرثي الإمام الحسين عليه السلام بصوتٍ عالٍ ينشره بين المسلمين فيقول:

ذبيح بلا جرم كأن قميصه صبيغ بماء الأرجوان خضيبُ [١]

وكذلك نسمع صوت الحسن البصري مرتفعاً يبكي حتى يصطكّ صدغاه، وهو يقول: «أذلّ اللّه أُمّةً قتلت ابن بنت نبيّها» [٢].

وأخذ هذا الصوت يتسع ويتسع حتىٰ تطور إلى مقاومة مسلحة؛ فكانت ثورة التوابين وحركة العباسيين الذين رفعوا أول أمرهم شعار «يالثارات الحسين». وبدأ الإمام الحسين عليه السلام يأخذ طريقه إلى التجذر في هذه الحياة.. انطلق من فكرة إلى دمعة، ثم تطورت الدمعة إلى موقف فكري وموقف مسلح.. إلى قتالٍ ضد الطغاة والجبابرة حتىٰ وصل الأمر إلى يومنا هذا؛ حيث إننا نسمع أنّ للإمام

---

(١) البيت للإمام الشافعي رحمه الله من ضمن جملة أبيات له معبّرة يقول فيها:

تأوّه قلبي والفؤادُ كئيبُ ... وأُرّق نومي فالسهاد عجيبُ
فمن مبلغ عني الحسين رسالة ... وإن كرهتها أنفس وقلوبُ
ذبيح بلا جرم كأن قميصه ... صبيغ بماء الأرجوان خضيبُ
فللسيف إعوال وللرمح رنّة ... وللخيل من بعد الصهيل نحيبُ
تزلزلت الدنيا لآل محمد ... وكادت لهم صمّ الجبال تذوبُ
وغارت نجوم واقشعرّت كواكب ... وهتّك أستار وشقّ جيوبُ
يُصلّىٰ على المبعوث من آل هاشم ... ويُغزىٰ بنوه إن ذا لعجيبُ
لئن كان ذنبي حبّ آل محمد ... فذلك ذنب لست عنه أتوبُ
هُمُ شفعائي يوم حشري وموقفي ... إذا ما بدت للناظرين خطوبُ

وروي البيت الأخير هكذا:

نعم شفعائي يوم حشري وموقفي ... وحبّهُمُ للشافعي ذَنوب

مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٩، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٣ / ١٢، ٢٧٣ - ٢٧٤، معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول عليهم السلام (الزرندي الشافعي): ١٠١، ينابيع المودّة ٣: ٤٨ - ٤٩.

(٢) ينابيع المودّة ٢: ٣٩٨.

الحسين ﷺ في كل بلد إسلامي أثراً ومأتماً، ولا زالت الأصوات ترتفع وهي تحمل الإمام الحسين ﷺ شعاراً وألقاً ومواقف.

فنحن لا نمجد عضواً انقطع ولا جسداً تمزق وإن كان أهلاً لأن يمجد، لكننا نمجّد موقفاً، وهيهات أن تتمزّق المواقف. وهذا هو الذي أراده أبو الأحرار الإمام الحسين ﷺ حينما وقف على رملة الطفّ ورفع صوته: **«ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّرَ معروفُها، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، و إلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه مُحقّاً. إني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً»**[1].

فسلام اللّه عليك يا أبا عبد اللّه، فواللّه كأنك كنت تنظر بعين الغيب من بعيد، فها أنت قد سحقت كلّ أبعاد الغيظ، وأنت ترىٰ الناس في هذا اليوم ترفعك شعاراً على ألسنتها، وحميةً إلهية في نفوسها، ودمعةً في أعينها. إذن فإن من أسرار خلود الإمام الحسين ﷺ أنه صوت المعذّبين، وضمير الإنسانية التي تعرضت للاضطهاد والظلم، وصوتٌ كهذا كما قلنا لا يموت أبداً.

ثالثاً: أنّ الحسين ﷺ فكرة لا تقارع بالضغط

إنّ الأمر الثالث الذي خلد الحسين ﷺ في حركته هذه هو أنه فكرة، والفكرة لا يمكن أن تقارع بالضغط، بل إن الأمر على العكس فكلما اضطُهدت الأفكار نمت وترعرعت وترسّخت في الواقع وفي نفوس الناس. وهكذا فإننا لو تتبعنا التاريخ فإننا سنجد محاولات كبيرة جداً من قبل الأُمويين والعباسيين وأتباعهم وذيولهم

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤، المعجم الكبير ٣: ١١٤ ـ ١١٥، نزهة الناظر: ٨٨.

والتتار والأتراك قد بُذلت لإخماد فكرة الحسينعليه السلام عند الناس واقتلاعها من أنفسهم بالجبر والقوة والسيف وسفك الدماء والإرهاب وما إلى ذلك من وسائل الظلم والاضطهاد.

وكمثال على ذلك ما فعله المتوكّل بضريح الإمام الحسينعليه السلام وبزوّاره حيث إنه رأى أن يفرض ضريبة من الدماء على من يزوره، فكان يقتل من كل عشرة واحداً، فكانت الأعناق تتسابق للقتل لتصل إلى ضريح الحسينعليه السلام وزيارته. ثم تضاعفت الضريبة حتى وصلت إلى أن يُقتل تسعة من عشرة من الزائرين، ومع ذلك ظلّت الأعناق تمتدّ وتتسابق لتصل إلى القبر. فكانت النتيجة أنه لم يستطع أن يقتل الإمام الحسينعليه السلام في نفوسهم أو يبعده عنها، ولم يستطع أن يمنع الإمام الحسينعليه السلام من أن يتجذّر في نفوس الناس وقلوبهم وواقعهم، كلّا لم يستطع أن يفعل هذا، والتاريخ شاهد.

فالفكر لا يقمع بالضغط [١]، وكل تجارب التاريخ وحقائقه التي بين أيدينا تؤكّد هذا. وعليه فإنه لا يقرع الفكر إلّا الفكر، فإذا أراد أحد أن يستبعد الإمام الحسينعليه السلام من الساحة فعليه أن يثبت أن رسالته ليست حقّة، وأنه لم يحمل رسالة السماء ورسالة الخير والعطاء، ويبرهن على أن الذين قاتلوا الإمام الحسينعليه السلام هم أُناس على حق وعلى صلة بالإسلام. أمّا أن تكون هذه الأُمور مجرّد ادعاءات فهذا ما لا يقبله عاقل ولا يرتضيه عالم؛ فالادّعاء وحده لا يثبت الحقائق أبداً.

فالحسينعليه السلام صوت الإسلام وفكره المتوهّج في هذه الحياة، وصوت المعذّبين الذي لا يتحطّم، وهذه الأُمور المارّ ذكرها هي التي فرضت خلودهعليه السلام على ذمّة

---

(١) والمرء حريص على ما منع.

الزمان، وفرضت تجذّره في نفوس الثائرين والأحرار من أبناء الجنس البشري.

المبحث الرابع: الحسين﵇ والليلة الأخيرة

وإذا أدركنا ما مرّ حول سرّ خلود أبيّ الضيم على الرغم من محاولات معاديه ومناوئيه لوأد فكره ونهضته ومبادئ الحرية التي كان يطالب بها، فلنحاول أن نتعرّف عليه (سلام اللّه عليه) في ليلته الأخيرة، وما الذي كان يصنعه فيها مع معرفته﵇ بأن هذه الليلة هي الليلة الفاصلة بين الفناء والخلود.. بين الذلّ والعزة. لقد مارس الإمام الحسين﵇ في هذه الليلة عدة مظاهر منها:

الأوّل: أنه لم يفارق الكتاب العزيز

لقد بشّر الرسول الأكرم ﷺ أُمّته وعترته بأن عترته أهل بيته لا يفارقون القرآن الكريم ولا يفارقهم مادياً ومعنوياً، قولاً وعملاً[1]، وفعلاً لم يفارق الإمام الحسين﵇ القرآن طيلة حياته سيما تلك الليلة التي استشهد في صبيحتها، فكان ساهراً يقرأ القرآن حتى حان موعد صلاة الفجر، وكان﵇ له وأصحابه دوي كدوي النحل، وهم بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

الثاني: إعطاء المرأة دورها الكامل في هذه النهضة

إنّ الإمام الحسين﵇ حينما خرج من المدينة إلى العراق اصطحب معه عائلته نساءً وأطفالاً إضافة الى عوائل الهاشميين.

أسباب اصطحابه﵇ بنات الرسالة

ولهذا الأمر مبرّرات عدّة ووجيهة على الرغم من اعتراضات البعض على هذا

---

(١) فقال فيهم رسول اللّه ﷺ: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض» وقد مرّ تخريجه قبل قليل.

الإجراء، وأنه أدّىٰ إلى سبي العائلة وهتك حرمتها والتسبّب في جلب الأذىٰ لها. لكن كما قلنا: إنّ هذا الإجراء مبرّر بما هو أهم من سبي العائلة وأوجه من تعرّضها للأذىٰ، وبما هو موازٍ لذلك الأذىٰ فيما لو خلفهم في المدينة المنوّرة، ومن هذه الأسباب:

الأوّل: أنّ الأمويين سيعتقلونهم ولو لم يخرجوا

إنّ أوّل الأسباب التي حدت بالإمام الحسين عليه السلام أن يخرج عائلته معه هو علمه المسبق ومعرفته بأنّ الأُمويين سيعتقلون عائلته حتى ولو لم يخرجهم معه. والأُمويون هذا شأنهم، فقد كبسوا على عائلة عمرو بن الحمق الخزاعي بيتهم، وكذلك دار سعد بن أبي سرح، فكيف سيكون الأمر مع عائلة من خرج ثائراً على دولتهم وسلطانهم؟ فهو عليه السلام يعرف أنه لو ترك عائلته في مدينة جدّه لكان مصيرها الاعتقال والسبي، فالأمر سيان؛ خرجوا معه أو بقوا في المدينة.

الثاني: إبراز دور المرأة في معركة الطفّ

ثم إنّ سيد الشهداء عليه السلام كان ينظر إلى أمر هو أبعد من مرمىٰ نظر القاعدين غيره ممّن يعترضون على إبراز بنات الرسالة معه إلى المعركة، فهو عليه السلام يريد أن يبرهن على أن المرأة التي يربيها الإسلام لا تقل خطراً وصلاحية عن الرجل فيما يمكن أن يضطلع به ويقوم بتنفيذه. فهذه المرأة المسلمة إذا وضعت في الأجواء التي يريدها الإسلام فإنها ستُلفىٰ طاقة تتفجّر. وهكذا كانت الحوراء زينب (سلام اللّه عليها)، فقد كانت طاقة متفجّرة لا حدود لها، ولا تخشىٰ الظالمين ولا تخاف من قرع سياطهم، وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أخرجها معه لمعرفته بما يمكن أن تقوم به من دور بعد استشهاده.

ثم إنه عليه السلام يريد أن يبرهن خطأ ما في أذهان البعض من الناس من وهم أن

المرأة لا تستطيع أن تقوم بالأعمال التي يقوم بها الرجل. وهذا ما قامت به زينب عليها السلام وأخواتها، حيث قمن بأداء هذه الأدوار على أتم وجه وأكمل صورة.

الثالث: أن تكون الواجهة الإعلامية لمرحلة ما بعد الثورة

وكذلك من دواعي إخراج الإمام عليه السلام عائلته معه وزينب بالذات أن يكنّ اللسان المعبّر لنهضته عليه السلام بعد الثورة. وهذا أمر ضروري جداً، لأنّ الإعلام الأُموي إبّان الثورة الحسينية المباركة وبعدها كان في أوج قوّته ونشاطه وشدّته. وفعلاً انخدع المغفّلون بما وصفوهم به من أنهم خوارج بغاة على إمام زمانهم.. أُدخلت العائلة الهاشمية في أسوأ حال إلى مجلس يزيد وهم ينعتونهم بالخوارج، وكان عنده رسول قيصر، وكان من أشراف الروم وعظمائهم، فلمّا أُتي برأس الحسين عليه السلام سأله قائلاً: هذا رأس من؟ فقال له يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. فقال الرومي: ومن أُمّه؟ فقال: فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال النصراني: أُفّ لك ولدينك، لي دين أحسن من دينكم.

ثم قال ليزيد: هل سمعت حديث كنيسة الحافر؟ فقال له: قل حتى أسمع. فقال: هي كنيسة في محرابها حقّة ذهب معلّق فيها حافر يقولون: إن هذا حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وقد زيّنوا ما حول الحقّة بالديباج، ويقصدها في كل عام عالم من النصارى ويطوفون حولها ويقبّلونها، ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى عندها، هذا شأنهم ورأيهم بحافر حمار يزعمون أنه حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم؟ فلا بارك الله تعالى فيكم ولا في دينكم. فقال يزيد: اقتلوا هذا النصراني لئلّا يفضحني في بلاده. فقُتل[1].

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٠ - ١١٢، ينابيع المودّة ٣: ٢٩، وكان قد قال له من ضمن ما قال: إن أبي من حوافد داود عليه السلام، وبيني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظّمونني ويأخذون

فهذا الرسول يريد أن يبيّن له أن بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يفرز خوارج.

إذن كان مراد الإمام عليه السلام من زينب أن تكون الصوت المعبّر لأهداف الثورة وعنها؛ لأنّها أهل لذلك، ولأنّها الامتداد الطبيعي لموقف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولأنها صوت الإسلام كلّه، ولأنّه لا سبيل إلى بلوغ ذلك ـ نشر أهداف الثورة ـ إلّا باللسان المعبّر الذي لا يحصر ولا يعتريه العيّ.. لسان أمير المؤمنين عليه السلام الهادر كالسيل حتىٰ وإن كان مصير ذلك هو القتل، وحتىٰ لو ترتب على أداء هذا الدور وهذه الرسالة السبي والضرب؛ لأنّ الحسين عليه السلام ينتمي لموكب الشهداء.. إلى الألسن المعبّرة عن رسالة الإسلام، وكذلك أهله.

وآباء الإمام الحسين عليهم السلام لم يمت منهم أحد على فراشه[1]؛ فأبوه عليه السلام قد قتل، وأعمامه قتلوا وإخوانه وأبناء أعمامه وأبناؤهم كلهم قتلوا في ساحات الشرف والدفاع عن الإسلام ورسالته. يروى أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان كثير البكاء، وكلما ذكر واقعة الطف اشتدّ حزنه وزداد بكاؤه، فدخل عليه أبو حمزة وقال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل وأباك عليه السلام قتل، فقال له: «**شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن واللّه ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى**

☚ من تراب قدمي تبرّكا بأني من حوافد داود عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم، وما بينه وبين نبيّكم إلّا أمّ واحدة؟ فأي دين دينكم؟ ثم إنه بعد أن أمر به فقتل، قال له: اعلم أني رأيت البارحة نبيّكم في المنام يقول لي: يا نصراني، أنت من أهل الجنّة. فتعجّبت من كلامه، وإني أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم وثب إلى رأس الإمام الحسين عليه السلام فضمّه إلى صدره وجعل يقبّله ويبكي حتى قتل.

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش». نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

وفعلاً كانت مواكب الشهداء تزدهر بنجوم أهل بيت النبوّة، وكانت قوافلهم متوّجة بشهدائهم وأبطالهم، فأناروا للإنسانية طريقها، وصنعوا لواءً يرفرف للأحرار في كل مكان وزمان:

فدمٌ أَرَقتَ كأنه من جِدَّةٍ ... لِلآن يعبِقُ بالثَّرىٰ ويُخَضِّبُ

وتَركتَ للأجيالِ حِينَ يَلُزُّهَا ... عَنَتُ السُّرىٰ ويَضيقُ عَنها المَهرَبُ

جُثَثَ الضَّحَايَا من بَنيكَ تُريهُمُ ... أنَّ الحُقُوقَ بِمثلِ ذلكَ تُطلَبُ

فقافلة شهداء البيت الهاشمي وموكب شهداء البيت النبوي المطهّر وضعت دماءها على أكفّها وبين يدي اللّه لتريقها في سبيله، وهي قافلة اختطّت التضحية من أجل إبلاغ رسالة الإسلام:

أترعتني دنياك حتى إذا جئـ ... ـت أناجيك أجفلت ألواحي

وتهاوى شعري أمام خطيب ... عبقري أقمته من جراحي

لم تفجّر لظاك يهدر بالحـ ... ـقّ لتروي قرائح المدّاحِ

رُدّنا إننا ظِماء إلى طـ ... ـفّ جديد يعيدنا للكفاحِ [١]

فسلام اللّه عليك أبا الشهداء الأحرار، ما أكبر روحك وأعظم تضحيتك! ما أكبر تلك الروح التي كانت أعظم من كل الخطوب، والتي تتّسع لكل الخطوب، وسلام عليك وأنت تصارع الظلم والطغيان لوجه اللّه تعالىٰ.. سلام اللّه تعالى وسلام ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين على روحك التي وقفت في مثل هذه الليلة والخطوب تحتشد أمامها، لكنها تعملقت على تلك الخطوب وقفزت عليها

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ١٨.

واستطاعت أن تجتازها دون أن تدعها تقف في وجهها.

وسلام عليك يا سيّدي وأنت تغالب دمعة في عينيك أن تراها أُختك التي ستتحمل العبء من بعدك.. وسلام عليك وأنت تضع يدك على قلب مليئ شفقة ورحمة وهو يرىٰ صغاره ينشجون نشيجاً خفيّاً.. وسلام عليك وأنت ترى رملة الطف التي تعلم أن غداً ستتراقص عليها أشلاؤك وأشلاء إخوانك وأصحابك وأبنائك.. وسلام عليك وأنت ترى من بعد دياراً لآل محمد ستبقىٰ من بعدك خالية من أهلها.. وسلام عليك إذ كل ذلك لم يقف حائلاً بينك وبين أن تضمّخ رسالة السماء بطاهر دمك.. بينك وبين الصلابة والإقدام على الموت من أجل تحقيق هذا الهدف الكريم.

لقد وقف أبو الشهداء الأحرار الإمام الحسين عليه السلام في مثل هذه الليلة واستدعى أُخته زينب و مجموعة من النساء وأوصاهن وعزّاهن وأوكل إلى زينب عليها السلام وأخواتها مهمة قيادة المرحلة الجديدة التي تعقب استشهاده عليه السلام. وهكذا يكون قد وضع الحوراء زينب عليها السلام أمام الحقيقة وهي حقيقة مرّة وقال لها: **«يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله»**[1]، فكأن لسان حاله عليه السلام يقول لها: أُخية البكاء أمامك، فسيصبح صباح غد وسترينني جديلاً وبدمي غسيلاً، فعليك بهؤلاء المذاعير من الأطفال والنساء، وأدنين عليكن من جلابيبكن.

ثم عزّاها وسلّاها، وبعض التسلية تورية.. ونظر إلى دمعة تترقرق في عينيها، يقول الشيخان المفيد والصدوق: دخلت عليه أُخته زينب ليلاً وهو يقرأ القرآن الكريم، فوضع القرآن الكريم على الأرض وقام إجلالاً لها وأجلسها إلى جانبه،

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

ورأى في عينيها دمعة، فمدّ يده إلى منديله ومسح دمعتها وقال: **«يا أُخية، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان»**[1].

فلقد وضع يدها على المصائب التي ستلاقيها، وأخبرها بأنها ثقته التي ستتحمل العبء من بعده.. جلس معها طويلاً وجلس مع الإمام زين العابدين ﵇ كذلك، وترك العنان للنساء يودّعن أحبّتهن وأبناءهن وإخوانهن.. تعلّقت كلّ واحدة منهن بابنها أو ابن أخيها تشمّه وتضمّه، ثم خرج الإمام الحسين ﵇ بعد ذلك يتفقّد أرض المعركة ويستعلم حال أصحابه ويستظهر نيّاتهم. ثم عاود توديعهم قبل أن يلج المعركة، فقد رجع إلى المخيّم ليودّع عياله وأطفاله للمرّة الأخيرة.. دخل خيمته، فجاءته أُخته زينب ﵍ والدمع يترقرق في عينيها:

بعد هيهات دهري بيكم يعود   أرد اشيل راسي بيكم اردود

---

١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، وانظر: روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

﴿١٥٥﴾

غريب طوس عليه السلام

سيدي يا أبا الجواد ويا بن الـ ـحبر موسى ويا مناط الرجاءِ
يا مقيماً بقلب كل محبّ ولوَ ان المدى بعيدٌ ناءِ
يا بن أصلاب من أعزّ رجال وابن أرحام من أعفّ نساءِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: في ولادته الكريمة ونشأته

ولد الإمام الرضا عليه السلام سنة مئة وثمانية وأربعين للهجرة، ومجموع عمره الشريف خمس وخمسون سنة؛ لأنّه توفي عام مئتين وثلاثة للهجرة، وهو بمقدار عمر أبيه الإمام الكاظم عليه السلام. وكانت ولادته في المدينة المنوّرة في دارهم المعروفة بالعريض، وأُمّه أمّ ولد نوبية يقال لها أروىٰ، وتلقّب بشقراء، يقول هشام بن أشقر: قال لي أبو الحسن الأول عليه السلام: «**هل علمت أحدا من أهل المغرب قدم؟**». قلت: لا. قال: «بلى، قد قدم رجل من أهل المغرب المدينة، فانطلق بنا». فركب وركبت معه حتى انتهينا إلى الرجل، فإذا رجل من أهل المغرب معه رقيق، فقلت له: اعرض علينا. فعرض علينا سبع جوارٍ، كل ذلك يقول أبو الحسن عليه السلام: «**لا حاجة لي فيها**».

ثم قال: «**اعرض علينا**». فقال: ليس عندي إلا جارية مريضة. فقال له: «**ما عليك أن تعرضها؟**». فأبى عليه، فانصرف ثم أرسلني من الغد، فقال لي: «**قل له:

كم كان غايتك فيها؟ فإذا قال لك: كذا و كذا، فقل: قد أخذتها». فأتيته فقال: ما كنت أُريد أن أُنقصها من كذا و كذا. فقلت: قد أخذتها. قال: هي لك، ولكن أخبرني من الرجل الذي كان معك بالأمس؟ قلت: رجل من بني هاشم. قال: من أي بني هاشم؟ فقلت: ما عندي أكثر من هذا. فقال: أُخبرك أني اشتريتها من أقصى المغرب، فلقيتني امرأة من أهل الكتاب، فقالت: ما هذه الوصيفة معك؟ قلت: اشتريتها لنفسي. فقالت: ما ينبغي أن تكون هذه عند مثلك، إن هذه الجارية ينبغي أن تكون عند خير أهل الأرض، فلا تلبث عنده إلا قليلاً حتى تلد غلاماً لم يولد بشرق الأرض و لا غربها مثله. قال فأتيته بها، فلم تلبث عنده إلّا قليلاً حتى ولدت الرضا﵇[1].

لماذا الزواج من الجواري والسراري

إذن كان الإمام الرضا﵇ ابن جارية، وهذه الظاهرة ليست غريبة، ولا فريدة في تاريخ أهل البيت﵇، والزواج من الجواري من الأُمور التي دعا إليها الإسلام وحثّ على فعلها. وهناك عدّة أهداف يرمي إليها الإسلام من وراء تزوّج الجواري والسراري، وهذا هو الذي يفسر لنا سرّ إقبال أهل البيت ﵈ على الزواج من الجواري، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأوّل: كسر نظرة التعالي عند العرب لغيرهم من الشعوب

وإنّما قلنا: إنها ظاهرة ليست غريبة في حياتهم﵈؛ لأن غيرهم سيستغربها حقّاً، فالعرب كانوا يحتقرون ابن الجارية ويعتبرونه هجيناً، وهي نظرة جاهلية لا تنسجم مع العقل ولا مع الشرائع السماوية، وإنما تنسجم مع التقاليد. فالعقل يقول

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٥٤ ـ ٢٥٥، مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٦٣.

غير ذلك؛ لأن هذه الجارية ربما كانت تتحدّر من حضارة أضخم من حضارة العرب آنذاك. هذا من ناحية العقل، أما من ناحية الإسلام فإنّه دين سماوي عالمي ورسالة عامّة، ويريد أن يجعل الشعوب مندمجة مع بعضها بلا فرق بين هذا الشعب وذاك بالعرق والقومية أو اللون أو المنطقة الجغرافية. وهذا أوّل أهداف الإسلام.

الهدف الثاني: تخفيف وطأة الفتح على أبناء البلاد المفتوحة

فالإسلام يريد بهذا أيضاً أن يخفّف من وقع الفتح ووطأته على نفوس أبناء البلاد المفتوحة التي لم يسلم الإسلام من بقايا عقد ضدّه ظلت راسخة في نفوس أهلها؛ كونه فتح بلادهم وغيّر نظام الحكم والسلطة والقوانين وأثّر في حضاراتهم. وهذا الشيء بطبيعة الحال ليس سهلاً عليهم أبداً.

ولو رجعنا إلى الحروب الحديثة في تاريخنا المعاصر كالحرب العالمية الثانية لوجدنا أن الدول أو المدن التي احتلّها الحلفاء لم تستقر إلى أن رجع المحتلّ عنها، كألمانيا على سبيل المثال، فليس سهلاً أن يأتي المحتلّ إلى بلد فينظر له الناس فيه نظرة طبيعية، إنّ الشعوب تنظر إلى المحتل نظرة متشنجة. وهذا ما دفع الإسلام إلى وضع مجموعة نظم في التعامل مع هذه الشعوب تهدف إلى امتصاص هذه النظرة المتشنجة إن لم نقل: اجتثاثها.

ومن هذه الطرق فتح باب الزواج من الجواري والسراري على مصراعيه، وهو نظام دفع المسلمين إلى الزواج من أكبر قدر من نساء هذه البلاد المفتوحة بوجه شرعي وسليم، ممّا أدّى إلى اختلاط الدماء والتدرّج في القضاء على نظرة التعالي التي كان العرب ينظرون بها إلى أبناء الشعوب الأُخرى. وبهذا أصبحنا نرىٰ الكثير من أشراف القوم وأُمهاتهم غير عربيات، فهذا أُمّه روميّة وذاك صقلّية والثالث

فارسية، فالتقت الشعوب مع بعضها واندمجت بالمصاهرة، وأصبح الاتّصال قائماً بين الأُمم على مختلف أجناسها وألوانها وأعراقها؛ مما أدّىٰ إلى امتصاص النقمة.

الهدف الثالث: إيجاد حالة من التلاقح الفكري

والهدف الآخر الذي يسعى إليه الإسلام الحنيف من وراء حث المسلمين على الزواج من الجواري هو تسهيل عملية التبادل والتواصل الفكريين بين الشعوب المتصاهرة؛ لأن امتزاج الدماء يسهّل عملية التبادل بالأفكار بين الطرفين، ويقرب ما بينها؛ إذ أنه سيكون بينهما تزاور وتبادل علاقات، وبالتالي تحصل عملية نقل الأفكار والحضارات من شعب إلى شعب[١].

إذن عملية التزاوج تلعب دوراً مهمّاً في إحداث حالة من الانسجام والتبادل الفكري وكسر حاجز الترفّع بين الشعوب المتصاهرة، وهذا ما حصل فعلاً؛ وهو الذي دفع بالاسلام كما قلنا إلى وضع هذا التشريع.

بيع الرقيق

ويبقىٰ هنا سؤال لابدّ من إثارته وطرحه ثم مناقشته لتتّضح وجهة نظر الإسلام حيال مسألة الرق. هذا السؤال يطرحه البعض من المثقفين وربما الكثير منهم بصورة متشنّجة، وهو: هل إنّ الإنسان حيوان حتى يباع ويشترىٰ في الأسواق؟ وإن كان أرفع من الحيوان، فلماذا تباع الجواري إذن، مع أنها إنسان، والإنسان له كرامة يجب أن تُحفظ وتصان؟

والجواب عن هذا التساؤل أن نقول: إن الإسلام لم يستهدف إذلال الآدمي،

---

(١) انظر هذا المطلب كاملاً في محاضرة (قبسات من حياة السجاد ﵇) في ج ٤ من كتابنا هذا.

بل إنّه استهدف رفع منزلة الشعوب وتعظيم كرامتهم بدعوته إياهم إلى الدخول فيه. ثم إنّه لم يقاتل هذه الشعوب مباشرة، بل إنّه كان يخيّرها قبل القتال بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينها مع دفع الجزية؛ لأنّه يريد أن يبسط حمايته عليهم. ومعنى هذا أنه وسّع دائرة الاختيار لهذه الشعوب قبل أن تختار القتال، فإذا دخلت هذه الشعوب في الإسلام فقد حلّت المسألة ولم يبقَ هناك أي مجال للسبي واقتياد الجواري وغير ذلك، وأصبح هذا البلد إسلامياً له ما لجميع البلاد الإسلامية من حقوق وعليه ما عليها من واجبات. ومع رفض هذا البلد الإسلامَ واختيارهم البقاء على دينهم، فإنهم يسمح لهم بذلك لكن بشرط المواطنة الصالحة؛ وهي أن يذعنوا لقانون الإسلام، ويدفعوا الجزيةالتي هي مبلغ رمزي كي يأخذ مقابلها كل الحقوق التي يأخذها المسلم.

الإسلام يسهّل باب العتق

إذن المراد بهذه العملية هو ترويض من يرفض أن يدخل في الإسلام أو يرفض أن يكون مواطناً مسلماً صالحاً. ولذا فإنّ الإسلام عمد إلى كسر هذه الحالة من التمرّد الأهوج، ثم بعد ذلك فتح باب تحرير هؤلاء وعتقهم على أوسع مجالاته. ويكون هذا العتق بعدة أُمور منها:

أوّلاً: الحث على عتقهم لوجه الله

فهناك الكثير من الحث على عتق هؤلاء طلباً لثواب اللّه تعالىٰ واكتساباً لمرضاته[1].

---

(١) فعن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل: فتاتي وغلامي». مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣١٦، مسند أبي يعلى ١١: ٤٠٥ / ٦٥٢٩.

ثانياً: انعتاق أمّ الولد

فهؤلاء الجواري حينما يحملن من مالكهين فإنهن ينعتقن تلقائياً بمجرد موت المالك؛ حيث إنهن يحتسبن حينها من نصيب أبنائهن. ومعنى هذا أن ملكيتهن تصبح متزلزلة بمجرد أن يبين حملهن، وتسمى حينئذٍ أم ولد.

المبحث الثاني: ألقاب الإمام الرضا عليه السلام

وبعد أن وضعت أروىٰ (رضي اللّه عنها) مولودها الكريم المبارك، أسماه الإمام الكاظم عليه السلام بأحبّ اسم، وهو اسم عليّ الذي كان أهل البيت عليهم السلام يحرصون على التسمّي به؛ لأنّه اكتسب مكانة ممّن سمي به، وهو أمير المؤمنين عليه السلام. ولقب عليه السلام بألقاب عدة منها الوفي والصابر والسلطان والرضا، وهو أشهرها:

الصابر

ولقب الصابر جاء من صبره في مواقف صعبة جداً يصعب معها الصبر على من

☚ وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يجمع غلمانه في ليلة العيد فيعتقهم، ثم يطلب منهم ليدعوا له، ويقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا». الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

وعن ابن مسعود قال: كنت أضرب عبدي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي، وإذا هو رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «اعلم أبا مسعود، أن اللّه أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام». فقلت: يا رسول اللّه، هو حرّ لوجه اللّه. فقال صلى الله عليه وآله: «أما لو لم تفعل للفحتك النار». مسند أحمد ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٤، صحيح مسلم ٥: ٩١ ـ ٩٢، مسند أبي داود ٢: ٥٠١ / ٥١٥٩.

وقال صلى الله عليه وآله: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه». سنن أبي داود ٤: ١٧٦ / ٤٥١٥، سنن الدارمي ٢: ١٩١، الجامع الصحيح «سنن الترمذي» ٤: ٢٦ / ١٤١٤.

ومن ذلك سن تشريع المكاتب والمدبّر، وجعل كفّارة الكثير من الجرائر عتق رقبة مؤمنة، كل ذلك للقضاء على آفة الرقّ.

هو غيره، وكما سيمرّ بنا إن شاء اللّه تعالى خلال الأبحاث القادمة. فالإمام عليه السلام كان مثال التصبّر والتجلّد، ولم يُبدِ تأثّراً أو تألّماً مطلقاً.

الوفي

وهو لقب استحقّه بجدارة وأهلية تامة، لأنّه عليه السلام كان بحق وفيّاً لرسالته المناط به أداؤها، ولدوره الذي تحمّل عبء القيام به كما هو شأن آبائه وأبنائه الطاهرين المنتجبين عليهم السلام.

الرضا

ويراد به رضا اللّه في أرضه ورضا الناس عنه في الدنيا؛ لأنّه عليه السلام نادراً ما واجه معارضة في ولاية العهد التي قبلها. وكان الأعمّ الأغلب يرىٰ أنّ هذا المنصب هو دون منصب الإمامة، وهو كذلك فعلاً وبكثير.

السلطان

وهو أبرز الألقاب بعد لقب الرضا، وقد ورد في الزيارة الشريفة خاصّته: «**السلام عليك أيها السلطان علي بن موسى الرضا**». ونجد هناك إصراراً من البعض على هذا اللقب مع أنه لا يعني شيئاً له عليه السلام، فمروان بن الحكم صار سلطاناً، وكذلك يزيد صار سلطاناً، وكذلك أمثالهما. فالإمام عليه السلام لا يزيده شيئاً كونه سلطاناً؛ فيكفي أن يقال عنه: الرضا، الوفي، الصابر، وغيرها من الألقاب الدينية الشريفة، ومثل هذا اللقب لا يقدم شيئاً للإمام عليه السلام ولا يؤخّر عنه شيئاً.

المزايا المجعولة والمنجعلة

إن العلماء يقسمون المزايا إلى قسمين: مجعولة ومنجعلة، وهذا اللقب داخل ضمن المزايا المجعولة. وسنجمل هذه المزايا بالآتي:

المزايا المجعولة

وهي المزايا التي تأتي من خلع أحد على أحد آخر لقباً من قبيل وزير أو قائد أو عقيد، أو غير ذلك من ألقاب السلطة. وهذه الألقاب (المزايا) مرتبطة عادة بالمهنة، فإذا أُبعد الملقّب بها عن منصبه فقد ذلك اللقب وذهب عنه، وإن كان البعض يستمرّ معه لقبه، لكن تجوّزاً وليس حقيقة؛ لأنّه لقب مجعول ينفك عن صاحبه بمجرد تركه داعيه أو السبب له وهو المنصب أو المهنة.

المزايا المنجعلة

أما المزايا المنجعلة، فهي المزايا التي تعدّ من الملكات الروحية التي لا تنفك عن صاحبها ولا تفارقه، ولا يمكن أن يسلبه أحد إيّاها. وذلك مثل لقب عالم أو إمام حقّ، فلا يمكن أن يقول أحد أنّ فلاناً بعد موته لا يمكن أن يسمىٰ عالماً أو الإمام كذلك، يقول الشاعر:

إن الأمـــير هـــو الذي ... يُمسي أميراً يوم فَصلهْ
إن زالَ سُـــــلطانُ الولا ... يةِ لم يَزُل سُلطانُ فضلهْ

إذن الفضل والعلم من الصفات الملازمة للإنسان ولا يمكن أن ينفكّا عنه.

وهذا ما ينطبق على الإمام الرضا﵇؛ فليس شيئاً ذا شأن أن يقال عنه: سلطان ـ كما مرّ ـ وهو لقب مجعول. فصفاته الشريفة الأُخرى وألقابه الكريمة المنجعلة أحقّ أن يوصف بها وأن ينعت ويلقّب؛ لأنّها مشتقّة من ذاته الشريفة المباركة، أمّا لقب السلطان فهو لقب يمقته الإمام﵇؛ لأن الظروف السياسية وضعته أمام الأمر الواقع، وأدّت به إلى قبول هذا اللقب، وليس عن رضا نفس أو قناعة به. فهو لقب ـ كما مر ـ لا يقدم ولا يؤخّر في حقّ الإمام﵇.

ثم إنه صحيح أنّ بعض الناس يرفع من قدره السرير لكن البعض الآخر لا يؤثر فيه السرير رفعة ولا مقاماً؛ لأنّه بلغ الغاية القصوىٰ والشأو الأبعد في الكمال والمنزلة. سئل أحمد بن حنبل بعد أن طال النقاش عنده حول أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته، فقال: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة»[1]. وهنا يخاطبه أحد الأدباء بقوله:

إنــي أتـيتُك أجـتليك وأبـتغي	وِرداً فـعندك للـعطاش مـعينُ
وأغضُّ من طرفي أمام شوامخٍ	وقـع الزمـان وأُسُّـهُنَّ مـتينُ
وأراك أكـبرَ مـن حـديث خـلافةٍ	يسـتافُها مـروانُ أو هـارونُ
لك بـالنفوس إمـامةٌ فـيهونُ لو	عصفت بك الشورى أو التعيينُ
فـدع المـعاول تـزبئرّ قسـاوة	وضـراوة إن البـناء مـتينُ[2]

إذن أهم ألقاب الإمام عليه السلام هو الرضا، وهو أشهرها وأحبّها إلى نفسه الكريمة.

المبحث الثالث: النص على إمامته

نشأ الإمام عليه السلام في كنف والده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ورعايته الكريمة، وترعرع تحت عينه الشريفة، وقد نصّ عليه الإمام عليه السلام بأنه الإمام من بعده، يقول داود الرِّقّي: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام ـ يعني الإمام الكاظم عليه السلام ـ: جعلت فداك، إني قد كبر سنّي، فخذ بيدي من النار. إنه عليه السلام يقول له عليه السلام: قد كبرت سنّي، ولست أعلم متى أُغادر هذه الدنيا، وإني أرجو لك من الله العمر المديد، لكن خذ بيدي وضعها على من يلي هذا الأمر الشريف من بعدك. فأشار عليه السلام إلى ابنه أبي الحسن عليه السلام وقال:

---

(١) الهداية الكبرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦، تاريخ بغداد ١: ١٤٥.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

«هذا صاحبكم من بعدي»[(١)].

وعن النصر بن قابوس قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: إني سألت أباك عليه السلام: من الذي يكون من بعدك؟ فأخبرني أنك أنت هو فلمّا توفّي أبو عبد الله عليه السلام ذهب الناس يميناً وشمالاً، وقلت فيك أنا وأصحابي، فأخبرني: من الذي يكون من بعدك من ولدك؟ فقال عليه السلام: **«ابني فلان»**[(٢)].

شرط العصمة في الإمام عليه السلام

إذن كان الإمام الكاظم عليه السلام ينصّ على أنّ عليّاً الرضا عليه السلام هو الإمام من بعده، ويؤكّد على تعيينه من بعده؛ لأنّ الأُمور التي تعرف بها الإمامة وتدلّ عليها لا سبيل إلى معرفتها إلّا من اللّه، ومن جملتها العصمة، يقول تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[(٣)]، إذن كيف نعرف الصادق من غيره؟ إنّ العصمة الشريفة أمر خفي، ولذا كان لا سبيل إلى الاستدلال بها إلّا من قبل المعصوم؛ فالنبي صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين عليهما السلام والأئمّة عليهم السلام من بعده، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام[(٤)]، وهكذا.

إذن فنحن إنما نشترط العصمة في الإمام؛ لأنّ اللّه تعالى أمرنا بإطاعة أُولي الأمر، فإذا كان ولي الأمر غير معصوم فمعناه أن من الممكن أن يشرب هذا الولي

---

(١) الكافي ١: ٣١٢ / ٣، الإرشاد ٢: ٢٤٨، الغيبة (الطوسي): ٣٤ / ٩.

(٢) الكافي ١: ٣١٣ / ١٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٠ - ٣٩ / ٢٦.

(٣) التوبة: ١١٩.

(٤) لأنهم ممّن نصّ عليهم رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن ينصّ عليه النبي صلى الله عليه وآله فهو أهل لأن ينصّ على غيره؛ لأنّه صلى الله عليه وآله لا ينص إلّا على من هو أهل لذلك؛ فلا يكذب ولا يخون ولا يفعل أي قبيح.

الأمرَ الخمر، وأن يزني وأن يقتل بغير وجه حقّ وينحرف[١]، ولازم هذا أنّ اللّه يأمرنا المعصية وبإطاعة من يعصيه، وهذا لا يمكن أن يكون بحال أبداً. وعليه فإنه لا يمكن أن يرضى اللّه لعباده المعصية ولا يمكن أن يأمرهم بإطاعة من يعصيه[٢]. وهذا هو الذي حدا بنا إلى اشتراط العصمة في الإمام؛ لأنّ المعصوم لا يعصي اللّه قط، ولا يقدم على سفك الدم إلّا بالأدلّة والأُصول؛ لأن سفك الدم عظيم عند اللّه تعالىٰ: **«لأن تزول السماوات والأرض أهون عند الله من قطرة دم حرام تسفك»**. ونحن بهذا نريد أن نضمن مسألة التقيّد بما رسم اللّه تعالى وبما أمر عن طريق العصمة.

شرط العدالة في الحاكم

وقد يقول قائل: ليكن شرط العدالة هو المأخوذ في الحاكم دون شرط العصمة، فالمسلمون جميعاً يشترطون عدالة الحاكم أو الإمام.

ونقول: أين هي العدالة التي يُتكلّم عنها؟ ألم تكن الدماء تسفك لأتفه الأسباب، بل دون سبب أحياناً[٣]؟ دخل خالد وجنده على مالك بن نويرة وأصحابه في ليلة

---

(١) كما هو شأن الكثير ممّن يدّعون أنهم ولاة الأمر، كخلفاء بني أُميّة وبني العبّاس، وغيرهم.

(٢) وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

(٣) كما هو شأن سمرة بن جندب الذي قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص ولم يفرّق ويميّز بين الخارجي والمسلم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦. ونقول له: وأنت إلى أين يعجّل بك؟

وكما هو شأن مسرف بن عقبة وما فعله بأهل مدينة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

ظلماء وقتلوهم غيلة وغدراً، وأعرس هو بزوجة مالك ليلة مقتله دون عدّة ودون وجه حقّ في قتلهم [١]، ثم يُراد بنا أن نلقي عقولنا أرضاً ونلغيها ونصدق ما يبرّر به كل فعل مخالف للسنة ومنافٍ للعدالة [٢].

فقولنا بعصمة الإمام هو قول نابع من حاجة الحياة إلى ذلك؛ لأنّها لا تستقيم ولا تصلح اُمورها ما لم يكن الإمام والحاكم معصومين. والقول باشتراط العصمة هو ضمان لاستمرار سيرة الحكم والحاكم والمحكوم على العدل والاستقامة.

المبحث الرابع: نشاطاته ﵇ في الحياة العامّة والخاصّة

ذكرنا أنّ الإمام ﵇ نشأ وربي في حجر والده الإمام الكاظم ﵇، فكان أن نال أحسن تربية وحاز أعلى القيم والمثل والمبادئ. وهذا ما كان له دور كبير في تحديد شخصيّته المستقبلية (سلام الله عليه وعلى آبائه وأبنائه)؛ حيث أدّىٰ ما عليه من رسالة على أتمّ وجه.

نشاطه العلمي في المدينة المنوّرة

كان الإمام ﵇ في المدينة المنوّرة يتصدّىٰ لنشر العلم على طريقة آبائه وأسلافه ﵈؛ حيث إنه ﵇ يأخذ مجلسه في المسجد أو في بيته، ويفد عليه الوافدون ليتزوّدوا من علمه ويستنيروا بهداه وفكره. والمؤرخون حينما يتناولون شخصية الإمام الرضا ﵇ يذكرون له مواقف علمية عدّة في هذا المجال، ويروون عنه أنه ﵇ ما سئل عن مسألة لم يجب عنها قط.

---

(١) بشهادة عمر بن الخطاب، حيث قال له: قتلت امرأ مسلماً ونزوت على زوجته! لأرجمنك بأحجارك. المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) كقول أبي بكر: لا أشيم سيفاً سلّه الله على أعدائه؛ إنه اجتهد فأخطأ. المصدر نفسه.

من أجوبته عليه السلام وأقواله المأثورة

مراحل الإفتاء والاجتهاد

وكانت أجوبته عليه السلام كلها انتزاعات من القرآن الكريم، وهو ما يسمّى بمرحلة الفتوىٰ مع النصّ، ذلك أنّ الإفتاء أو الاجتهاد مرّ بعدة مراحل هي:

الأولى: مرحلة النص القريب

وهي مرحلة يكون فيها المفتي أو المشرّع قريباً من النصّ، أو يكون النص قريباً منه، كأن يسأل سائل في زمن النبي الكريم صلى الله عليه وآله: هل يجوز الأكل في شهر رمضان بعد شروق الشمس؟ فيأتيه الجواب: لا؛ لأن القرآن الكريم يقول: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾**[1]؛ فهذا النصّ موجود، ومعناه واضح وقريب جداً إلى الأذهان؛ فيأتي الجواب مباشرة حول مثل هذا السؤال.

الثانية: مرحلة الفتوىٰ مع النصّ

وهذه هي المرحلة التي كانت في زمن الأئمّة عليهم السلام، والتي تطوّر فيها الاجتهاد نوعاً ما، حيث إن المعصوم عليه السلام ينتزع فيها الحكم أو الجواب من القرآن الكريم انتزاعاً.

جوابه عليه السلام لمن نذر أن يتصدق بأموال كثيرة

سأله رجل أنه نذر إن عوفي من مرضه أن يتصدّق بمال كثير، فما هو حدّ المال الكثير؟ فقال له عليه السلام: **«تصدّق بثمانين درهماً»**. فقال الرجل: وما الدليل على هذا؟

---

(١) البقرة: ١٨٧.

قال ﵇: «**إن الله عز وجل يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[١]، فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين**»[٢].

فالإمام هنا انتزع الحكم والجواب من القرآن الكريم مباشرة، أي أنّ الإمام﵇ ليس بحاجة إلى استخدام الأدوات الفقهية لاستنباط الحكم الشرعي، وإنّما يأخذ الحكم مباشرة من الكتاب العزيز.

المأمون يجمع له علماء دار الخلافة

وهكذا كان الإمام﵇ يجلس متصديّاً لأسئلة الناس، حتى إن المأمون جمع له جماعة من علماء الأديان ليناظروه، وراحت الأسئلة تنهال على الإمام﵇، فأجابهم جميعهم، حتى إن المؤرّخين يقولون: ما تلكّأ في جواب قط. وهكذا كان﵇ يتصدّىٰ للإجابة على جميع الأسئلة الفقهية وغير الفقهية.

جوابه عمن سأله عن معنى الجواد

وقف أحدهم للإمام﵇ في الطواف وقال له: من الجواد؟ فقال﵇: «**إن لكلامك وجهين: فإن كنت تسأل عن المخلوقين، فإن الجواد الذي يؤدّي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع؛ لأنه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإن منعك منعك ما ليس لك**»[٣].

ذلك أنّ الله تعالى عندما يمنع عطاءه عن بعض الناس فإنما يمنعه لمصلحة

---

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) الكافي ٧: ٤٦٣ - ٤٦٤ / ٢١، وفيه أنها بين المتوكل والهادي﵇.

(٣) مشكاة الأنوار: ٤٠٧، تحف العقول: ٤٠٨.

اقتضتها حكمته وارتأتها مشيئته، كأن يريد أن يربيهُ؛ فبعض النـاس إذا أُعـطي أفسد. ونحن نخاطب اللّه عزّ وجلّ في دعاء الافتتاح فنقول: «ولعل الذي أبـطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأُمور»[١].

ولأُقرب لك المعنى بأن أروي لك الحادثة التالية: كان أحـد الصـحابة ثـقيل السمع، وكان من الفقراء، وكان يحرص على أن يجلس إلىٰ جانب النـبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ كيلا يفوته شيء من كلامه، وكان قيس بن ثابت من وجهاء الأنصار، وقد دخل يوماً علىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشقّ طريقه إليه كي يجلس إلىٰ جانبه ويستمع إليه أيضاً، وكان يظن أن هذا الفقير سوف يتنحّىٰ له عن مكانه ويتركه من أجله؛ لأنه يظن أنه أفضل منه باعتباره غنياً ووجيهاً، وهذا من عائلة فقيرة، لكنه لم يفعل؛ اعـتزازاً بقرب مكانه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له قيس: يابن فلانة، أقف عليك ولا تقوم؟

فآذت هذه الكلمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن العرب كانوا يقصدون من تسمية الشخص باسم أُمّه في مثل هذه المواقف تحقيراً له، فلما فرغ صلى الله عليه وآله وسلم من كلامه ناداه فأقبل، فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: **«انظر، ماذا ترىٰ في المـجلس؟»**. قـال: أرىٰ الأحـمر والأبـيض والأسود. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنك لا تفضل علىٰ أحد مـنهم إلّا بـالتقوىٰ والعـمل الصالح»**. فقال: يا رسول اللّه أخطأت، وسأُعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الرجل الأوّل وقال له: **«سمعت ما قال أخوك، هل تـرضىٰ عنه ويعطيك نصف أمواله؟»**. قال: روحي فداك، بل أرضىٰ عنه من غير هذا. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«لماذا؟»**. قال: أخشىٰ أن يدخلني ما دخله[٢].

---

(١) مصباح المتهجد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

(٢) الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨، ولم يسميا قيساً.

وهذا هو موضع الشاهد، وهو أنّ الإنسان حينما يمتلك ثروة أحياناً فإنّه يطغىٰ في الأرض ويفسد، وقد تقضي على أخلاقه التي هي أهم من الثروة بالنسبة للرجل، لكن الأخلاق تبقىٰ ميزة متصلة بالإنسان لا تبتعد عنه.

إذن كان الإمام عليه السلام يقول: إنّ اللّه تعالى جواد سواء أعطىٰ أو منع؛ لأنّه لا يريد من وراء عطائه أو منعه مصلحة ما، وأجوبته عليه السلام كلها من هذا النوع. وكان عليه السلام يستشهد بما يرويه عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«قال الله عز وجل: ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي، وما عرفني من شبّهني بخلقي»**[1].

فالقرآن الكريم لا يمكن أن يفسّر بالرأي؛ لأنّ التفسير بالرأي بإجماع المسلمين باطل، أمّا التفسير القائم على أساس الوسائل العلمية فهو تفسير مقبول ولا بأس به.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالىٰ: **«ما على ديني من استعمل القياس في ديني»**[2].

يعني بهم هؤلاء الذين يستعملون القياس دون أن يكون مستنداً إلى علة معروفة صحيحة. ومثال ذلك أن يعمد أحد إلى قياس مقاربة الأهل في شهر رمضان على تعمّد الأكل والشرب فيه أو بالعكس؛ بحجّة أنّهما كليهما من المفطّرات المنهيّ عنها والمبطلة للصوم. وهذا القياس باطل بالضرورة ومخطوء وغير مقبول؛ لأنّ اللّه عزّ وجلّ فرّق بين المتساويات وساوىٰ بين المتفرقات.

ولتوضيح هذا الأمر نقول: إنّ اللّه تعالىٰ جعل من نواقض الوضوء النوم والذهاب إلى الحمام (التخلّي)، وهما أمران متباينان لكنه تعالىٰ جمع بينهما،

(١) التوحيد: ٦٨ / ٣٢، الأمالي (الصدوق): ٥٥ - ٥٦.
(٢) المصدر نفسه.

وكذلك لو سرق أحد ربع دينار من حرز فإنّ يده تقطع[١]، لكن إذا غصب أرضاً قيمتها مئة ألف دينار فإن يده لا تقطع، ويكون له حكم آخر[٢]، والحال أنّ هاتين الحالتين متساويتان، لكن اللّه تعالى فرّق بينهما، إذن القياس لا يجري دائماً.

وقد ناقش الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة في القياس نقاشاً عسيراً[٣].

الجوانب الأخلاقية في حياة الإمام عليه السلام

وعلى العموم كان الإمام عليه السلام يتصدّىٰ دائماً إلى الإجابات العلمية، وكانت الأسئلة تنهال عليه، وكان يوزّع وقته بين الإجابة على الأسئلة العلمية وبين

---

(١) المقنع: ٤٤٤، الأم ٤: ٣١١، ٦: ١٥٩. (٢) المراسم العلويّة: ٢٦٠.

(٣) علل الشرائع ١: ٨٦، الأمالي (الشيخ الطوسي): ٦٤٥، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٦، أخبار القضاة (محمد بن خلف بن حيان) ٣: ٧٨. وذلك أن أبا حنيفة دخل على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: «يا أبا حنيفة، بلغني أنك تقيس». قال: نعم أنا أقيس. قال عليه السلام: «اتق الله ولا تقس؛ فإن أول من قاس إبليس حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢. فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نوريّة آدم بنوريّة النار عرف الفضل ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر. ولكن قس لي رأسك: أخبرني عن الملوحة في العينين، وعن المرارة في الأُذنين، وعن الماء في المنخرين، وعن العذوبة في الشفتين، لأي شيء جعل ذلك؟». قال: لا أدري. قال: فأنت لا تحسن أن تقيس رأسك، فكيف تقيس الحلال والحرام؟». قال: يابن رسول الله، أخبرني ما هو؟ قال عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ خلق العينين فجعلهما شحمتين، وجعل الملوحة فيها ضنّاً منه على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا فذهبتا. وجعل المرارة في الأُذنين ضنّاً منه عليه، ولولا ذلك لهجمت الدوابّ فأكلت دماغه. وجعل الماء في المنخرين ليصعد التنفس وينزل ويجد منه الريح الطيبة من الريح الرديئة. وجعل العذوبة في الشفتين ليجد ابن آدم طعم لذّة مطعمه ومشربه».

ثم قال عليه السلام له: «أيما أعظم عند الله قتل النفس أو الزنا؟». قال: لا، قتل النفس. فقال له عليه السلام: «إن الله عز وجل قد رضي في قتل النفس بشاهدين، ولم يقبل في الزنا إلّا بأربعة. أيما أُعظم عند الله الصوم أم الصلاة». قال: لا، بل الصلاة. فقال عليه السلام: «فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة؟».

الإجابة على غيرها من الأسئلة. وإضافة إلى هذا كان بيته مأمناً للخائف، وكانت داره مرتاد الوّفاد. يقول الغفاري: كان لرجل من آل أبي رافع ـ ورافع هذا كـان مولى رسول الله ﷺ، وكان منهم كاتب عند أمير المؤمنين ﵇ ـ علي حقّ، فألح عليّ في الطلب، فأتيت الرضا ﵇، وقلت له: يابن رسول اللّه؛ إن لمولاك فـلان عليّ حقّاً، وقد شهرني.

يقول: وكنت آمل أنه يرسل خلفه من يأتيه به، وأمره بأن يخفّ طلبه ماله مني قليلاً، حتى ييسّر الله لي، لكنه ﵇ طلب مني أن أنتظره في مكاني، ثم ذهب ولم يعد إليّ إلّا عند المغرب، وكنت صائماً، وقد أحسست بالجوع. فلمّا جاء قال لي: **«لعلك لم تأكل»**. فقلت: نعم. فأخذني معه إلى منزله، ثم أمرني بالجلوس على الوسادة، فلما أكلنا وفرغنا قال: **«ارفع الوسادة وخذ ما تحتها»**. فـرفعتها فـإذا بدنانير تحتها، فأخذتها، وأمر غلمانه بأن يوصلوني إلى بـيتي، فـطلبت مـنه أن أُرجعهم من مكان معلوم، ولمّا سألني السبب، أجبته بأني أخشى الوالي، فقبل.

فلمّا أتيت المنزل نظرت إلى الدنانير فإذا هي ثمانية وأربعون ديـناراً، وفـيها دينار يلوح، منقوش عليه: **«حق الرجل عليك ثمانية وعشرون ديناراً، وما بقي فهو لك»**. ووالله لم أكن قد عرّفت ماله عليّ على التحديد[1].

وهذا كان ديدن الإمام ﵇ ـ ومن قبله طريقة آبائه وأجداده ﵈ ـ سواء فـي خراسان أو في أيام مكثه في المدينة المنوّرة؛ فهو ﵇ معروف بـعطائه المـعنوي والمادّي والأخلاقي. يروي أحد المؤرّخين عن إبراهيم بن العباس أنه قال: «ما رأيت أبا الحسن الرضا ﵇ جفا أحداً بكلمة قطّ، ولا رأيته قطع على أحد كـلامه

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٦، بحار الأنوار ٤٩: ٥٩ / ٧٦.

حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجله بين يدي جليس له قطّ، ولا اتّكأ بين يدي جليس قطّ، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قطّ، ولا رأيته بصق ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسّم. وإذا خلا ونصب مائدته أجلس معه عليها مماليكه ومواليه، حتى البوّاب والسائس.

وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أوّلها إلى الصبح، وكان كثير الصيام، فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول: «**ذلك صوم الدهر**». وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقه»[1].

فهذا الخلق العالي، وهذه التربية النبيلة السامية، وهذا الأُسلوب الكريم هو شأن أئمّة أهل البيت النبوي المطهّر عليهم السلام، فهم في حركاتهم وسكناتهم، وفي كلامهم وسكوتهم مادّة حيّة للدرس الأخلاقي والمعنوي والوعظي والإرشادي. وكان عليه السلام يقول: «**إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أُمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت**»؛ لأنه يترك هذه الدنيا الواسعة إلى قبر ومجموعة من الأحجار والصفائح، يقول الشاعر:

ومسنَّدين على الجُنوب كأنهم	شِرب تخاذل بالطلا أَعضاؤهُ
تحت الصعيد لغير إشفاق إلىٰ	يوم المعاد يضمّهم أحشاؤهُ
أَكلتهُمُ الأرضُ التي ولدتْهُمُ	أكلَ الضَّروس حلت له أُكلاؤهُ[2]

ويتابع عليه السلام موعظته فيقول: «**فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً**

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٧ - ١٩٩ / ٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤.

لم يرها في دار الدنيا. و قد سلّم الله عزّ وجلّ على يحيى عليه السلام في هذه الثلاثة المواطن، و آمن روعته، فقال: ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[١]، وقد سلّم عيسى بن مريم عليه السلام على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[٢]...»[٣]. وقد صوّر الله تعالى حال هؤلاء بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٤].

فهو عليه السلام يقول: إنّ الإنسان أوحش ما يكون في هذه المواطن، ولذلك فإن الله سلّم على أنبيائه فيها

فكان الإمام عليه السلام يغتنم الفرص للدرس الأخلاقي والدرس الاجتماعي والدرس العلمي بفروعه كافّة، وكانت حياته عامرة بالتقوى، زاخرة بالإيمان، وكان لسانه يلهج بذكر الله، ويده متمرّسة بالعطاء، وروحه منفتحة عليه.

المبحث الخامس: الإمام عليه السلام وخلفاء عصره

لقد عاصر الإمام عليه السلام الفترة الأخيرة من خلافة الرشيد، ثم خلافة ابنه محمد الأمين، وكانت ثلاث سنوات وخمسة وعشرين يوماً، ثم خلع الأمين وأُجلس عمّه إبراهيم بن شكلة، وكانت بيعته أربعة عشر يوماً، عاد محمد بعدها إلى الحكم حيث أُخرج من الحبس وبويع له ثانية، وجلس في الملك سنة وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ثم قتله طاهر بن الحسين الخزاعي وزير عبد الله المأمون الذي استلم الحكم بعده، والذي استشهد الإمام عليه السلام في عصره كما سيمرّ علينا[٥].

---

(١) مريم: ١٥.
(٢) مريم: ٣٣.
(٣) بحار الأنوار ٦: ٥٨ / ١٨.
(٤) يس: ٥٢.
(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨ - ٢٩.

من مغيّـباتهعليه السلام

إخبارهعليه السلام من رأىٰ رؤيا فيه أنه سيدفن في طوس

كانعليه السلام يخبر أصحابه بأنّه سيُستدعى إلى خراسـان وأنـهعليه السلام سـيدفن فـيها، جاءهعليه السلام رجل من أهل خراسان وقال له: يابن رسول اللـه، لقـد رأيت رسـول اللهصلى الله عليه وآله في المنام كأنه يقول لي: «كيف أنـتم إذا دفـن فـي أرضكـم بـضعتي، واستحفظتم وديعتي، وغيّب في ثراكم نجمي؟». فقال له الرضاعليه السلام: **«هل وعيت ما قاله النبيصلى الله عليه وآله؟»**. قال: لا يابن رسول اللّه. فقالعليه السلام **«أنا المدفون في أرضكم، وأنا بضعة نبيّكم؛ فأنا الوديعة والنجم. ألا ومن زارني وهو يعرف ما أوجب الله تبارك وتعالى من حقّي وطاعتي، فأنا وآبائي شفعاؤه يوم القيامة، ومن كنّا شفعاءه نجا ولو كان عليه مثل وزر الثقلين: الجنّ والإنس. ولقد حدثني أبي عن جدّي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: من زارني في منامه فقد زارني لأن الشيطان لا يتمثّل في صورتي، ولا في صورة أحد من أوصيائي، ولا فـي صـورة أحـد مـن شيعتهم، وأن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة»**[1].

إخبارهعليه السلام دعبلاً بذلك وإنشاده فيه شعراً

ولذلك فإنّهعليه السلام حينما دخل دعبل بن علي الخزاعيرحمه الله عليه بمرو قال له: يابن رسول الله، إني قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي ألّا أُنشدها أحداً قبلك. فقالعليه السلام: **«هاتها»**. فأنشدها:

مدارس آيات خلت من تـلاوة ... ومنزل وحي مقفر العـرصاتِ

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ٢٨٧ - ٢٨٨/ ١١.

فلمّا بلغ إلى قوله:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً وأيديهُمُ من فيئهم صفراتِ

بكى عليه السلام وقال: «**صدقت يا خزاعي**». فلمّا بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدّوا إلى واتريهُمُ أكفّاً عن الأوتار منقبضاتِ

جعل عليه السلام يقلّب كفّيه وهو يقول: «**أجل والله منقبضات**». فلمّا بلغ إلى قوله:

لقد خفت في الدنيا وأيّام سعيها وإنّي لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال عليه السلام له: «**آمنك الله يوم الفزع الأكبر**». فلما انتهى إلى قوله:

وقبر ببغداد لنفس زكيّة تضمّنه الرحمن في الغرفاتِ

وقبر بأرض الجوزجان محلّه وقبر بباخمرى لدى الغرباتِ

قال عليه السلام له: «**أفلا أُلحقُ لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك؟**». فقال: بلى يابن رسول الله. فقال عليه السلام:

«وقبر بطوس يا لها من مصيبة توقّد في الأحشاء بالحرقاتِ

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرّج عنا الهمّ والكرباتِ»

فقال دعبل: يابن رسول الله، هذا القبر الذي بطوس قبر من هو؟ فقال عليه السلام:

«**قبري، ولا تنقضي الأيّام والليالي حتى تصير طوس مختلف شيعتي وزوّاري في غربتي، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له**»[1].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤ / ٣٤، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٣ - ٣٧٦، دلائل الإمامة: ١٨٢، إعلام الورى: ٢٣٠.

المأمون يأمر باستدعاء الإمامعليه السلام من المدينة المنوّرة

فالإمامعليه السلام كان يشير إلى ذلك المعنى الذي ذكرنا، وفعلاً استدعاه المأمون من مدينة جدّه رسول اللّهصلى الله عليه وآله سنة (٢٠١)هـ ـ أي قبل وفاته الشريفة بسنتين وأشهر ـ حيث كان قد بعث الجلودي خلفه.

والجلودي هذا له مواقف شائنة وقاسية مع عائلة الإمام موسى الكاظم وعائلة الإمام الرضاعليهما السلام من بعده، وكان من أقسىٰ القوّاد، وصاحب تاريخ إجرامي مؤلم مع أهل البيتعليهم السلام، وقد أحرق دور آل محمدصلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة، وجاء إلى دار الإمام الكاظم وهو في السجن فأشعل فيها النار بأمر من الرشيد حيث إنه لما خرج محمد بن جعفر بن محمد بالمدينة بعثه الرشيد إليه وأمره أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل رسول اللهصلى الله عليه وآله، وأن يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهن إلّا ثوباً واحداً.

ففعل الجلودي ذلك، فخرج الإمام الرضاعليه السلام يتخطّىٰ النار ويقول: **«أنا ابن إبراهيم خليل الله، أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن محمد حبيب الله، أنا ابن عيسى روح الله»**. حتى أطفأها، ولمّا نظر إليه الرضاعليه السلام جعل النساء كلّهن في بيت، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسنعليه السلام: لابدّ من أن ادخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين. فقال الرضاعليه السلام: **«أنا أسلبهن لك، وأحلف أني لا أدع عليهن شيئاً إلّا أخذته»**. فقبل، فدخل أبو الحسن الرضاعليه السلام، فلم يدع عليهن شيئاً ـ حتى أقراطهن وخلاخيلهن وأزرارهن ـ إلا أخذه منهن وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير، فأعطاه إياه[1].

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ١٧١ ـ ١٧٣.

الموقف الإنساني للإمام ﵇ مع الجلودي

والجلودي هذا على الرغم من إجرامه وبغضه لآل البيت النبوي الطاهر وشنآنه لهم كان للإمام الرضا ﵇ بعد ولايته العهد موقف مشرّف معه، ذلك أنّ الجلودي أُدخل يوماً على المأمون وكان قد حبسه مع اثنين آخرين؛ لأنهم نقموا عليه أخذه البيعة للرضا ﵇، ولم يرضوا به. وفي اليوم التالي دعا المأمون بهؤلاء النفر فأُخرجوا من الحبس وأُدخلوا عليه، فأمر بقتلهم، وحينما جاء دور الجلودي وأُدخل على المأمون قال الرضا ﵇: «**هب لي هذا الشيخ**». وتشفّع له عنده، فقال المأمون: هذا الذي فعل ببنات محمد ﷺ ما فعل من سلبهن!

فلمّا نظر الجلودي إلى الرضا ﵇ وهو يكلّم المأمون، ويسأله عن أن يعفو عنه ويهبه له، ظن أنه إنما يعين عليه لما كان فعله به وبعياله، فقال: يا أمير المؤمنين ،أسألك بالله وبخدمتي الرشيد ألّا تقبل قوله فيّ. فقال المأمون: يا أبا الحسن، قد استعفى، ونحن نبرّ قسمه. ثم قال: لا والله، لا أقبل فيك قوله، ألحقوه بصاحبيه. فقدّم فضرب عنقه[1].

والجلودي هذا هو الذي بعث به المأمون لإحضار الإمام ﵇، مع ما هو عليه من حقد وبغض ونصب لآل بيت رسول الله ﷺ، فأحضره وأحضر معه مجموعة من آل أبي طالب؛ من جملتهم إسحاق ابن الإمام الصادق ﵇ (عم الإمام الرضا ﵇)، وحملهم آخذاً بهم على طريق البصرة، فلما صاروا إلى فارس لقيهم رجاء بن الضحّاك وتسلّمهم من الجلودي، وجاء بهم إلى مرو، فأنزلهم المأمون في دار وأنزل الإمام الرضا ﵇ في دار على حدة وأقبل عليه غاية الإقبال، ثم قال له

---

(١) المصدر نفسه.

يوماً: يابن رسول الله، إني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك، وأُبايعك. فقال له الرضا عليه السلام: **«إن كانت الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك»**.

فأصرّ المأمون وقال له: لا بد لك من قبول هذا الأمر. فقال عليه السلام: **«لست أفعل ذلك طائعاً أبداً»**. فلمّا يئس من قبوله قال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحبّ مبايعتي لك، فكن وليّ عهدي؛ لتكون لك الخلافة بعدي. فقال عليه السلام: **«والله لقد حدّثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله أني أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسمّ مظلوماً، تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأُدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد»**.

فبكى المأمون، ثم قال له: ومن الذي يقتلك، أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي؟ فقال الرضا عليه السلام: **«أما إني لو أشاء أن أقول من الذي يقتلني لقلت»**. فقال المأمون: إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس: إنك زاهد في الدنيا. فقال الإمام الرضا عليه السلام: **«والله، ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد»**. فقال له المأمون: وما أُريد؟ قال الإمام عليه السلام: **«تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟»**.

فقال: إنك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، فبالله أُقسم لابدّ من قبولك ولاية العهد. فقال عليه السلام: **«قد نهاني الله عزّ وجلّ أن أُلقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أني لا أُولّي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض**

رسماً ولا سنّة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً».

فرضي منه بذلك، وجعله ولي عهده [١].

وتم إعلان ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام، يقول أبو الصلت الهروي: وفي تلك السنة خُطب على المنابر باسم الإمام الرضا عليه السلام، ودُعي له، وضربت السكّة باسمه، وهي الدراهم المعروفة بالرضوية، وقام بين يديه الخطباء والشعراء، وخفقت الألوية على رأسه، فاستبشرت في ذلك اليوم، وقلت: حق من حقوق آل محمّد عليهم السلام عاد إليهم. فنظر إلي وانا مستبشر بما جرى، فأوما إليّ أن ادنُ، فدنوت منه، فقال لي من حيث لا يسمعه غيري: **«لا تشغل قلبك بهذا الأمر، ولا تستبشر؛ فإنه شيء لا يتمّ»** [٢].

يقول أبو الصلت الهروي: لما عزم المأمون على الذهاب إلى العراق والإمام معه، بدا لهم أن يدسّوا له السمّ، فدخل عليه رسول المأمون يستدعيه، فلما دخل عليه ناوله رمّاناً اعتصره بيده وكان قد دسّ فيه السم، أو عنقود عنب قد أكل نصفه وقد كان شرّبه بالسم، وقال للرضا عليه السلام: حمل إليّ هذا العنقود، فاستطبته، فأكلت منه وتركت هذا لك. فقال عليه السلام: **«أو تعفيني من ذلك؟»**. قال: لا والله، فإنك تسرّني بما تأكل منه. فاستعفاه الإمام عليه السلام ثلاث مرات فلم يقبل منه،فأخذ عليه السلام منه ثلاث حبات فأكلها، فلمّا أحسّ عليه السلام بالسمّ يسري في بدنه، غطّى رأسه ونهض من عنده.

ولما أتى عليه السلام بيته دخل حجرته، وامتدّ على فراشه وهو يتألّم من حرارة السمّ، وأحسّ عليه السلام به يسري في بدنه، ومرّت به ساعات يمتزج فيها الألم بالشعور بالغربة والبعد عن الأهل، وفي الساعة التي دنا فيها أجله جلست عنده، ثم طلب مني أن

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٢٥ - ١٢٨ / ١١٥.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٣، الخرائج والجرائح ١: ٣٥٢ - ٣٥٩.

أُسجّيَه إلى القبلة، فأسبل يديه ورجليه وفاضت روحه الطاهرة.

وإذا المأمون قد وافى، وهرع الناس كلاً ينادي: واسيّداه، واإماماه. وتصدّر المأمون تشييعه حتى جاؤوا به إلى قبره[1].

ونقول: لكن جدّه الحسين عليه السلام لم يشيّعه أحد، ولم يدفن لساعته، وقفت الحوراء زينب عليها السلام بعد وقعة الطف في اليوم العاشر من المحرّم وتلفّتت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟». يروي أبو الصلت فيقول: أمرني الرضا عليه السلام أن أُسرج في موضع غسله. ويعلله البعض بأن الروح تعود إلى موضع الجسد؛ فإن رأته مظلماً استوحشت، ولست أدري هل أسرجت الحوراء ليلة الحادي عشر من المحرّم مكان إخوتها وأبناء عمومتها أسرجة، أم بقيت مصارعهم مظلمة تلك الليلة، والأطفال يتصارخون في الظلماء؟

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها ... رُعباً غَداةَ عَليها خِدرَها هَجموا

عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختَلَفَت ... أيدي العدوِّ ولكن من لها بِهِمُ[2]

---

(١) انظر روضة الواعظين: ٢٢٦ / ٨.

(٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.



﴿١٥٦﴾

فكرة الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية

إلى الحشر حتى يبعث اللّـه قـائماً يـفرّج عـنا الهـمّ والكـرباتِ [1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: قضية الإمام المهدي في الفكر الإسلامي

لعل من الأُمور المهمّة التي تمتدّ على مساحة واسعة من الفكر الإسلامي، وتشغل بال الكثير من الكتّاب المسلمين، والتي دار حولها نقاش طويل وحادّ هي قضية الإمام المهدي عليه السلام. وهي من القضايا التي اختلفت فيها الآراء وكثرت حولها التفسيرات وسبل الأخذ والرد.

محاور البحث

ويمكن تلخيص هذه القضية على ضوء محاور أربعة هي:

الأوّل: هل إنّ روايات المهدي عليه السلام مختصة بالشيعة فقط كما توحي به كتابات البعض، أم إنّها من مرويّات المسلمين كافّة؟

الثاني: هل إنّ الإمام المهدي عليه السلام موجود فعلاً حالياً بناءً على القول بوجوده، وصحة الفكرة حوله، أم إنه سيولد بعد في زمان خروجه؟

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤ / ٣٤، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٣ - ٣٧٦، دلائل الإمامة: ١٨٢، إعلام الورى: ٢٣٠.

الثالث: على فرض وجوده، ما هي الجدوىٰ منه إذا كانت الأُمّة لا تستطيع أن تصل إليه وتتّصل به وتستفيد من علمه؟

الرابع: ما هو مردود فكرة الإمام المهدي عليه السلام؟ وهل هو مردود إيجابي يمكن أن ينتفع به الناس والمجتمع الإسلامي أم لا؟ وإذا كان المردود إيجابياً فما هو؟

سنحاول تلخيص النزاع في هذه المحاور؛ وهو نزاع مطوّل ذو شعب كثيرة، وقد تزامن مع أُخريات عصر الأئمّة عليهم السلام وبعد غيبة الإمام عليه السلام سيّما الغيبة الكبرىٰ. وكان هذا النزاع يمرّ بأدوار سجال تتراوح بين القوّة والضعف والشدّة والفتور، أي أنه يشتدّ في بعض العصور ويعنف ثم يأخذ صفة الاعتدال وهكذا.

لكن مع كل هذا يبقىٰ أصل الفكرة محل أخذ وردّ بين المسلمين.

المحور الأوّل: روايات المهدي في المدوّنات الإسلامية

إنّ الروايات المختصّة بالإمام المهدي عليه السلام والتي وصلتنا عبر التاريخ والكتب لم تكن عن طريق الشيعة أو الكتب الشيعية فقط، وإنما هي موجودة ومبثوثة في كتب المذاهب الإسلامية كافّة. وقد يستغرب البعض حينما يجدني أُقرّر أنّ روايات الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية هي أكثر منها عند الشيعة، ومن يظن أنّ الشيعة وحدهم من اختصّوا بهذا الموضوع واحتضنوه فهو لا يملك أدنى فكرة عن الموضوع ولا علم له به. ومن أراد أن يتحقّق من مصداقية هذا فبوسعه أن ينظر في كتب الحديث التي تناولت هذا الموضوع، وأقصد بها السنن والصحاح بأجمعها، فسيجد أنّها قد حفلت بروايات الإمام المهدي عليه السلام، مع اختلاف لسان الروايات فيها ومن ذلك قول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: **«أبشروا بالمهدي فإنه يبعث على اختلاف من الناس شديد، وزلازل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً**

وظلماً. ويرضى به ساكن السماء، وساكن الأرض، ويملأُ الله به قلوب عباده سروراً»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: **«المهديّ من نسل فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ـ طالت الأيام أو قصرت ـ يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»**[٢].

وروايات أُخرىٰ مثل **«المهديّ منّي»**[٣]. و**«المهديّ منّا أهل البيت»**[٤]. وغيرها من الروايات الكثيرة ذات الصيغ المختلفة والأساليب المتكثّرة، وكلها تصبّ حول فكرة الإمام المهدي عليه السلام.

وبهذا نلاحظ أنّ كتب المذاهب الإسلامية مشحونة بروايات هذا الباب، والتأكيد على وجوده وتكفير منكره، يقول ابن حجر حين سئل عمّن ينكرون خروج المهديّ المنتظر عليه السلام: «فهؤلاء المنكرون للمهدي الموعود به آخر الزمان، وقد ورد في حديث عن أبي بكر الإسكافي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: **«من كذّب بالدجّال فقد كفر، ومن كذّب بالمهديّ فقد كفر»**... ونملي عليك من الأحاديث المصرّحة بتكذيب هؤلاء وتضليلهم وتفسيقهم ما فيه مقنع وكفاية لمن تدبّره»[٥].

إنه يعتبر وجود الإمام المهدي عليه السلام ضرورة من ضرورات الدين لتواتر الروايات بذلك؛ بدليل أنه كفّر منكره؛ لأنّه يؤول إلى كونه منكراً لضرورة من ضرورات الدين، كما قلنا. وهذا طبعاً تقرير ناشئ عن كثرة الأحاديث أو الروايات التي

---

(١) كمال الدين: ٢٢، شرح الأخبار ١: ١٢٣، مسند أحمد ٣: ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٥٢، ٧٠، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.
(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٦٣.
(٣) مسند أحمد ٣: ٣١٠.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٦٥، عمدة القاري ١: ١١٣، تحفة الأحوذي ٦: ٤٠٣.
(٥) هوية التشيع (المحاضر): ١٨١ عن (الفتاوى الحديثية) لابن حجر.

عالجت هذا الموضوع وأثبتته. وعليه فلا يمكن القول: إنّ الشيعة وحدهم هم من يقول بالإمام المهدي عليه السلام أو أنّ كتبهم فقط هي التي تنقل الروايات التي تختصّ به والتي تعالج هذه القضية كفكرة متبناة عندهم.

المحور الثاني: هل إنّه عليه السلام موجود بالفعل أم أنه سيولد فيما بعد؟

وهذا المحور بالذات سيتضمّن الكلام على المحور الثالث كما سيأتي، وهو محور الخلاف بين الإمامية وبين بقية المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ الذين يقولون بأننا نسلّم بأن اللّه عزّ وجلّ سيبعث الإمام المهدي عليه السلام في الأرض فيملؤها قسطاً وعدلاً، ونسلّم بصحّة الروايات الواردة في ذلك لكننا لا نسلّم بوجوده الآن فعلاً.

إشكالات أهل السنة على وجود المهدي عليه السلام وأسبابها

وهذا الاعتقاد عندهم ناشئ من أنه يتضمّن عدة إشكالات تعود للأسباب التالية:

الأوّل: أنّ في وجوده عليه السلام خرقاً للعمر الطبيعي للإنسان

فهم يقولون: إنّ هناك معدّلاً طبيعيّاً للأعمار، وعمر الإنسان الطبيعي يجب ألّا يتجاوز معدّلاته المعروفة والمألوفة، وهي سبعون أوثمانون سنة. وهذا الإشكال يتضمّن أغلب الكلام على هذا المحور؛ لأنه إشكال مبتنٍ على أنّ المهدي عليه السلام هل هو موجود بالفعل أم لا؛ لأن وجوده بالفعل يستلزم خرق النواميس والعادات البشرية.

فإذا عاش الإنسان خارج هذا النطاق أو المعدّل فإنه يكون قد دخل ضمن النطاق غير المعقول للأعمار؛ خصوصاً إذا كان الخروج عن المعدّل خروجاً هائلاً جدّاً؛ حيث إنّ عمر الإمام المهدي عليه السلام الآن قد تجاوز الألف سنة بكثير. وعليه فإنّ

عمراً كهذا يكون خارجاً عن النظام الطبيعي المألوف بكل المعايير.

الثاني: عدم جدوى وجوده لعدم التمكن من الاتصال به

وهذا هو الإشكال الثاني أو السبب الثاني لعدم القول بوجوده حاليّاً؛ حيث إنّ الشيء الذي لا يمكن الاستفادة منه يكون وجوده كعدمه ـ أي عبثاً ـ وبما أننا لا نتمكن من الوصول إلى المهدي عليه السلام ولا نستطيع الاستفادة منه، والمفروض أن يكون الإمام على تماسّ مع الناس وأن يكون مصدر هداية. فإذن لا يمكن القول بوجوده فعلاً.

الثالث: أنّ الاعتقاد بوجوده إلغاء للتكاليف

وهذا الإشكال يمثل المحور الرابع من محاور بحثنا، وهو إشكال قائم على أن الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام كل هذا العمر الطويل والمدىٰ الواسع، ثم إنّه سيخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ـ أي أنه عليه السلام تناط به وحده مسؤولية تصحيح الأوضاع الشاذّة في الأرض، ومهمّة إقامة دولة العدل ـ معناه إلغاء التكاليف سيما وظيفتي الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا يعني شلّ حركة الأُمّة، لأنّها ستبقىٰ تنتظر الفرج على يديه.

الرابع: عدم صحة الاحتجاج بالغائب

وتقرير هذا الإشكال أنه كيف يصح القول بأنّ اللّه تعالى يحتجّ على العباد بإمام لا يرونه؟

مناقشة بعض هذه الإشكالات

وتكون الإجابة على هذه التساؤلات كالآتي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن

الإجابة على الإشكال الثاني ستكون موضوع المحور الثالث، ومناقشة الإشكال الثالث ستكون موضوع المحور الرابع من محاور بحثنا هذا:

مناقشة الإشكال الأوّل

وهو الإشكال الذي يقوم على التساؤل: هل إنّ الإمام المهدي مولود فعلاً ويعيش بيننا، أم إنه سيولد في أوان خروجه؟ وزمان إيذان اللّه تعالى له بذلك؟

أدلة وجود الإمام المهدي عليه السلام

الدليل الأوّل: رواية أنّ الأرض لا تخلو من حجّة

والجواب أنه مولود فعلاً ويعيش بيننا، والأدلّة على هذا كثيرة، منها قوله ﷺ: **«لا تخلو الأرض من حجّة»**[1].

والمقصود بـ«حجة» هنا هو من يمثّل النبي الأكرم ﷺ؛ لأننا لا نستطيع أن نجعل غير المعصوم حجّة فيما بيننا وبين اللّه تعالى[2]؛ إذ أنّ غير المعصوم تحتمل منه المعصية، وفي حال صدورها منه تسقط حجّيته، ولا يمكن اعتبارها فيه حينئذٍ. ولذلك فنحن الآن لا نعتبر قول الفقيه حجة لأنّه قول للفقيه، بل لأنّه ينقل النصّ الشرعي الذي هو قول اللّه تعالى أو النبي أو المعصوم عليه السلام أو يستنبط الحكم

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢/٤٥، ٢٣٤/١٩٣، ٢٣٦/٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨/١، ٤٨٩/٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦/٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧/١٧، ٥٠٩/٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥/باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠/باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) قال الإمام عليه السلام: «وان أئمتكم وفودكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم». قرب الأسناد: ٧٧، كنز الفوائد: ١٥٢.

منه؛ إذ أنّ الفقيه عندنا هو قناة لنقل الحكم من منبعه (المشرّع) إلى مصبّه (المتلقّي أو المكلّف). إذن إنّما تتمّ الحجّة بوجود المعصوم.

الثاني: رواية من «لم يعرف إمام زمانه»

ومن الأدلّة على وجود المهدي المنتظر عليه السلام حالياً هو قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: **«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»**[1] وهي رواية يرويها جمهور المسلمين[2]، فإذا كان إمام الزمان غير موجود، فكيف يمكن معرفته؟ وعليه فلابدّ من وجوده في كل عصر وزمان كي تمكن معرفته والإيمان به، ليخرج المسلم من ربقة ميتة الجاهلية.

ثم إنّ مسألة أن يعيش الإنسان كل هذه الفترة الطويلة ضمن النطاق الطبيعي هو أمر غير ممكن بأي حال من الأحوال ولا يمكن أن يكون؛ لأنّه خلاف العادة وخلاف الطبيعة البشريّة. ونحن لا نعدو هذه الحقيقة ولا نقول بخلافها لكننا في المقابل نتكلم ضمن النطاق الإعجازي، وحينئذٍ فلا مشكلة، وهذا له نظائر كالنبي نوح والخضر والنبي عيسى عليهم السلام.

وهذا بإجماع المسلمين، فكلّهم يقولون ببقاء هذين الأخيرين عليهما السلام حيين[3]. فالكلام إذا كان في حيّز المعجزة فلا إشكال حينئذٍ فيما يقع ذلك الكلام عليه. وهناك الكثير من المعجزات التي وصلت وخرقت العادة، وهي موجودة في كتب

---

(١) الإمامة والتبصرة (ابن بابويه): ١٥٢، كمال الدين: ٤٠٩ / ٩.

(٢) شرح المقاصد ٢: ٢٧٥، وذكر الشيخ الأميني في الغدير ١٠: ٣٦٠ أن الشيخ عليّاً القاري صاحب (المرقاة) حكاه في خاتمة الجواهر المضية ٢: ٥٠٩ عن (صحيح مسلم).

(٣) وقد تمكّن العلماء عبر الهندسة الوراثيّة من إطالة عمر الفار، فإذا كان الإنسان يقدر على هذا، فكيف بالله تعالىٰ؟

جميع المسلمين؛ كقضية النطق التي هي من مختصات الإنسان وسماته، لكن القرآن الكريم يحدّثنا عن الشجرة التي كانت تكلّم النبي موسى عليه السلام، والروايات تحدّثنا عن حنين الجذع لمجلس رسول اللّه ﷺ بعد وفاته. ولنا أن نسأل: لماذا تعتبر حنين الجذع أمراً معجزاً وقابلاً للوقوع ولا تعتبر إطالة عمر الإنسان أمراً معجزاً قابلاً للوقوع؟

إنّ الذي يدعونا إلى القول بهذا المعجز هو كثرة الروايات التي تلزمنا به وتأخذ برقابنا للاعتقاد به والتصديق بوقوعه، فالروايات كثيرة حول الإمام المهدي عليه السلام، وهي تثبت وجوده بما لا يقبل التشكيك إلّا عناداً. فنحن هنا ملزمون بأن نوجه هذه القضية ـ لكثرة الروايات الملزمة ـ إلى أنّ وجود الإمام عليه السلام هو أمر إعجازي. فكلّ عمر خلاف العمر الطبيعي لابدّ أن يكون معجزة، وليس له إلّا هذا التفسير. والمسلم مدعوّ إلى الإيمان بالمعجزات كلّها أمّا أن يؤمن ببعضها ويكفر ببعض فهذا غير مقبول وغير موضوعي؛ لأنّ الموضوعية تحتّم الإيمان بالأمثال على حد سواء.

مناقشة الإشكال الثاني (المحور الثالث)

وهذا الإشكال كما قلنا هو المحور الثالث من محاور بحثنا، وهو: إذا كان موجوداً فلماذا لا يرىٰ؟ وما الفائدة حينئذٍ من وجوده. و الجواب على هذين التساؤلين يكون في مقامين:

الأوّل: أنّ وجوده عليه السلام لطف بالمكلّف

فنقول: إن لهذه الحالات نظائر [1]، ويقول العلماء: إنّ وجود الإمام عليه السلام هو لطف

---

(١) أمّا النبي نوح عليه السلام فدعوته لقومه قبل الطوفان فقط تسعمئة وخمسون سنة كما نص القرآن

إلهي للمكلّفين وبهم، بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرّح بهذا في موارد كثيرة[1] منها ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[2]، وأُعدت بمعنى هيّئت، أي أنّها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ أننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازىٰ حينها على عمله.

إذن فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أننا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، واللّه تعالى منزّه عن العبث؟ يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين وغيرهما بأنّ هناك لطفاً من اللّه تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أننا لا نتمكن من الوصول إليهما. فهو لطف من اللّه تعالى للمكلف وبه؛ إذ أن المكلّف إذا عرف أن هناك ناراً وجنة وأنهما أُعدّتا له؛ إن أحسن فللجنّة لينعّم فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإن هذا سيكون له تأثير على سلوكه؛ حيث إنّه حينها سيخشىٰ النار ويحاول تجنّبها ويسعىٰ لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلفين.

☚ على ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت: ١٤. هذا عدا عمره الشريف قبل الدعوة وبعد الطوفان.

(١) فأغلب الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام كانت لهم غيبات عن أقوامهم، ومن أراد الاطلاع أكثر فليرجع إلى كتاب (إكمال الدين وإتمام النعمة) للشيخ الصدوق رحمه الله إذ أنه ذكر فيه كل من كانت له غيبة ثابتة بالطرق المعتبرة من الأنبياء وأوصيائهم.

(٢) آل عمران: ١٣٣، وكذا ما ثبت من حديث المعراج، ورؤيته صلى الله عليه وآله وسلم النار وأهلها.

وفي قضية الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه؛ حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

الثاني: أنه عليه السلام يُرىٰ ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ، وتسليماً لمن يقول بذلك، أما وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ أنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته. وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرَون أن النبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حياً، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرىٰ من قبل فئة خاصة، أي أنه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه. وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية(١).

---

(١) أي أنّ هناك من يقول منهم بعدم الرؤية زمن الغيبة الكبرىٰ ويروون في ذلك روايات منها ما في أنه قد خرج التوقيع الشريف إلى أبي الحسن السمري، وفيه: «قد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً. وسيأتي من شيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادّعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة، فهو كذّاب مفترٍ. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». كمال الدين وتمام النعمة: ٥١٦، الغيبة (الشيخ الطوسي): ٣٩٥، الاحتجاج ٢: ٢٩٧، بحار الأنوار ٥٢: ١٥١ / ١.
أمّا القائلون بإمكان الرؤية فهم كثر، ويروون في ذلك روايات كثيرة أيضاً منها رؤية العلّامة ﷺ له عليه السلام حيث ساعده على نسخ كتاب رأس السنّة آنذاك، وكان قد كتب في الرد على الإمامية كتاباً، فاحتال العلّامة في تحصيله فلما حصل عليه أخذه إلى البيت ليستنسخ

مناقشة الإشكال الثالث (المحور الرابع)

وهذا الإشكال كما مرّ هو عينه المحور الرابع من محاور هذا البحث ـ لتداخل موضوعات البحث ـ وهو إشكال قائم على التساؤل حول المردود الإيجابي لفكرة المهديعليه السلام، وأنّها فكرة تقوم على إلغاء التكاليف وشلّ حركة الأُمّة. والجواب على هذا الإشكال يكون في مقامين:

الأوّل: أنّ روايات المهديعليه السلام لا تلغي التكاليف

فهذا الكلام غير واقعي وغير صحيح، وهو مرفوض على الإطلاق؛ لأنّه في الوقت الذي جاءت الروايات المثبتة لفكرة الإمام المهديعليه السلام والمبشّرة به جاءت روايات في مقابلها لم تأمر بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنها جاءت تحثّ على القيام بهذه الوظيفة الشريفة السامية، وجاءت روايات تحث على فريضة الجهاد المقدّسة. والمسلمون بصورة عامة يرون الآن أنّ فريضة الجهاد قائمة والأمر بها نافذ؛ فإذا توفّرت شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شروط الجهاد وجبا، وأصبح لزاماً على المسلمين أن يقوموا بهاتين

☚ منه على قدر إمكانه لكن النوم غلبه فإذا بالحجّةعليه السلام يدخل عليه يقول له: «اجعل الأمر في هذه الكتابة إلي ونم». ففعل ولما استيقظ رأى نسخة الكتاب كاملة بكرامة الحجّةعليه السلام، وفي آخره: «كتبه (م ح م د) بن الحسن العسكري صاحب الزمان». مجالس المؤمنين ١: ٥٧٣، النجم الثاقب: ٢٩٤ ـ ٢٩٥، جنّة المأوى ٢: ٢٥٢، قصص العلماء: ٣٥٨.

وهناك وروايات أُخرىٰ غيرها، منها رواية وقوع العصا من يد العلّامة ومناولة الإمامعليه السلام له إيّاها، ثم قوله له جواباً على سؤال العلّامة: «كيف لا يمكن رؤية صاحب الزمان ويده في يدك؟»، قصص العلماء: ٣٥٨.

ومن أراد أن يطلع أكثر على رؤيتهعليه السلام في زمن الغيبة الكبرىٰ فليرجع في هذا المجال إلى بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ ـ ١٧٨.

الفريضتين الشريفتين سيما فريضة الجهاد المقدسة.

إذن فكرة الإمام المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف ولا تشلّ حركة الأُمة؛ فهي لا تنهىٰ عن بناء مصنع أو استصلاح أرض وزراعتها، ولا تدعو إلى الإحجام عن مقاومة العدو حينما يعتدي على أرض المسلمين، بل العكس هو الحاصل، وهو بناء على أوامر القرآن وتوجيهاته وإرشاداته، فهو يأمر باستثمار الطاقات البشرية وطاقات الأرض والجوّ، ويأمر بالدفاع عن الوطن والأرض، ويأمر بأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكل من يشكّ في هذا، فليرجع إلى كتب الإمامية، ولينظر بابي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد فيها، وليرَ هل عطّلت أحكامهما؟ وهل يقول فقهاؤنا بتعطيلهما؟ طبعاً لا؛ فهم لا يقولون بهذا، وحكمهما لا زال قائماً عندنا[1].

الثاني: أنّ الحقّ المراد في الروايات هو حق أهل البيت عليهم السلام

ثم هل إنّ روايات خروج صاحب الزمان عليه السلام تأمرنا بانتظاره حتىٰ يأخذ لنا بحقّهم وحقّنا ممّن ظلمهم واغتصبهم حقوقهم على مدىٰ إمامتهم عليهم السلام وظلمنا بحيث إننا لا نتحرّك طلباً لذلك الحق؟ طبعاً لا، فالقرآن الكريم يقول: **﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾**[2].

إذن هذه الدعوى ـ دعوى أن فكرة الإمام المهدي (عجّل الله فرجه الشريف)

---

(١) للاستزادة انظر أجوبة مسائل جار الله: ٦١ ـ ٦٦ / المسألة: ٧. والكتاب إجابة لمسائل أثارها التركستاني موسى جار الله.

(٢) البقرة: ١٩٤.

تشلّ الحركة عند الأُمّة وتركنها إلى الجلوس والتقاعس ـ هي مغالطة؛ لأنها غير موجودة عندنا أبداً، والإشكال عليها إشكال على شيء معدوم؛ فيكون إشكالاً باطلاً بالضرورة.

المبحث الثاني: المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام

وهو مردود يقوم على أساس أنّ فكرة الإمام المهدي عليه السلام هي فكرة وجود العدل، بمعنى أنّ اللّه تعالىٰ يريد أن يشدّ العباد إلى هذه الفكرة ـ فكرة العدل ـ ويشعرهم أنّ الظلم أمر غير مرغوب به في الأرض، وأن كل ظلم يحدث فلابد من إيجاد المقوّمات الأساسية لتعديله وتقويم مرتكبه.

والواقع أن الاعتراف بفكرة وجود المهدي عليه السلام هو أمر يشدّنا إلى فكرة العدل ووجوب تحقيقه في الأرض بين الناس، والوقوف بوجه الظلم، وكذلك يشدّنا إلى فكرة الاستقامة. فالوقوف بوجه الظلم أمر محبّذ تدعو إليه الشرائع والعقول المستنيرة. ومعنى **«يملأ الأرض قسطاً وعدلاً»**: أنّ الأرض من غير عدل لا تستقيم، وأنّ المتعيّن على المسلم دفع الظلم ومحاربته والوقوف بوجهه.

هذا فضلاً عن أنه ليس هناك أي مردود سلبي أو أي لون من ألوان السلبية لفكرة الإمام المهدي عليه السلام، خصوصاً بعد أن وصلت الأحاديث حدّ التواتر، كما أنّها لا تتعارض مع طاقات الأمة

هذه فكرة مجملة عن الإمام المهدي عليه السلام وددت إيرادها؛ لأننا في آخر جمعة من شهر رمضان المبارك، ونحن في ظلّ صاحب العصر والزمان عليه السلام ورعايته وعنايته وحياطته (عجّل اللّه تعالىٰ فرجه، وسهّل مخرجه، وفرّج عنا به، ونسأله تعالى أن يسدّدنا بالقول والعمل).

المبحث الثالث: أسئلة وأجوبة

هذه جملة من الأسئلة التي طرحها بعض الحضور سنجيب على ما يسمح بـه الوقت إن شاء اللّه تعالىٰ كالتالي [(١)]:

الأسئلة الكلامية

السؤال الأوّل: رؤية الإمام المهدي عليه السلام

يقول السؤال: هل هناك من رأى الإمام المهدي عليه السلام شخصياً؟

الجواب: في الحقيقة أنـني لا أسـتطيع أن أقـول: إنّ هـناك مـن رأىٰ الإمـام المهدي عليه السلام؛ لأنني لا أستطيع أن أبتّ بهذا الأمر دون دليل واقعي، وهناك قصص حول هذا الأمر، لكن هل هي وهم أو حقيقة، اللّه أعلم بها [(٢)].

السؤال الثاني: رواية «اسم أبيه اسم أبي»

يقول السؤال: هناك رواية تقول: **«اسمه اسمي وكنيته كنيتي واسم أبيه اسـم أبي»**[(٣)]. فما مدىٰ صحة هذه الرواية؟

الجواب: إنّ هذه الرواية مفتعلة؛ لأنّ الحديث الشريف يقول: **«اسمه اسمي»**، أمّا الزيادة هذه فهي مدّعاة كما يقول العلماء الذين نقلوا هذه الرواية.

السؤال الثالث: حول البداء

يقول السؤال: ما هو البداء؟ وما المقصود منه؟

---

(١) لقد قمنا بتصنيفها موضوعياً كما سيرى القارئ الكريم، فهي ليست وفق ترتيب طرحها.

(٢) وقد مرّ جوابه في المقام الثاني من مناقشة الإشكال الثاني.

(٣) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩، تحفة الأحوذي ٦: ٣٩٣، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

الجواب: الواقع أنني لا أستطيع أن أُجيب عن موضوع البداء أو أشرحه في هذه العجالة؛ لأنّه بحث فلسفي دقيق جداً، ويحتاج إلى دراسة ولا أُحبّ أن أشغل أذهانكم ببحوث لا يسألكم اللّه تعالى عنها يوم القيامة. لكن من يرد الاطّلاع على هذا الموضوع فليرجع إلى الكتب والبحوث المؤلّفة، ككتاب (البداء)، وبحث (البداء) من تفسير (البيان) للسيد الخوئي، ففيه بحث مفصّل ووافٍ حول هذا.

السؤال الرابع: الكفر باللّه تعالى في مرحلة الاستدلال على وجوده

يقول السؤال: هل إن الاستدلال على وجود اللّه تعالىٰ والوصول إلى هذا الاستدلال يبرّر الكفر به تعالىٰ ثم الرجوع إلى الإيمان به؟

الجواب: أنّ هذا الأمر لا بأس به ولا مانع منه إذا كان ناتجاً عن حالة قهرية تورّث الشكّ عند الإنسان في مرحلة ما من مراحل الاستدلال والبحث عن الحقيقة. وهذا مما لا إشكال فيه؛ سيما إذا عرفنا غالباً أن الإيمان المتأتّي بعد الشكّ أعمق من الإيمان الفطري؛ فهناك إيمان عشوائي فطري وهناك إيمان قائم على أساس الدليل الصحيح والبحث المرتكز إلى الأساليب العلمية والمنطقية والبراهين العقلية. وهذا الإيمان ـ الحاصل بعد الشك ـ لا شك أن له قيمته، لكن ليس معنى هذا أن ندفع بالإنسان إلى التشكيك بوجود اللّه تعالىٰ؛ لأن وجوده تعالىٰ ظاهر للعيان، فأبسط الموجودات لا يمكن أن توجد من غير خالق، فكيف بهذا النظام الدقيق المعقّد؛ سواء في الذرّة ومحتوياتها، أو في المجرّة ونجومها وكواكبها.

فهذا الكون الهائل والنظام العظيم بما يحويه من غرائب وعجائب من غير المعقول أن يوجد لمحض الصدفة أو أنّه موجود بنفسه من غير أن يكون له خالق

عظيم قادر مدبّر. ولو تدرّجنا نزولاً حتى نصل إلى أبسط غدّة في جسم الإنسان لوجدنا فيها نظاماً خارقاً وتعقيداً تركيبيّاً ووظيفيّاً لا يمكن تجاوزه لما فيه من دلالة واضحة على وجود قوّة خالقة له أو منظمة ومدّبرة لوظيفتها وتركيبها. فالحكمة التي تلاحظ في مثل هذه الأجزاء الدقيقة كافية لأن تضع الإنسان في موضع الإقرار بوجود الخالق العظيم. فوجوده تعالىٰ من أظهر الأُمور.

أسئلة في تفسير القرآن الكريم

السؤال الأوّل: تزاحم الجنة والنار

يقول السؤال: هناك آية في القرآن الكريم تقول: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] فأين النار إذن؟

الجواب: إنّ المخاطبين بهذه الآية ـ وبالقرآن الكريم عامّة ـ هم أهل الكرة الأرضية وسكانها، فما هي السماوات المقصودة؟ وما هي بالنسبة لسكان الأرض؟ هل هي الأفلاك أم أنها كواكب المجموعة الشمسية؟ إن المجموعة الشمسية هي واحدة من اثنين وثلاثين مليار مجموعة كوكبية، أي أنّ مجموعتنا الشمسية هي ذرّة تائهة في الفضاء الواسع الرحب والمجهول، وهي لا تشكل في الكون الشاسع شيئاً يذكر، إذ أنّ الكون في اتساع مستمرّ دون توقّف[2]. ووفق نظرية آينشتاين فإن صاروخاً يسير بسرعة الضوء، وهي (١٨٦) ألف ميل في الثانية ـ أي ما يعادل (٣٠٠,٠٠) كم تقريباً ـ إذا سار

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) هذا بناء على نظرية الانفجار الكبير (Big Bang) في تفسير نشوء الكون وولادته، حيث إنّ مجرّاته عامّة واقعة تحت قوة الطرد التي خلفتها عملية الانفجار الكبير هذه.

عشرين مليار سنة فسوف لن يصل إلى حافّة الكون[1]؛ لأن الكون حينئذٍ يكون قد تمدّد بمقدار الضعف من حجمه الحالي.

وليعلم بأن أبعد نجم اكتشف يبعد عنا عشرة مليارات سنة ضوئية. وإذا كانت سرعة الضوء (١٨٦) ألف ميل في الثانية فكم هي سرعته في اليوم والشهر والسنة؟ وكم هي سرعته في عشرة مليارات سنة؟

فالمراد من الآية هو عرض مجموعتنا الشمسية، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ مجموعتنا الشمسية هذه لا قيمة لها أمام هذا الكون الهائل العظيم، وبذلك يبقى متسع كبير جدّاً في الكون للنار على ضوء ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

السؤال الثاني: الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟

يقول السؤال: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2]، يصوّر لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فما هي الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟

الجواب: في الحقيقة أنا لا أعرف الآثار الناجمة عن يوم القيامة؛ لأنّ هذه الأُمور وأمثالها لا تعرف حتى ترى عياناً على أرض الواقع، لكن تبقى الصورة التي يرسمها القرآن الكريم مرعبة جداً، وهو يريد أن يبين لنا أنّ درجة الرعب التي يصل إليها الموقف هناك بين يدي اللّه عزّ وجلّ تصل إلى حدّ أنّ المرأة

---

(١) باعتبار أن العلماء يقدّرون أن حافّة الكون تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية بناء على الإشارات الغامضة المسمّاة «خلفيّة الأشعّة الكونيّة»، والتي تلقتها مراصدهم.

(٢) الحجّ: ١ ـ ٢.

المرضع تذهل عن رضيعها وتنساه على الرغم من شدّة تعلّقها به وحبها له وتضحيتها بنفسها من أجله، وكذلك تلد الحامل دون أن تدري أو تعي.

السؤال الثالث: معرفة الملائكة بما سيفعله آدم عليه السلام

يقول السؤال: كيف قالت الملائكة: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾**(١)، مع أنهم لا يعلمون الغيب؟

الجواب: أنّ اللّه تعالى أعلم الملائكة أنّ هؤلاء الذين سيخلقهم وسيهبطهم إلى الأرض هم بشر غير معصومين، وغير المعصوم تجوز عليه المعصية وارتكاب المآثمّ. وعليه فيكون إشكال الملائكة قائماً على أنهم معصومون لا يفعلون المعصية ولا يرتكبون الإثم، لأن لديهم ما يمنعهم عن فعل ذلك، إضافة إلى أنهم لا غريزة عندهم ولا جسد، وأن البشر عندهم الغريزة والجسد ومن الممكن أن يرتكبوا المعصية، ويكون خطابهم له تعالى مبتنياً على هذا التساؤل: لماذا إذن تخلق في الأرض من يرتكب الآثام ويكسب الذنوب ويجترح السيئات، ونحن أولىٰ بها؟ فأجابهم اللّه تعالىٰ: **﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾**(٢).

فهؤلاء فيهم من هو بمستوى أعلى من مستويات الملائكة؛ لأنّ هؤلاء الذي يصلون إلى هذا المستوى إنما يصلون بالتغلّب على عواطفهم وغرائزهم بعقولهم، في حين أنّ الملائكة ليس لديهم عواطف ولا غرائز؛ ولذا فإنهم لا يعصون، كما مرّ في أوّل الجواب. أما من يملك العواطف والغرائز ويملك كذلك العقل ثم غلبت غرائزه على عقله فهو أتعس من الحيوان(٣)؛ لأن الحيوان ليس عنده سوى

---

(١) البقرة: ٣٠. (٢) البقرة: ٣٠.

(٣) قال تعالىٰ: **﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾** الفرقان: ٤٤، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم». علل الشرائع ١: ٤ ـ ٥ / ١.

الغريزة. فاللّه تعالى يبين لهم بأنه أعلم منهم، إضافة إلى أنه لابدّ من إعمار الأرض.

السؤال الرابع: قتل أسرى المشركين

يقول السؤال: ما المقصود بقوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**(١)؟

الجواب: أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في واقعة بدر بعد أن جيء بأسرىٰ المشركين إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث إنّه صلى الله عليه وآله وسلم استشار أصحابه في قتلهم، أو الإبقاء عليهم ومفاداتهم. فتنازع الصحابة فيما بينهم؛ فقال بعض: نحن محتاجون إلى المال لشراء السلاح والرواحل والطعام، ولا ينفعنا قتل هؤلاء إن ضربنا أعناقهم، فلنأخذ منهم الفداء. وقال البعض الآخر: الأولى أن نقتلهم؛ لأننا إن فاديناهم وأطلقنا سراحهم رجعوا إلى تأجيج نار الحرب ضدّنا.

فنزلت الآية الكريمة ترشد النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلى قتلهم؛ لأنهم يشكّلون خطراً على الإسلام والمسلمين، وتجب إزاحتهم عن طريقهم كي ينتشر الإسلام في كل مكان.

السؤال الخامس: معنى الليل

ما المقصود بالليل في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾**(٢)؟

الجواب: الليل هو نهاية النهار وبداية ذهاب الحمرة المشرقية؛ لأنه يبتدئ

---

(١) الأنفال: ٦٧.
(٢) البقرة: ١٨٧.

بغروب الشمس كما أن النهار يبتدئ بطلوعها. فمتى تغرب الشمس، يهلّ الليل لغة. وهناك عند الفقهاء والأُصوليّين ما يسمىٰ بمفهوم الغاية والمغيّا، والسؤال الذي يطرح في المقام وجوابه الذي هو محل الخلاف فيه هو: هل إنّ الغاية داخلة في المغيّا، أم إنّها غير داخلة؟ فحينما نقول لأحد: اذهب إلى باب الحسينية، فهل معنى هذا أن الباب داخل في الأمر فيجب إدخاله في امتثاله، أم أنه غير داخل فيه فلا يجب إدخاله في الامتثال؟ أي هل يجب على من أمرته أن يتجاوز الباب، أم يقع الامتثال منه حيث يقف عنده؟

فهذا موضع خلاف بين الفقهاء، فمن يقل بأن الغاية داخلة في المغيّا يرَ أنه لابدّ من دخول الليل لامتثال أمر الله في صحة الصوم، ومن يقل بأنها غير داخلة فيه يرَ أنه يجوز الإفطار بمجرّد غياب الشمس. وهذا هو مبنى الاختلاف بين الفقهاء.

الأسئلة التربوية والفكرية والثقافية

السؤال الأوّل: اختلاف الألسنة ولغة آدمعليه السلام

يقول السؤال: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[1]، فمتىٰ بدأت عمليّة اختلاف الألسنة؟ وبأي لغة كان آدمعليه السلام يتكلّم؟

الجواب: لا أعلم ما هي اللغة التي كان آدمعليه السلام يتكلّم بها، لكن حتماً كانت له لغته الخاصّة. أمّا الشق الأوّل من السؤال، فهناك نظريتان في تفسير بدء اختلاف الألسنة واللغات:

---

(١) الروم: ٢٢.

الأولى: النظرية التوقيفية

وهي النظرية القائلة بأنّ اللّه تعالى علم آدم عليه السلام الأسماء كلها، ثم علم آدم عليه السلام كل أمّة لغتها.

الثانية: العلمية

وهي النظرية القائلة بأن اللغات تنشأ عند الأُمم بالمواضعات، حيث تقوم الأُمم بوضع أسماء للأشياء التي تتعامل معها أو بها، فتسميها بمسميات تبين المراد منها، وتحقّق الإشارة إليها.

السؤال الثاني: كيف يكسب الإنسان صديقاً؟

يقول السؤال: ما هي الطريقة الصحيحة لكسب الأصدقاء؟

الجواب: لكي يحقق الإنسان ذلك فإنّ عليه أن يكون ذا نفس كريمة تحبّ الخير للناس، ولا تترفّع عن خدمتهم وإبداء الإنسانية مهما كانت النتائج، وكذلك تدفعه للمساهمة معهم والاشتراك في أفعال البرّ والخير والإحسان. وأفضل طريقة لكسب الأصدقاء هي الصدق معهم وخدمتهم والتفاني من أجلهم والتخلّي عن الأنانية إزاءهم والتحلّي بروح خالية من الحقد والتعقيد، والتمتّع بخلق عالٍ يشدّهم إلى صاحبه. وهذه هي الوسيلة المثلى والطريقة الفضلى للاتّصال بالناس والاختلاط بهم.

السؤال الثالث: العدل بين الأولاد

يقول السؤال: نعلم أن الإسلام يأمر الآباء بعدم التفرقة بين الأبناء في العطاء، فهل ينطبق هذا الأمر على البنات أيضاً؟

الجواب: هذا مما لا شكّ فيه في حال حياة الأب؛ حيث إنّه ملزم شرعاً بألا

يفرّق بين الذكور والإناث، أما بعد وفاته فلابدّ من العمل بقانون الإسلام في عملية توزيع الميراث؛ إذ أنّ هناك تفرقة بين الذكر والأُنثىٰ يفرضها الهيكل الاقتصادي الإسلامي الذي يعفي المرأة من التكاليف المعيشية ويكفل لها حياتها المعيشية في ظل الزوج، في حين أنه ينيط ذلك بالرجل فيلزمه بالإنفاق عليها وتوفير الطعام والشراب واللباس والمسكن لها.

أمّا في حال الحياة فالأمر مختلف كما قلنا، وهو فرض مبدأ التساوي بين الولد الذكر والبنت، بل إن هناك روايات تقول بضرورة تفضيلهن في الهدية والعطاء وتقديمهن فيهما، يقول رسولنا الأكرم ﷺ: **«من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»**[1].

وهذا لكي يردّ الاعتبار للمرأة، ويعطيها شيئاً من الثقة بالنفس والقيمة، ويسدّ عندها الشعور بالنقص الذي يعتريها جرّاء معاملة المجتمع لها.. المجتمع الذي لا زال حتى الآن يعاملها معاملة غير كريمة. فالإسلام يحرص على ألّا يفرق بين الجنسين في كل خطاباته فخطاب **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[2] عام يشمل الذكور والإناث.

السؤال الرابع: فضل قراءة القرآن الكريم وأمر ختمه

يقول السؤال: ما هو فضل قراءة القرآن الكريم خصوصاً في الشهر الكريم؟ وهل يشترط ختمه في ثلاثين يوماً، أم يجوز في أكثر من ذلك؟

الجواب: حول الشق الأوّل نقول: إنّ فضل قراءة القرآن العظيم فضل كبير سيّما

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٠١.

(٢) البقرة: ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، وغيرها كثير.

في شهر رمضان المبارك، فهو فضل عظيم جداً، وبه روايات كثيرة تنصّ على أنّ اللّه تعالى يضاعف ثواب قراءته فيه. فالقرآن هو نور الوجه [١]، وهو قربان إلى اللّه؛ لأنّه خطاب اللّه لعباده.

وحول الشق الثاني نقول: ليس هناك شرط من هذا القبيل، فالإنسان يستطيع أن يقرأ ما يتيسّر له، لكن كلّما كانت قراءته بتدبّر كان أفضل [٢].

السؤال الخامس: تركيز مفهوم التوحيد لدىٰ المسلم

يقول السؤال: كيف نركز مفهوم التوحيد لدىٰ الإنسان المسلم الرسالي؟

الجواب: أن مفهوم التوحيد هو مفهوم فلسفي، بمعنى أنك حينما تريد أن تستدلّ على أنّ اللّه تعالى واحد فإنّك تحتاج إلى إيجاد الأدلّة في ذلك، والأدلّة هذه تحتاج إلى فهم فلسفي ومنطقي وكلامي خاص لهضمها وإمكانية تطبيقها، وكذلك فهم مجموعة علوم أُخرىٰ. ولذا فالشخص الذي يريد أن يعرف كيف يردّ على النافين لوجود اللّه تعالىٰ، وكيف يثبت وجوده وكيف يناقش في هذه الأُمور مدعّو إلى فهم هذه العلوم سيّما علم الكلام.

السؤال السادس: خلق الرغبة في النفس للقراءة

يقول السؤال: كيف نبعد عنا حالة الملل من قراءة الكتب؟

الجواب: في الواقع إن هذا هو داء العصر، فالوسائل التكنولوجية والحضارية قضت على الكتاب وعلى قارئه؛ فأجهزة التلفزيون والراديو والأجهزة الأُخرىٰ جعلت الإنسان يلتجئ التجاءً كلياً إليها، والانصراف إلى الاستماع عبرها، بل

(١) صحيح ابن حبّان ٢: ٩٨.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

وحتى تحصيل المعلومة من غير تعب، وينصرف عن القراءة. وهذا بلا شك داء ونقص وضحالة في الشخصية يجب التغلب عليه بإكراه النفس على القراءة والتمرّن عليها حتىٰ تصبح بعد ذلك عادة عند المطالع أو القارئ.

السؤال السابع: اختلاف المسلمين في تحديد يوم العيد

يقول السؤال: نرى اختلافاً في تحديد يوم العيد بين السنة والشيعة(١) كل عام تقريباً، فما هي حقيقة هذا الاختلاف؟ وما دوافعه؟

الجواب: واللّه يا سيّدي لا أستطيع أن أتصوّر مسلماً يؤمن باللّه تعالى وبرسوله الكريم وبكتابه العزيز يرىٰ الهلال ولا يصوم أو يرىٰ الهلال ولا يفطر. فمنشأ الخلاف هو رؤية الهلال وعدمها إلّا إذا كان هناك من له هدف سيّئ، والدنيا لا تخلو.

السؤال الثامن: الأسلوب الأمثل في تربية الأبناء

يقول السؤال: هل يجوز أن يتعنّت الأب في تربية ابنه؟ وهل يجب على الابن أن يطيع أباه في كل شيء؟

الجواب: يقع الكلام هنا في مقامين:

الأوّل: طاعة الأبناء أباءهم

ونقول في الجواب هنا: إنّ الأب إذا كان يريد أن يحمل ابنه على المعصية، كأن يأمره بالقتل أو الاعتداء أو شرب الخمر أو ترك واجب شرعي، فهنا لا تجوز

---

(١) بل إننا نلاحظ الاختلاف حتى بين السنة أنفسهم فبعض الدول الإسلامية تفطر أو تصوم في يوم، والبعض الآخر يعلن ذلك في اليوم الذي يليه أو الذي يسبقه.

طاعة الأب، بل الواجب هنا معصية الأب[١]. أمّا إذا كان يريد توجيه ابنه وإرشاده ونصحه، فيقول له مثلاً: إنّ هذا الأمر في نظري خطأ، وهذا التصرّف غير صحيح، فهنا تكون طاعة الأب واجبة.

الثاني: نبذ العنف واللجوء للأساليب الحديثة في التربية

وهذه المشورة من الأب للابن يجب ألّا تتّخذ طابع العنف أو التعنّت من جانب الأب؛ إذ لا يجوز له أن يلجأ إلى أساليب تؤذي الولد وتسبّب له أضراراً نفسية أو جسدية. وقد ورد: **«رحم الله والداً أعان ولده على البرّ»**[٢].

فالواجب على الأب قدر الإمكان أن يتجنّب ذلك وأن يستعمل قدر الإمكان التوجيه، والكلمة الطيبة والابتعاد عن إهانة ولده وتحقيره؛ لأن هذه الأساليب تخلق عنده ردود فعل، وتحوّله إلى كائن متمرّد[٣].

هذا في الأُمور العامّة، أما في الأُمور الشرعية فيجب إطاعته، ولو لزم الأمر ضَرْب الابن ضُرِب، كما هو الحال في ترك الصلاة، أو ارتياد أماكن الانحلال والانحراف؛ فللأب أن يضرب ابنه لو أصرّ على ترك الصلاة أو ارتياد تلك الأماكن. وهكذا في كلّ واجب شرعي أمراً كان أو نهياً، حيث يُضرب الابن على

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ جاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ العنكبوت: ٩، وورد في الحديث الشريف: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

(٣) ويجب عليه ألّا ينسى أنّ زمان ولده غير زمانه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقسروا أولادكم علىٰ آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧، والمقصود بها هنا المتغيّرات، أما الثوابت الخلقية فلا تشملها هذه القاعدة؛ إذ أن الثوابت أُمور أساسية في عملية التربية، فإن تغيّرت تغيّر الهيكل التربوي كله معها.

المخالفة الشرعية التي هي معصية للّه تعالىٰ. يبقى أن تلك العقوبة أو الضرب يجب أن يكونا ضمن الحدود الشرعية التي رسمها الله تعالى، فلا تجوز مخالفة الشارع في إيقاعها. ومع ذلك تبقىٰ الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة هما الأساس في عملية البناء التربوي، فالشارع كما يريد البرّ من الولد بوالده، فكذلك يريد الرحمة والرأفة من الوالد بولده.

السؤال التاسع: الدعوة في أماكن الفجور

يقول السؤال: هل يجوز للمسلم أن يدعو إلى الله في أميركا من هو في البار مع علمه بأنّه في غير وعيه؟

الجواب: طبعاً لا؛ لأن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً يجب توفّرها ومراعاتها قبل القيام بهذه الفريضة، ومنها أن يكون المأمور والمنهي واعياً بما يحاول الآمر إيصاله له، وبما يقوله، وهو هنا غير متوفّر. ثم إنّه ما الذي يدفع المسلم للذهاب إلى البار، حتى ولو كان المسوِّغ الدعوةَ إلى الله تعالىٰ؟

السؤال العاشر: حربُ الإمام عليّ ﵇ الجنَّ

يقول السؤال: يقال: إنّ الإمام عليّاً ﵇ قد حارب الجن، فهل هذا صحيح؟

الجواب: الذي أعرفه أن للجن مكلّفين بدعوتهم منهم، أمّا ما هو نوعهم، فهذا ما لم تفصح عنه الروايات بشكل واضح. وجميع الروايات التي وردت في هذا الخصوص محلّ تأمّل، والأغلب يعتبرها مرسلة وفيها تساهل، وبالتالي فإنها ليست محل وثوق عند العلماء؛ لأنهم يقولون: إن أمير المؤمنين ﵇ غير مكلّف بمحاربة الجنّ، وانّما هو ﵇ مكلّف بمحاربة الإنس. وقد ذكر القرآن الكريم الجن وصرّح بوجودهم لكن على نحو الإجمال؛ لا التفصيل. ثم إن معرفة ذلك ليس محلّ تكليف.

السؤال الحادي عشر: قيام دولة إسلامية قبل عصر الظهور

يقول السؤال، هل يمكن أن تقام دولة إسلامية قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام؟ وكيف نقضي على الشبهة القائلة بأن الإمام المهدي يظهر عندما تملأ الأرض ظلماً وجوراً؟

الجواب: ليعلم أنه لا تعارض بين قيام حكومة إسلامية وبين وجود الظلم، لأن هذا يمكن أن يجاب عنه من جهتين:

الأوّلى: ظلم الإنسان نفسه

فمن موارد الظلم مثلاً أن يظلم الإنسان نفسه بفعل المعصية وترك الطاعة[١]. فليس مفهوم الظلم منحصراً بمعنى ظلم الإنسان للآخرين. وعليه فعندما نقول: إنّ الإمام المهدي عليه السلام يقضي على الظلم، فالمقصود به ليس ظلم الإنسان غيره فقط، بل إنّ هناك ظلماً باقياً، هو ظلم الإنسان نفسه، وهو المراد هنا.

الثانية: أن المقصود بـ«الأرض» ليس استيعابها

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الحكومة الإسلامية إن حصلت فإنها حتماً لا تملك الأرض كلّها، بل إنها تحصل في بقعة محدودة صغيرة من الأرض، في حين أنّ باقي الأرض كلّه يبقىٰ مملوءاً بالظلم والجور.

وعليه فإن حديث «**يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً**»[٢] ليس على نحو الاستيعاب، أي أنه ليس شرطاً أن يكون كلّ جزء من الأرض مملوءاً بالظلم، بل يكفي فيه أن يكون بعض أجزائها مملوءاً بالظلم والجور. وهذا

(١) قال تعالى: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هود: ١٠١، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل: ١١٨.

(٢) كمال الدين: ٢٢، مسند أحمد ٣: ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٥٢، ٧٠، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.

من قبيل ما يروى من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله ﷺ وقالت له: إن معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فما تقول؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له»** [(١)].

وليس معنى هذا أنه لا يضع عصاه على الأرض مطلقاً، فهو يضعها عند النوم وعند الطعام مثلاً، فهذا التعبير إذن خاضع لأساليب البلاغة، وإلى أن فيه مبالغة. والأمر هنا كذلك فحينما يقول: **«الأرض»**، فهو يعني أغلب بقاعها وبلدانها وليس تمامها أو كلّها؛ فلا تعارض حينئذٍ بين قيام هذه الحكومة، وبين ظهوره ﷺ؛ لأن الظلم حتماً سيكون موجوداً في أماكن أُخرىٰ، وهذا الوجود مسوّغ للظهور.

السؤال الثاني عشر: إشكال حول خلق الله المعاصي

يقول السؤال: لماذا يخلق الله أصحاب النار وهو يعلم مصيرهم إليها، حيث إنّه تعالى يعلم مصير كلّ مخلوق؟

الجواب: أنّ العلم بالشيء لا يغيّر الواقع، فالله جلّ وعلا يعرف أنّ هذا باختياره سيدخل النار، وأنّ هذا باختياره سيدخل الجنة. لأن شأنه عزّ وجلّ هو أن يمنح الإنسان قابلية الفعل وحرّية الاختيار، دون أن يحرمه التصرّف فيهما، إذ أنه تعالىٰ ليس في ساحته بخل. وهذا مثل ما لو أنّ شخصاً يطلب من الدولة قطعة أرض ليزرعها مع علم الدولة بأنّه سيتكاسل عن العمل والزراعة، لكنّها تعطيه إياها؛ فإن تركها ولم يزرعها أو يستصلحها، فإنها ستأخذها منه حينئذٍ وتعاقبه؛ لتركه زراعتها، وطلبه فعل ما لا يفعله.

---

(١) مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ - ٧٥.

وهكذا الله تعالىٰ، فهو عزّ وجلّ ليس في ساحته بخل، وإذا طُلب الوجود من اللّه تعالىٰ فإنّه يُفيضه. وقد يستغرب أحد كيف أنّ أحداً يطلب من اللّه الوجود؛ لأن معنى هذا أنه غير موجود، فنقول: إن هذا من أدقّ البحوث الفلسفية، وإنّ ماهية الإنسان قبل أن يخلع عليه الوجود هي بنفسها داعية بلسان الحال أن يمنحها اللّه الوجود. ولأقرب المعنى إلى ذهن القارئ فأقول: إنّ مثل ماهية الإنسان كمثل الأرض العطشة التي يقول العلماء عنها: إنّها تطلب المطر بلسان الحال لا بلسان المقال، فالماهية لم تطلب من اللّه تعالى أن يفيض عليها الوجود بلسان المقال، بل إنها طلبته بلسان الحال، شأنها في هذا شأن الأرض العطشة تماماً.

وبما أنّ اللّه عزّ وجلّ جواد كريم، فهو تعالى لم يبخل عليها بذلك، فأفاض عليها الوجود مع علمه تعالى بأنّ بعض أفراد هذه الماهية سيدخل النار بسبب معصيته وفعله؛ لأن عدم إفاضته تعالى الوجود عليها معناه بخل، وهو تعالىٰ منزّه عنه.

فإذا أفاض اللّه تعالى الوجود على شخص وأعطاه الاختيار، ولم يتدخل مباشرة في أفعاله وسلوكه، بقي الإنسان هو واختياره؛ فإما أن يختار عمل الخير فيدخله اللّه الجنة، أو أن يختار عمل الشرّ فيدخله النار. لكن نبقى نؤكد على مسألة هي أن علم اللّه تعالى باختياره عمل الشر لا يعني أن اللّه عزّ وجلّ يحرمه من فرصة الوجود؛ لأن حرمانه من الوجود معناه عدم إعطائه فرصة التكليف. والنتيجة أن اللّه تعالى حينما يعطي الإنسان فرصة التكليف وهو عالم بأنه سيكفر أو سيعصي فإنه تعالى إنما يريد أن يظهر معدنه؛ لأن هذا يجب أن يكون داخلاً في دائرة التكليف ليصح فيه مبدأ الثواب والعقاب.

الأسئلة الفقهية

السؤال الأوّل: حرمة لعبة الشطرنج

يقول السؤال: المعروف أنّ لعبة الشطرنج محرمة في الإسلام؛ لأنها تلهي الفرد المسلم عن قضاياه الإسلامية، فنرجو منكم أن تبينوا أدلّة التحريم من القرآن والسنّة، أفيدونا (غفر الله لكم).

الجواب: أن الفقهاء والمفسرين من المذاهب الإسلامية كافّة يفتون بحرمة الشطرنج شراء ولعباً، ويستدلون بقوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[1]، ومن السنة بقوله ﷺ: **«من لعب بالشطرنج والنردشير فكأنما غمس يده في دم الخنزير»**[2]، وغيره[3]. ويستثنىٰ من ذلك الإمام الشافعي حيث إنّه يرىٰ أن التلهي به من غير مراهنة حلال إلّا أن يلهي اللاعب به عن الصلاة فيحرم حينئذٍ[4]. وعدا هذا فإن جميع علماء المذاهب الإسلامية يحرّمونه مطلقاً. ومن أراد أن يتأكد فليرجع إلى كتب التفسير حول قوله جلّ وعلا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**.

---

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) الكافي ٦: ٤٣٧ / ١٥، الفقيه ٤: ٥٨ - ٥٩ / ٥٠٩٣، جامع الخلاف والوفاق: ٦١٥، الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢: ٢٤٠.

(٣) كقوله ﷺ: «ملعون من لعب بالشطرنج، والناظر إليه كالآكل لحم الخنزير». الجامع الصغير ٢: ٥٤٠ / ٨٢٠٩، كنز العمال ١٥: ٢١٥ / ٤٠٦٣٦.

(٤) عنه في الخلاف ٦: ٣٠٤ / المسألة: ٥٣، المغني ١٢: ٣٦، الشرح الكبير ١٢: ٤٥، ولم ينقلاه عنه بشرط ألّا يلهي اللاعب به عن صلاته.

السؤال الثاني: العقيقة

يقول السؤال: هل يجب على المسلم أن يضحي بشاة أو غيرها عندما يرزقه الله تعالى بمولود؟

الجواب: ليس هناك وجوب في مفروض السؤال، بل إنّه يستحبّ للأب أن يعقّ عن ولده عقيقة، وليس أُضحية.

السؤال الثالث: عدد الرضعات الناشرة للحرمة

يقول السؤال: ما عدد الرضعات التي يصبح معها المرتضع أخاً لابن صاحب اللبن بالرضاعة؟ وهل هناك شروط أُخرى؟

الجواب: أن عدد الرضعات يجب أن يكون خمساً متتاليات حتىٰ يصبح المرتضع أخاً لابن صاحب اللبن، أي أن العدد الذي يكون دون ذلك لا تنعقد به الحرمة. أما الشروط الأُخرىٰ فمنها:

١ـ أن تكون الرضاعة عن طريق الثدي. أي أن يلتقم المرتضع الثدي بفمه، وليس بوسيلة أُخرىٰ كأن يصبّ الحليب في فمه.

٢ـ أن تكون الرضاعة خلال الفترة الشرعية لها، وهي سنتان هجريتان من أوّل يوم ولادته، فإذا ارتضع بعد السنتين فلا تنشر الحرمة حينئذٍ.

السؤال الرابع: نكاح المتعة

يقول السؤال: كيف يتم تحويل النكاح المؤقت إلى نكاح دائم؟

الجواب: يتم ذلك بأن يهبها المدّة ثم يعقد عليها ثانية عقداً جديداً دائماً. وأُحبّ أن أُلفت النظر هنا إلى أن هذا الموضوع حساس جداً، وقد بحثته بحثاً كاملاً مدعماً بأدلّة ضخمة في كتاب (من فقه الجنس). وإن شاء الله سيجد القارئ في هذا

الكتاب إجابات وافية على الكثير من الأسئلة التي تخطر في ذهنه. وقد بينت فيه أنّ نشر هذا النوع من الزواج والتساهل فيه قد تترتب عليه آثار سلبية، أمّا إذا كان ضمن الحدود الطبيعية، وفي نطاق القيود والشروط المفروضة فيه على المُقدم عليه فحينئذٍ لا يكون فيه ما يضرّ أبداً.

والواقع أنني أضيق ذرعاً بهذا الموضوع، والله شاهد على ذلك، فهو حالة استثنائية شرّعت للضرورة؛ فيجب ألّا تأخذ من تفكيرنا كلّ هذا الحيّز.

السوال الخامس: حكم صلاة النساء في المشاهد المشرّفة

يقول السؤال: ما حكم الصلاة للنساء في المشاهد المقدّسة؟ فهناك نساء يصلين أمام الرجال كما هو حاصل في مقام السيدة زينب عليها السلام.

الجواب: يجب أن يكون هناك حاجز بين النساء والرجال كما ينص عليه الفقهاء؛ للتفرقة بين صلاة الجنسين.

السؤال السادس: حكم تارك الصلاة لفترة من الزمن

يقول السؤال: ما حكم من ترك الصلاة لسنة أو سنتين ثم عاد إليها مرّة أُخرىٰ؟ وهل يقضي ما فاته؟ وهل عليه كفّارة ذلك؟

الجواب: ليس هناك كفارة في هذا المورد، لكنّ القضاء واجب، فإذا ترك العبد صلاته فالواجب عليه قضاء ما فاته، فيقضي بمقدار ما ترك من صلاة إن كان عارفاً به، وإن لم يكن عالم بمقدار ما فاته من صلاة فإنّه يقضي ويستمرّ على ذلك حتى يحصل عنده يقين بأنّه قد استوعب فترة ترك الصلاة. والله تعالى توّاب غفور رحيم يفتح باب التوبة لمن يتوب مخلصاً نادماً سيّما في مثل هذه الليالي المباركة؛ حيث ورد: «**إذا كانت ليلة الجمعة أمر الله عز وجل ملكاً فنادى من أول**

الليل إلى آخره، وينادى في كل ليلة غير ليلة الجمعة من ثلث الليل الآخر: هل من سائل فأُعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ يا طالب الخير أقبل، يا طالب الشرّ أقصر»[1].

(نسأل اللّه أن يرحمنا برحمته)؛ لأنّ الحياة مهما طالت فهي منتهية:

فهبك وهبتها مئتين حولاً ... فما بعد الحياة سوى المماتِ

السؤال السابع: حكم وجود الصور في البيوت

يقول السؤال: هل إنّ وجود الصورة في البيت حرام حتى لو كانت صورة أحد أفراد العائلة؟

الجواب: طبعاً لا إشكال في وجود الصور الفوتوغرافية ولا ضرر منها ولا حرمة فيها، لكن المجسّمات البشريّة لا يجوز وضعها فيها.

والحمد للّه رب العالمين وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.



(١) الكافي ٤: ٦٧ - ٦٨ / ٦، دعائم الإسلام ١: ١٨٠.

﴿١٥٧﴾

الموت وفلسفة الجزاء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الحياة الدنيا والمتدنّية

ذكرت فيما مضىٰ أنّ من أهم الأشياء التي تستأثر بمساحة واسعة من القرآن الكريم مسألة العالم الآخر، وقد دأب القرآن الكريم على أن يعقد معادلة أو مقارنة بين هذا العالم الذي نعيشه وهو ما يُعبّر عنه بالحياة الدنيا وبين العالم الآخر المُعبّر عنه بالآخرة (مقرّ الحساب والجزاء). والحياة الدنيا هي المرحلة الأُولىٰ في حياة الإنسان، وهي مرحلة ما قبل القبر. وبالنتيجة أن كلاً من الصفة والموصوف (الحياة، الدنيا) يتضمنان تلك المرحلة التي يقطعها الإنسان قبل الموت.

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

لكن عند التأمل قليلاً في الأُسلوب القرآني نجد أن القرآن الكريم يريد بها الحياة المتدنية، فكأنما أمر هذه الفترة الوجيزة التي نعيشها، والتي هي عبارة عن أعمارنا إذا أردنا أن نقيسها بكل محتوياتها بالحياة الآخرة التي سينتقل إليها الإنسان فإنّها تعتبر متدنيةً جداً. وبمعنىً آخر أنه لا توجد نسبة بينهما. ومثل هاتين الحياتين كمثل شخص يعيش في صحراء قاحلة لا ماء عنده ولا زاد ولا مناخَ جيداً، وشخص يعيش في قلب الحضارة ويسكن قصراً فخماً، ويأكل من أرقىٰ الأطعمة وأحسنها، ويشرب ماءً معيناً سلسبيلاً بارداً، ويلبس فاخر الثياب وثمينها، ويستخدم أرقىٰ وسائل التكنولوجيا الحديثة، ويسخّر لخدمته تلك الثورة المعلوماتية والمنظومة الجبّارة من سلسلة اكتشافات العلم الحديث. مع أن هذا يبقىٰ مثالاً تقريبيّاً بعيداً عن تصوير الواقع الذي نتكلم عنه.

فإذا اعتبرنا أن القبر هو الحدّ الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، كانت الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة وقياساً بها أمراً لا قيمة له سيما إذا عرفنا أنّ الإنسان في الحياة الدنيا يعيش حالةً متواصلة من الآلالم والأوجاع والمشاكل والابتلاءات، مع أنها أيام معدودة. بالنتيجة فإن الإنسان يخرج منها مُثقلاً بالهموم، ومُكلّلاً بالآلام والمآسي.

هل هي نظرة تشاؤمية؟

وقد يسأل سائل فيقول: أليس في هذا نظرة تشاؤمية للحياة الدنيا؟

والجواب: أنني في الواقع لا أُعدُّ هذه النظرة نظرةً تشاؤمية وإن كان هناك من يرىٰ الحياة جميلة، فعليه أن يعي أن هذا أحد وجهي العُملة، والوجه الثاني لها هو الجانب المظلم والمُتعب من الحياة، فقوله تعالىٰ: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ فيه

سور يُسميه علماء المنطق سور الموجبة الكلية، وهو هذه الكلية التي يُعبر عنها بلفظ (كل). ومعنىٰ هذا السور أن كلّ شخص؛ سواءً كان ملكاً أو إنساناً عادياً، عالماً أو جاهلاً أو متوسط العلمية، غنياً أو فقيراً يشترك بهذه الحقيقة المرّة، وهي أنه سيذوق الموت حتماً.

لماذا الموت؟

لا شك أن مرتبة العبودية واحدة، فكلٌّ من خلق اللّه تعالى وما خلق هم عباد له، ولقد حكم اللّه تعالىٰ على هذه الحياة بأن تنتهي وينتقل الإنسان بعدها إلى عالم آخر. وهذه الحقيقة تصدم الإنسان وتوعّيه وتفيقه من حالة الغرور التي تتملّكه، وتقول له : يجب ألّا تحتقر هذا الإنسان المسكين؛ فلقد جئت وإياه من مكان واحد وستعودان إليه.

وفعلاً إن عليه ألّا ينسىٰ هذه الحقيقة المرّة، وأن يضعها نصب عينيه كي تخفف من غلواء غروره؛ لأنّه مخلوق ضعيف لا يليق به الغرور، وليس ذلك من لباسه، بل إن ما يليق به هو التواضع والاستقامة، ومراعاة الطبيعة الإنسانية. فمن لا يجوز عليه الموت ربما كان له الحق في أن يلبس هذا الثوب، أما الكائن الفاني الذي لا مصير له سوىٰ الموت ـ وكلّ ميت ـ فلا يجوز أن يخالجه هذا الشعور. وكلّ مغرور ستطؤه الأرجل، وهذا الخدّ المصعّر ستمرّ عليه الأقدام، يقول عبدة بن الطيّب:

إذا ما هلّ قبري ودعوني	**وراحوا والأكفّ بها غبارُ**
وغودر أعظمي في لحد قبر	**تراوحه الجنائبُ والقطارُ**
تهبّ الريح فوق محطّ قبري	**ويرعى حوله اللهق النوارُ**
مقيم لا يكلّمني صديق	**بقفر لا أزور ولا أزارُ**

فــذاك النــأي لا الهــجران حــولاً وحــولاً ثــم تــجتمع الديـارُ[1]

فهذا الشاعر يقول: إن هذه الغربة هي الغربة الحقيقية التي ليس وراءها أوبة.

حقيقة الموت

وهنا نقطة أودُّ أن أُشير إليها وهي أنّ القرآن الكريم يريد أن يُبين لنا أن الموت في حقيقته ليس فناءً و إعداماً، وإنما هو عملية نقلٍ من عالم إلى عالم آخر، فهو تعالى حينما يقول: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ فالذائق يجب أن يكون حياً ليتمكّن من التذّوق؛ لأنّ التذوّق هو فعالية من الفعاليات الحيوية التي يختص بها الأحياء فقط، وذلك كالأكل والشرب والنوم والحـركة وغـيرها. فـعندما يـقول القـرآن الكريم: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ فهو يعني أن النفس عندما تذوق الموت فـهي موجودة حينها، ومعنىٰ هذا أن النفس موجودة حيّة، وأنّ الموت هو فراق الروح للجسد لا أكثر.

موضع الإدارك وحقيقته

إننا نُدرك تماماً أنّ النفس تعرف، وتعرف أنّها تعرف، أي أنـنا نـعلم بـبعض الأشياء مثل (النّار محرقة) و (الماء سائل)، وفي الوقت نفسه نعلم أننا نعلم. وهذا المقدار ليس من خواصّ المادة وإنّما هو من خواص الروح، ولو كان من خواصّ المادة أنها تعلم لكان الجسد كلُّه يعلم، وكان الحجر يعلم وكذلك النبات.

إذا تبين هذا، وتبيّن أن العلم من خواصّ الروح، فهذا يعني أنّ الروح ليس شيئاً مادّياً، بل إنه شيء يختلف عن الجسد في خواصّه.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٥٨، ١٨: ٣٢٣ - ٣٢٤.

محلّ الروح

ثم إنّ الروح لو كان في الجسم لمات بموت الجسم، فهو ليس في داخل الجسم ولا يمتزج معه، بل هو خارجه ويتصل بالجسم اتصال تدبير بطريقة مشابهةٍ لجهاز التحكم عن بعد (الريموت كونترول) الذي يشغل الأجهزة الإلكترونية وهو خارجها. فالروح ليس داخل الجسم وإنّما هو خارجها ويتحكم به ويديره. وقد أجرىٰ العلماء تجارب في هذا المجال منها أنهم وضعوا شخصاً يحتضر في ناقوس من البلور محكم الغلق ثم راحوا يراقبونه وعندما مات لم يُلاحظوا أي شيء يخرج من جسمه.

إذن نخلص من هذا إلى نتيجة هي أنّ الروح أمر خارج عن الجسد وليس داخله فيخرج منه عند الموت.

وهذا المعنىٰ من الأُمور المستعصية على الأذهان المعتادة على الحسّيات، وحينما سُئل النبيّ الكريم عن كُنه الروح، جاءه الجواب في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1]. وهذا الجواب على قدر مدارك الناس آنذاك وعلى قدر عقولهم وأفهامهم. فالروح ينفصل عن الجسد لحظة الموت إذا أراد اللّه تعالىٰ قبض روح عبده: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾[2]. فما للتراب يرجع للتراب، وما للنور يرجع للنور؛ وهكذا يعود الجسم إلى التراب والديدان والحشرات:

قالت وقد سلخ ابتسامتَها الأسىٰ	صدق الذي قال الحياة غرورُ
أكذا نموت وتنتهي أحلامنا	في لحظة وإلىٰ التراب نصيرُ
وتموج ديدان الثرىٰ في أكبدٍ	كانت تموج بها المنىٰ وتمورُ

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) الفجر: ٢٨.

إنها حسرة لا حدود لها فمخّ آينشتاين يموج به الدود، ومخّ الأنبياء والأولياء والعباقرة يودع في التراب. لا شكّ إنّها حسرة كبيرة مؤلمة، لكن الذي يخفّف الألم أن الإنسان ليس هذه الأجزاء المادّية الفانية، بل هو أكبر من هذا، فالإنسان هو الروح.. الإنسان هو الكيان المميّز الذي جعله اللّه تعالىٰ سيد الموجودات.

المبحث الثاني: المسؤولية الجنائية على القاتل

ويردُ هنا إشكال هو أنه إذا كان الأمر مقضياً بأن **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**، فهل يتحمّل الإنسان القاتل مسؤولية جنائية كما هو عندنا في الفقه الجنائي مع العلم أن القاتل هنا مجرد أداة؟ بمعنىٰ أنه إذا كان المقتول قد ذاق الموت، وكان الموت أمراً حتميّاً، وكان القاتل مجرّد أداة، فهل يتحمّل حينئذٍ تلك المسؤوليّة الجنائيّة، أم لا؟ وهل يُعتبر معتدياً أم إنّه يُعتبر منفّذاً لإرادة القضاء والقدر وما هو حتمي الوقوع؟

والجواب أنّ هذا القاتل يتحمل المسؤوليّة؛ لأن الإقدام على القتل هو عملية إجرامية، ثم إنّ القاتل عندما يقدم على القتل لا يعلم فيما إذا كان المقتول سيموت أم لا.

جواز إزهاق روح المريض الميؤوس منه

وهناك مشكلة أُخرىٰ يُثيرها علماء الاجتماع والأطباء، وهي أن المريض الميؤوس من شفائه هل يجوز قتله أو لا يجوز؟ والحقيقة أنه لا يجوز قتله؛ لأنّ هذه القتلة وإن كانت تُسمىٰ قتلةً رحيمة إلّا إنها تبقىٰ عملية قتل وخرقاً للقانون الإلهي، فهذا المريض قد يعود فجأة إلى الحياة الطبيعية؛ إذ أن إرادة اللّه تعالىٰ: **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾**[1]. فاللّه تعالىٰ قد سَلَب القدرة على منح الحياة أو سلْبها

---

(١) النجم: ٤٤.

من أي كائنٍ ما لم يقضِ اللّه عزّ وجلّ بذلك.

إذن فإقدام الإنسان على القتل هو عملية إجرام يدين الفقه الجنائي مرتكبه عليها، وكذلك القانون المدني.

هل الموت كيفيّة مضادة للحياة أم أنه انعدامها

وهنا نقطة أُخرىٰ ينبغي التنويه إليها وهي أنّ الموت هل هو كيفية مضادّة للحياة أو أنه انعدام لها فيمن شأنه الحياة؟ ولتوضيح هذه الفكرة نقول: عندما نصف شيئاً بأنه حلو، فمعنىٰ هذا أنّ لحلاوته كيفيةً مضادّة وهي المرارة، والضوء له كيفية مضادّة هي الظلام، فهل الموت هو الكيفية المضادّة للحياة أم أنه انعدامها؟ الحقيقة أنّ الموت ليس مضاداً للحياة وإنما هو عبارة عن سلب الحياة، فكلّ من يجوز عليه سلب الحياة منه يُسمىٰ ميتاً. إذن الموت ليس ضدّاً للحياة.

فقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يعني أنه ليس هناك شيء يحوّلكم إلى عدم، غاية ما في الأمر أننا نجعل أرواحكم تفارق أبدانكم، وعندها تتحوّل هذه الأجساد إلى أشبه ما يكون بالخشب، ثم تصبح جزءاً من التراب. إن الذي يُعطي القدرة للجسم على الحركة والقدرة على التصرف هو الروح الذي بمجرد أن يفارق الجسم تُشل كلُّ فعالياته وحركاته؛ ولذا يقول الإمام السجادعليه السلام: **«ومالي لا أبكي؟»**. فهوعليه السلام يصوّر بهذا الأُسلوب المعبر مصير الإنسان الذي إذا تأمله فإنّه سيقع تحت تأثير دائرة الألم، وهذا فيه أعظم عظة وعبرة.

المبحث الثالث: في معنى التوفية ومتعلّقها

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾، وفي هذا المقطع تشابك؛ فالاقتصاديون يتناولونه من الجانب الاقتصادي والعدليون يتناولونه من الجانب

الجنائي وعلماء العقائد يتناولونه من الجانب الكلامي. وعليه ففي هـذا المـقطع الشريف عدّة أُمور سنعرض لها تباعاً إن شاء اللّه تعالىٰ:

الأمر الأوّل: معنىٰ التوفية

إنّ للتوفية معنيين:

الأوّل: أنّها بمعنىٰ التمام

فحينما يقترض أحد من آخر مبلغاً ثم يُسدده إياه دفعةً واحدة فإنّه يقول له: قد وفيتك حقك.

الثاني: أنّها بمعنىٰ الإتمام

ومثاله ما لو سدد له دينه على شكل أقساط فإنّه حينما يُسدد قسطهُ الأخير فإن هذا القسط يكون فيه إتمام للقرض.

وبعض العلماء يقول: إن الإنسان الصالح إذا توفاه اللّه فإنه يُعطيه شيئاً من النسيم في القبر، والباقي يوفّيه إياه يوم القيامة، وكأن في العملية نوعاً من التقسيط. وهذا الرأي مفاده أن التوفية هنا بمعنىٰ الإتمام، وهو رأي لا يُعتد به كثيراً.

أما القسم الأكبر من العلماء فيذهبون إلى أن التوفيه هي بمعنىٰ إيصال الحقّ لصاحبه كاملاً، أي أنّ اللّه عزّ وجلّ يخاطب عباده يوم القيامة بقوله: إني سأُعطيكم التوفيه كاملة هذا اليوم.

الأمر الثاني: نظرية فائض القيمة

أما الاقتصاديون فيتناولون هذا المقطع من الآية بمعنىٰ آخر فيقولون: إنّ الإنسان لا يُوفىٰ في الدنيا؛ لأنّ الدنيا دار سرقة، وهذه النظرية هي التي يُسميها

ماركس نظرية «فائض القيمة»، ولتقريب الفكرة نفرض أنّ أحداً من الناس عنده رأس مالٍ يشتري به موادّ أوليةٍ، ثم يعطيها إلى العامل ليصنع منها أدوات استهلاكية، وكانت كلفة هذه المواد عشرة دنانير، وبعد أن صُنعت بيعت بعشرين ديناراً؛ أُخرجت منها عشرة هي ثمن المواد الأولية وأُعطي العامل من العشرة الثانية خمسة دنانير فيكون المتبقي هو فائض القيمة. وفائض القيمة هذا إذا أخذه المالك بنسبة معقولة لم يكن فيه ضير، أما إذا استوفاه بقدرٍ غير معقول كانت الزيادة من عرق العامل وعلى حساب تعبه. وهذا هو شأن الأعمّ الأغلب من أصحاب رؤوس الأموال.

مناقشة النظرية

وهذه النظرية تُعدُّ صحيحة من ناحية، وغير صحيحة من ناحية أُخرىٰ:

فهي الصحيحة من جهة أنّ عمل العامل من غير المواد الأولية لا قيمة له، والمادة الأولية أيضاً لا قيمة لها من غير عمل العامل. إذن أمر صحيح ألاّ يكون الربح فاحشاً.

والناحية غير الصحيحة هي محاولة استغلال عرق العامل وتعبه.

وقد أراد ماركس أن يستغل العمال عبر هذه النظرية، ويشحنهم ضد أصحاب العمل والملّاك. فمن هذه الناحية ربما كان البعض يسرق، لكن البعض الآخر وربما هو الأكثر ليس كذلك، أي أنه إذا أراد أن يأخذ ربحاً فإنّه يأخذه في حدود المعقول؛ بدليل أنّها لو كان فيها ظلم لما أقرّها الإسلام مشترطاً أن يتناسب الأخذ مع العطاء، أي يجب أن يكون هناك تناسب معقول بين الربح فلا سرقة في المورد وبين ما يأخذه العامل.

وقد ورد في الحديث الشريف عن النبيّ ﷺ قوله: **«يقول الله عز وجل: ثلاثة أنا بريء منهم يوم القيامة: رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقّه»**[1]. إذن فالمسألة تتعلق بقضية سرقة، والواجب ألّا يسرق عرق العامل؛ لأنّ الدنيا تقوم على رؤوس العمال وأذرعهم. وهذه الطبيعة التي عليها الناس قد عوّدتهم على التزوير حتىٰ في كتابة التاريخ، فيقولون: إنّ الأهرام قد بناها الفراعنة، والحقيقة أنّ الذي بناها هو العامل الذي سكب فيها عرقه، والمهندس الذي سكب فيها فنّه، يقول الشاعر:

يــادار آن لك الأوان لتــحطمي ... خُشُــباً بآلاء الشــعوب تــنظّروا

فكأنما القرآن الكريم يقول لنا: إذا كان مجتمعكم الدنيوي مجتمعاً قائماً على أساس التعامل بالسرقات، فإنّ اللّه عزّ وجلّ ليس عنده شيء من هذا النمط أو لون من هذا التعامل ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾، فلا أحد يُبخس حقّه أو يُنتقص من أجره شيء، بل إنه يأخذ حقّه كاملاً بمقدار ما أعطىٰ من كدّ وتعب.

وفي الوقت نفسه فإن على العامل واجباً هو ألّا يسرق من الوقت؛ فلو أنه استؤجر لثماني ساعات فإن عليه أن يُكملها ثمانياً ولا يبخس منها شيئاً بتضييع الوقت في الكلام وغير ذلك من التصرفات التي يُهدر معها الوقت مما يُعدُّ من الأُمور غير الداخلة في صلب العمل. إذن فكما أنّ للإنسان حقّاً فإن عليه واجباً، فيجب عليه أن يلتزم بالمعادلة المفروضة في مسألتي الحقوق والواجبات.

المبحث الرابع: لماذا جُعل الجزاء يوم القيامة؟

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فلماذا اختار اللّه تعالىٰ يوم القيامة

---

(١) المغني ٤: ٣٠٢، الشرح الكبير ٤: ١٤.

موعداً للحساب وتوفية الحقّ؟

صفات الدنيا في عطائها

وجواب هذا أنّ نقول: إن الدار الدنيا ليست بدار جزاءٍ ولا توفية. ويتّضح هذا من معرفة صفات الدنيا وأحوالها وهي تمدّ يدها بالعطاء، وسنجمل بعضها بالآتي:

الصفة الأولى: أنّها تأخذ ممّن تعطيه أكثر من عطائها له

ذلك أن الدنيا حينما تُعطي أحداً شيئاً فإنّها سرعان ما تسلبهُ إياه وزيادة، بمعنىٰ أن من يأخذ من الدنيا شيئاً يُعطِها في المقابل شيئاً من عمره وشيئاً من جسمه بما كدّ وتعب وأحرق من خلاياه وهو يحاول الحصول على ذلك العرض الدنيوي. وبالنتيجة فإنّ هذا الآخذ من الدنيا قد حصلت عنده عملية اندثار وهو يمارس حالة الاكتساب تلك، وذلك الاندثار هو الانفعال الحاصل في أجهزة جسمه وآلاته عند استعمالها.

وعليه فالدنيا ما تُعطي أحداً شيئاً إلّا وتأخذ منه مقابل ذلك شيئاً هو أثمن منه، فهي حينما تَهب أحداً نغمةً تمتّع بها أذنه فإنها تكون قد سلبتهُ في المقابل فرصة يشغل بها أُذنه بما هو أهمّ وأعمّ فائدة؛ ولذلك نهىٰ الشارع عن سماع الغناء لأنّه داخل في باب اللهو الذي يشغل بال كل من يُصغي إليه. وهذا يعني أن الأُذن التي تُشغل بأمثال هذه المُلهيات كان من الممكن أن تُشغل بما ينفع صاحبها والمجتمع سواءً في الدنيا أو في الآخرة ممّا يمكن أن يبني شخصية الإنسان أويزيد في ميزان حسناته أو يزيده علماً إلى علمه.

فهذه العملية (عملية شغل الأُذن بما لا ينفعُها، وكذلك شغل بقية الجوارح) هي عملية فيها هدر للطاقات وللوقت وللإمكانيات التي وهبها اللّه لعباده؛ وهذا هو

وجه الحرمة فيها.

الصفة الثانية: أنها لا تُعطي إلّا بذلّ

وهناك صفة ثانية تتصف بها الدنيا حينما تُعطي أحداً شيئاً، وهي أنّها لا تُعطيه إلّا بعد أن تُذلّهُ؛ كأن يمدح من لا يستحق المدح أو يذم من ليس أهلاً للمذمة. مدح أحد الأعراب شخصاً فلم ينفحه بشيء، فضاع مدحهُ وضاع تعبه، فقال:

سجدنا للقرود رجاء دنيا ... حوتها دوننا أيدي القرودِ
فما ظفرت أناملنا بشيء ... صنعناه سوى ذلّ السجودِ[1]

وهكذا هو شأن الدنيا؛ فإنها تسلب الإنسان كرامته مقابل أن يحصل منها على شيء يسير، وهو حتماً أدنىٰ من كرامته بمقدار كبير جداً.

الصفة الثالثة: أن عطاءها محدود زائل

وهناك سمة ثالثة تتسم بها الدنيا وهي تُعطي من يطلب منها، ألا وهي أن ما تُعطيه مهما كان عظيماً فإن آخذه يبقىٰ خائفاً وجلاً وقلقاً من أن يزول هذا الذي منحته إياه. وكذلك هو شأن أيةِ لذة يتلبّسُ بها صاحبها، فإنها مهما تكن كبيرة وجسيمة يظلّ صاحبها مهموماً من ألّا تدوم له هذه اللذّة، يقول الشريف الرضي:

قد مررنا على الديار خشوعاً ... ورأينا البنا فأين الباني
وجهلنا الرسوم ثم علمنا ... فذكرنا الأوطار بالأوطانِ
ما أقلّ اعتبارنا بالزمانِ ... وأشدّ اغترارنا بالأماني[2]

---

(١) محاضرات الأُدباء ١: ٣٧١، وفيه: ذلّ الخدود، ٦٩٠.

(٢) ديوان الشريف الرضي: ٤٥٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦٣، قال ابن أبي الحديد: وهذا شعر فصيح نادر معرق في العربية.

فالإنسان يُرىٰ دائماً يحذر خوف الفوت فيلاحقه هذا الشعور في كلِّ لذة من اللذائذ، وهذا المعنىٰ هو الذي أشار إليه أبو الطيّب المتنبّي:

أبـــداً تســـترد مـا تـهب الدنـ ـيا فيا ليت جودها كان بخلا[1]

وهكذا حال الدنيا تُعطي فسحةً من الوقت فيشعر المرء فيها ببعض الراحة، لكنها في المقابل تأخذ منه قوتهُ وتجعله يزحف نحو الفناء:

أليس ورائـي إن تـراخت منيتي لزوم العـصا تـحنو عـليها الأصـابعُ[2]

وهذا هو مفهوم الآية حينما تقول: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فهنالك ـ أي في يوم القيامة ـ لا أحد يستطيع أن يُخرج أحداً من داره التي سيذهب إليها، فمهما كان العطاء فهو في ظلّ رحمة الله، وهذا هو النعيم.

دور الإسرائيليات في تراثنا

إنني أستغرب حينما أقرأ في كتب التفسير عند المسلمين وأرىٰ فيها هذه الإسرائيليات التي تلعب في تفسيرنا دوراً تخريبياً كبيراً، وهو أمر لا زال يستعمر عقول البعض وأقلامهم إلى الآن بشكل يدعو إلىٰ الضحك والسخرية من قبيل أن الله تعالىٰ يُعطي للمؤمن كذا قصراً، وغالباً ما يكون للرقم سبعة الحظ الأوفر والنصيب الأكبر؛ من مثل ما يروى من عن كعب أنه قال: «سأصف لكم منزل الرجل من أهل الجنة كان يطلب في الدنيا حلالاً، ويأكل حلالاً حتى يلقى الله

---

(١) ديوان المتنبّي ٢: ٤٠٥. شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٦، يتيمة الدهر ١: ٢٦٢، ومنها:

فكفت كون فرحة تورث الغـ ـمّ وخلّ يغادر الوجد خِلّا

وهي معشوقة على الغدر لا تحـ ـفظ عهداً ولا تتمّم وصلا

كلّ دمع يسيل منها عليها وبفكّ اليدين عنها تخلّى

(٢) البيت لِلَبيد. التبيان ٧: ٨٠، مجمع البيان ٦: ٣٧٣، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٥٩.

على ذلك؛ فإنه يعطى يوم القيامة قصراً من لؤلؤة واحدة ليس فيها صدع ولا وصل، فيها سبعون ألف غرفة، وأسفل الغرف سبعون ألف بيت، كلّ بيت سقفه صفائح الذهب والفضّة، ليس بموصول.

ولولا أن الله سخّر له النظر إليه لذهب بصره من نوره. عرض الحائط اثنا عشر ميلاً، وطوله في السماء سبعون ميلاً، في كلّ بيت سبعون ألف باب، يدخل عليه في كلّ بيت من كلّ باب سبعون ألف خادم لا يراهم من في هذا البيت ولا من في غير هذا البيت. فإذا خرج في قصره صار في ملكه مثل عمر الدنيا، يسير في ملكه عن يمينه وعن يساره ومن ورائه...»[١]. إلىٰ آخر هذا الكلام. في حين أن رسول الله ﷺ يقول: **«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[٢]. فالمؤمن في ظلّ رحمة الله وفي فيض عطائه وجُوده، ولا ضرورة حينئذٍ لهذه الحدود (الطول والعرض والحجم) التي نراها في بعض الروايات.

المبحث الخامس: في معنىٰ السعادة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ**

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٦ - ١٧٧، ومثلها ما عن أنس بن مالك أنه قال: «إنه لفي خيمة من درّة مجوّفة ليس فيها صدع ولا وصل، طولها في الهواء ستّون ميلاً، في كلّ زاوية منها أهل ومال، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب، يقوم على كلّ باب منها سبعون ألفاً من الملائكة...».

وعن ابن عباس ﵁ أنه قال: أخسّ أهل الجنّة منزلاً يوم القيامة له قصر من درّة جوفاء فيها سبعة آلاف غرفة، لكلّ غرفة سبعون ألف باب، يدخل عليه من كلّ باب سبعون ألفاً من الملائكة بالتحيّة والسلام».

الدر المنثور ٤: ٥٧.

(٢) مسند أحمد ٣: ٤٣٣، ٤٣٣، ٤٣٤، ٥: ٣٣٠، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠، سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٨ / ٤٣٣٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٣٠٠.

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، يختلف الفلاسفة في تعريف معنىٰ السعادة، لكن أغلبهم يقول: إنها الخلو من الألم. بمعنى أنه إذا لم تكن هناك آلام أو منغّصات تُنغّص على الإنسان حياته من فقرٍ وجوعٍ وخوفٍ وغيرها فهذا الإنسان يُعدُّ سعيداً، يقول الشاعر:

سلمان كسرة خبز والحصير وما ... بالنفس حزن ولا بالثوب أدرانُ

هي السعادة في الدنيا ويرفعها ... لو تمّ من بعدها لله رضوانُ

فالسعادة إذن هي أن يُصبح الإنسان سليماً معافى، وهي نعمة تستحقُ أن يُشكر اللّه عليها. إذن ما هو الشيء الذي أعده اللّه للمؤمن في الجنّة في قوله: **﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** واعتبره سعادة للمؤمن؟ **﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾**[1] إنّها ثلاثة أشياء، هي:

الأوّل: جنات الخلد

وهي جنات تجنب الإنسان المكاره؛ حيث لا يُخرج من دار يسكنها، ولا يخشىٰ من انقطاع طعامه عنه، ولا يخاف من أن يُسلب رزقه. فكل هذه الأُمور مكفولة له بعطاء اللّه ورحمته.

الثاني: الأزواج المطهّرة

ويختلف المفسرون في معنىٰ الأزواج هنا؛ فمنهم من يذهب إلى أنّها من المزاوجة، ومنهم من يذهب إلى أنّها من الزواج بمعناه المألوف. وللإمام

---

(١) آل عمران: ١٥.

الصادقعليه السلام هنا قول في هذه المسألة حيث يقول: «**هن نساؤكم، لكن الله يصنعهن**». أي أنه تعالىٰ يسلبُ عنهن النقائص التي كانت تعتريهن في الحياة الدنيا، ثم يعيدهن مطهّرات من كل دنسٍ: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ**﴾[1] بأن يستلّ من تلك الصدور الحقد والسلبيات ويجعلها طاهرة.

إذن الأزواج المطهرة في الآية الكريمة هن أزواج المؤمنين في الدنيا بعد أن يُطهرهن اللّه من الأرجاس والأدناس. وهذا الرأي لسنا وحدنا الذين نذهب إليه، بل إن بعض المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ تذهب إليه وإن كان كل الذي يُهمه هو أن تلتحق بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم به في الآخرة.

وقد يمتعض البعض فيقول: كيف بي إذا لحقتني زوجتي إلى الجنّة يوم القيامة؟ ونجيب هذا بأن نقول له: عليك أن تكون منصفاً عادلاً؛ لأنّه ليس هناك من إنسان يخلو من السلبيات سواءً كان ذكراً أو أُنثىٰ إلّا المعصوم. لكن بما أن المجتمع في الآخرة هو مجتمع سعادة فهو بالتأكيد سيكون مجتمعاً نقياً من هذه السلبيات بإرادة اللّه تعالىٰ.

وقد يستغرب البعض من حصول هذا، ولذا فإنني سأُقرب هذا المعنىٰ بالمثال التالي: إننا نلاحظ أن بعض الأرض تنبت باقة من الأزهار غايةً في الروعة من حيث ألوانُها وعطرُها، ثم يتناغم هذا الجمال مع أصوات الطيور وتغريد العصافير التي ترتادها، ومع الفراشات الملونة التي تحوم حولها. فالمشهد عبارة عن أمواج من الألوان تأخذ بالأبصار وأنغام سيمفونيات تسحرُ الأسماع وتأخذ بها بعيداً في عالم الروعة والجمال. فهل إنّ الأرض السبخة تستطيع أن تنبت هذه الأزهار،

---

(١) الأعراف: ٤٣.

وأن تمنح كلَّ هذا الجمال؟ طبعاً لا؛ لأنّ اللّه تعالى هو الذي صنع كلَّ هذا وصوّره وأبدعه، وهو الذي أراد أن يجعله في غايةٍ من هذا الجمال.

وهذا الشيء نفسه ينطبق على المرأة، فالمرأة المليئة بالسلبيات ليس بعسير على اللّه تعالىٰ أن يستلّ منها كلّ تلك السلبيات. ثم إن الرجال كذلك أيضاً فليست السلبية مختصة بالمرأة فقط، والتاريخ يحدثنا أن هناك رجالاً بلغوا الحضيض في الرداءة. لقد وصلتني شكاوىٰ من بعض النساء عن أزواجهن الذين ينتظرن منهم أن يملؤوا بيوتهن حناناً وعطفاً وسعادة، لكنهن يُصدمن بحقيقة أنهم يبحثون عن المتعة خارج البيت لاهين عن بيوتهم وواجباتهم تجاه أسرهم. وهذا أمر عجيب، ونريد أن نسأل هؤلاء فنقول لهم: من الذي وجّهكم إلى هذا البلاء؟ ومن الذي أرشدكم إليه؟ عفّوا تعفَّ نساؤكم.

والمتعة حكم شرعهُ اللّه تعالىٰ لظروفٍ استثنائية كالسفر إلى أماكن بعيدة كما لو أن طالباً أراد السفر إلى الغرب للدراسة، فحينما تشتدُّ به الحاجة فإنه يلجأ إلى هذا الزواج؛ ليعفّ نفسه عن الوقوع في الحرام، أو كأن يكون هناك حاجز نفسي يبعده عن زوجته ولا يستطيع مفارقتها لأجل أطفاله أو عشرته معها.

فحالات من هذا القبيل تبرّر اللجوء إلى زواج المتعة، لأنّ هؤلاء يضطرّون إليه اضطراراً، أمّا إذا كان هؤلاء قد كفاهم هذا الأمر الحلال وهو الزواج الدائم، فما الداعي لأن يلجؤوا إلى هذا الطريق واللهاث وراء أعراض الناس؟ سئل الإمام الكاظم عليه السلام عن المتعة فقال: **«وما أنت وذاك؟ فقد أغناك الله عنها»**[1].

---

(١) الكافي ٥: ٤٥٢ - ٤٥٣ / ١، باب أنه يجب أن يكفّ عنها من كان مستغنياً. ومن أحاديث هذا الباب ما رواه عن الصادق عليه السلام: «دعوها، أما يستحي أحدكم أن يُرى في موضع العورة؛ فيحمل ذلك على صالحي إخوانه وأصحابه؟».

فهذا الزواج كالعلاج الذي يلجأ إليه الإنسان عند الضرورة، وبالمقدار الذي يشعر به الرجل من الغيرة على زوجته حينما يُزاحمهُ عليها رجل آخر تشعر الزوجة حينما تُزاحمها امرأة أُخرىٰ على زوجها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[1]، والعدل هو وضع الشيء موضعه، لكن المشكلة أن بعض الرجال هو بنفسه مأساة. إنّ اللّه تعالىٰ يريد لبيوتنا أن تكون طاهرةً عفيفة ليس فيها ما يخدش نقاءها وعفافها.

وليعلم الإنسان بأن ليس كلُّ ما يشتهيه في الحياة الدنيا يمكنه أن يحصل عليه بمجرد أن يكون قد ملك المال؛ لأنّه يجب أن يضع في حساباته أن المال ينبغي ألّا يحول الإنسان إلى كائن منحطّ خلقياً لا يعترف بقيمه الأخلاقية، ولا يخضع للمواضعات العرفية. ثم إنّ من الجميل بالإنسان أن يكون في طريق الكرامة، وأن يسير في طريق العدل الذي هو طريق اللّه تعالىٰ.

وهناك قضايا أوكلها اللّه تعالى إلى أخلاقنا فيجب أن نتصرّف إزاءها بميزان العدل، وأن نعالجها بقانون الحقّ، فكما أنّ الرجل له مشاعر وأحاسيس يتوجب على المرأة أن تراعيها له، فكذلك المرأة لها تلك المشاعر والأحاسيس التي يتوجب على الرجل أن يُراعيها لها وأن يحفظها لها، وكما يحب الرجل في زوجته خصلة العفاف والإحصان فكذلك الزوجة تحب من زوجها أن يكون عفيفاً محصناً: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾[2]، وفي آية أُخرى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

فالواقع أن الرضوان هو فوق كلّ شيء سيما إذا كان رضوان اللّه تعالى، حيث

---

(١) النحل: ٩٠.
(٢) آل عمران: ١٥.
(٣) التوبة: ٧٢.

يعيش الإنسان في ظلال رحمته، يُقبل فيها عليه بوجهه الكريم. وهي لفتة تعدل الدنيا وما فيها وإن كان أمدها لحظة واحدة: **«أفترى من أقبلت عليه بوجهي، أيعلم أحد ما أُريد أن أعطيه؟»**(١). (نسأله تعالىٰ ألّا يحرمنا من عطائه بحقّ وجهه الكريم ونبيه العظيم، وبحقّ آله الطيبين الطاهرين).

المبحث السادس: في عطاء الإمام الحسين عليه السلام

فوجه اللّه تعالىٰ يجب أن ينشد دائماً؛ ولهذا نرى أنّ هذا الوجه الكريم لا يفارق النفوس الكبيرة ولا يُبارحها.. النفوس التي تترفع عن مستوىٰ هذه الدنيا:

فإنْ تكنِ الأبدانُ للموتِ أُنشِئَت ... فَقَتلُ امرئٍ بالسَّيفِ في اللهِ أفضلُ(٢)

وفعلاً كان هذا شأن الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنّ العطاء لا ينقطع فيما إذا كان في اللحظات الأخيرة، وها هو الإمام الحسين عليه السلام يرمق السماء ببصره الشريف وهو مثخن بجراحه التي كانت تمنعه من الحركة؛ فعزيز عليه ألاّ يتحرك وصوت أُخته الحوراء يُطبّق الأجواء حوله ويملأ مسامعه: «يابن أُمي يا حسين، نور عيني يا حسين، إن كنت حياً فأدركنا؛ فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلىٰ اللّه». ولم يكن يقدر علىٰ تلبية ندائها، فيمدّ طرفه الشريف إلى السماء وقال: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ، يا غياث المستغيثين»**(٣).

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٤١٩، بحار الأنوار ٦٧: ٢٦ / ٢٨.

(٢) بيت ينسب من ضمن أربعة أبيات للإمام الحسين عليه السلام، وهناك من رواها ثمانية. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٤، البداية والنهاية ٨: ٢٢٨، مختصر تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٣٣، حماسة الظرفاء ١: ١٨١، الفتوح ٥: ٧٢، ينابيع المودّة ٣: ٨١.

(٣) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

تـركت الخلق طرّاً في هـواكا ... وأيـتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني بالحبّ إرباً ... لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا[1]

وفي هذه اللحظات.. وفيما هو ﷺ متّجه إلى اللّه تعالى كانت أُخته وباقي العلويّات ونساء الأنصار يراقبنه من بين أطناب المخيم، وزينب الحوراء عليها السلام تصيح: «أخي أدرك العيال؛ فقد هجمت عليها خيول الظالمين».

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها ... رُعباً غَداةَ عَليها خِدرَها هَجموا
عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختَلَفَت ... أيدي العدوّ ولكن من لها بِهِمُ
كانت بحيث عليها قومها ضربت ... سرادقاً أرضه من عزهم حرمُ
يكاد من هيبة ألّا يطوف به ... حتى الملائك لولا أنهم خدمُ
فغودرت بين أيدي القوم حاسرة ... تسبى وليس لها مَن فيه تعتصمُ
عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختلفت ... أيدي العدوّ ولكن من لها بِهُمُ
كلٌّ تلوذُ بأُخرىٰ خوفَ آسِرِها ... لَوذَ القَطا خوفَ بأسِ الباشِقِ الضَّخِمِ[2]

يقول حميد بن مسلم: رأيت طفلة خرجت ترتعد والنار قد استعرت بأطراف ثيابها، فدنوت منها لأُطفئ تلك النار، فرأيتها ترتعش أمامي كالسعفة حين تحرّكها الرياح، ثمّ قالت: يا هذا، أنت لنا أم علينا؟ فقلت: سيدتي، لا لكم ولا عليكم. قالت: هل قرأت القرآن؟ فقلت: نعم قرأته. فقالت: ألم تمرّ بك هذه الآية؟ قلت: أي آية تعنين؟ فقالت: قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾[3]. قلت: بلىٰ قرأتها. قالت: أتعرف من أنا؟ قلت: لا. قالت: أنا يتيمة أبي عبد اللّه

---

(١) بيتان ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.
(٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣. (٣) الضحىٰ: ٩.

الحسين عليه السلام. فقلت: بنية إلىٰ أين؟ إنّي أخشىٰ أن تأخذك حوافر الخيل. قالت: ذكرت لي عمتي البارحة أن لنا بالغري قبراً، وأنا أُريد أن أذهب إليه. فقلت: بنيتي، إن بينك وبين الغري مسافة بعيدة. فقالت: إذا كان كذلك، فدلّني علىٰ نهر العلقمي.

يقول حميد: فقلت: وما تفعلين هناك؟ قالت: إن هناك لنا بطلاً:

أأخيّ من يحمي بنات محمدٍ إن صرن يسترحمن من لا يرحمُ

﴿١٥٨﴾

قضايانا بين القرآن والموروث السلفي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن هذه الآية الكريمة تشتمل على مضامين عدّة، نذكر منها ما يتّسع له المقام كلاًّ في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالىٰ:

المبحث الأوّل: نظرتنا الواقعية إلى عدالة الصحابة

وهذه الآية الكريمة من سورة براءة (التوبة)، وهي السورة التي يُسميها المفسّرون الفاضحة؛ لأنها سلطت الأضواء على سلوك كثير ممن عاصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعاش ضمن نطاق الذين يُسمونهم المنافقين. فهذه الشريحة من الصحابة سلطت عليهم سورة التوبة التي منها آية المقام الأضواء، وفضحت اتّجاهاتهم وانحرافاتهم وتصرفاتهم وأعمالهم. وفي هذه السورة دلالة واضحة وبرهان قوي، بل أقوىٰ الأدلة وأصحّ البراهين على أنّ موضوع الصحبة هو موضوع غير عاصم

---

(١) التوبة: ٦٥.

لصاحبه، ولا يُعطيه مناعةً ضد النقد والتقويم كما يتصوّرها البعض؛ لأنّ النظرية السائدة أن الشخص بمجرد أن يعاصر النبيّ ﷺ ويكون إلى جانبه فإنّه يكتسب حصانةً ومناعةً تحول دون من يحاول أن يتعرض له أو يقدح فيه.

وهذا في الواقع خلاف منهج القرآن الكريم، وأُحبّ أن أُنوّه إلىٰ إنّه ينبغي ألّا يُفهم منا أن منهجنا هو اتجاه يرمي إلىٰ هدم عدالة الصحابة، أبداً؛ إذ أن جزءاً من الواسطة التي بيننا وبين رسول الله ﷺ يمرّ عبرهم. وفي الوقت نفسه فإن الصحابة عاشوا جوّاً لا يتيسر للآخرين أن يحصلوا على مثله؛ لما فيه من ألوان روحية صافية، لكن هذا لا يعني أنّ كلَّ من عاش في هذه الفترة ولو كانت ساعةً ـ كما يدّعيه البعض ـ أصبح معصوماً، ولا يمكن أن تناقش تصرّفاته كافّة، أو أن يتطرّق الشكّ إليه في سيرته أو إيمانه [١].

وهذا المقياس غير مقبول؛ لأنّه في حقيقته ضحك على العقول؛ فسيرة العقلاء تأبىٰ هذا، ولا يمكن الإقرار بأنّ كل من عاصر الرسول الأكرم ﷺ هو معصوم. وهؤلاء الذين عاصروا الرسول ﷺ هم من البشر شأنهم شأن غيرهم في كلّ ما هم فيه من إمكان الوقوع في الخطأ والمعصية؛ فإن ثبتت عدالته وثبت صلاحهُ كان موضع احترامٍ وتقديرٍ كبيرين؛ لأنّه قد اكتسب شرفاً كبيراً بصحبة النبيّ ﷺ التي يشترط فيها كما قلنا استقامة صاحبها وإيمانه ووثاقته وعدالته.

وهذا هو منهجنا الذي هو منهج القرآن ومنهج السنة النبوية الشريفة. ولو رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لوجدنا أنهما يُقيّمان الصحابة تقييماً موضوعياً عادلاً. ولو نظر أحد في كتب الصحاح سيما (صحيح البخاري)

---

(١) وكأنه من حقّه أن يتّصف بأنه: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٣.

و(صحيح مسلم)، وبالذات أخبار الحبّ وغيرها، لوجد كيف أنّها تُصور لنا الصحابة. فمنهجنا لا يتعدىٰ هذا، وهو عين المنهج الذي رسمه كلّ من القرآن والسنة النبوية المطهرة بالنسبة إلى هذه الطائفة من الناس. والذي يتصور أن لدينا هدفاً نريد أن نهدم به عدالة بعض الصحابة فهو واهم مخطئ، فنحن نعتزّ غاية الاعتزاز بمن يرتبط بالنبيّ ﷺ برباط العقيدة والإيمان من قريبٍ أو من بعيد، بشرط أن يكون على سنّته وعلى هديه وسيرته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

إنّ سبب نزول هذه الآية الكريمة هو أنّ النبيّ ﷺ كان خارجاً إلى غزوة تبوك ـ وقيل: عند رجوعه من تبوك ـ وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين: اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك، وكانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم، ويفتح مدائنهم فما أبعده من ذلك، وأنه يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه.

فأطلع الله نبيه ﷺ على قولهم، بأن أهبط عليه جبرائيل عليه السلام وجلّى الصورة أمامه، فقال ﷺ: **«احبسوا على الركب»**. فدعاهم وقال لهم: **«قلتم كذا وكذا»**. فلمّا فاجأهم رسولنا الأكرم ﷺ بهذا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي كنا نتحدّث ونخوض في الكلام، كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

والخوض هو أن تستنقع قدم الإنسان في مائعٍ رطبٍ أو في طين. أمّا اللعب فهو عبارة عن إنزال النفس منزلاً على وجهٍ ينافي الحكمة؛ في سبيل أن ترتاد مسالك اللذة. فهؤلاء قالوا للنبيّ ﷺ: **﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾**. وهذا المعنىٰ فيه استعارة، أي أنّهم يريدون أن يقولوا: إننا غير جادين في هذا الكلام، فردّ عليهم

الرسول ﷺ قائلاً: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي ألا يوجد عندكم ما تخوضون وتلعبون به غير مقدّساتكم؟

يقول عبد اللّه بن عمر: «كان أحدهم ويدعى وديعة بن ثابت[١] يشتدّ امام رسول الله ﷺ وقد أمسك بعقب ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكبه، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾..»[٢].

المبحث الثالث: أن المنافقين كانوا منهزمين من الداخل

ففي الآية الكريمة تصوير واضح لهذه الحالة التي كانت تتملك هؤلاء، وهي حالة تنافي ما كان يُريده الإسلام من الطبيعة التي يجب أن يكون عليها المسلمون، إذ أنه كان يعمد إلىٰ بناء المسلم بناءً قائماً على أساس التعبئة الداخلية. وهذه التعبئة السليمة هي الأساس الذي بُنيت عليه دولة الإسلام، وهي السبب الذي كنا نرىٰ عبره مبرّرات انتصار المسلمين في معاركهم ضدّ قريش وجبروتها وضدّ القوتين الكُبريين السائدتين آنذاك. فمن غير المعقول مثلاً أن ينتصر المسلمون في معركة بدر وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً على جموع قريش وجبروتها وأسلحتها وحقدها، في الوقت الذي لم يكن لأصحاب النبيّ ﷺ سوىٰ بضعة سيوف وبضعة نوق وبعض أسلحة بسيطة.

فانتصارهم هذا دون شك راجع إلىٰ التعبئة الإيمانية التي عبأهم بها الرسول ﷺ، والتي كانت تزلزل الأرض تحت أقدام الجبابرة بحيث إنها كانت

---

(١) في المصدر أنه عبد الله بن أبي.

(٢) مجمع البيان ٥: ٨١ – ٨٢، تفسير البغوي ٢: ٣٠٨، التفسير الكبير ١٦: ١٢٢ – ١٢٣.

بمقدارٍ لو أن أُمم الأرض تداعت عليهم من كلِّ مكان لهزموها؛ لأنّ التعبئة النفسية هي الأساس الذي يحقق كلَّ نصر، وهي السلاح الأوّل الذي يجب أن يتسلح به المقاتل. ولو إننا رجعنا إلى العقيدة العسكرية عند الدول المعاصرة لوجدنا أن عندهم فرعاً من فروع علم النفس اسمه علم النفس العسكري، وفرعاً من فروع علم الاجتماع اسمه علم الاجتماع العسكري. ومهمة علم النفس العسكري هي تعبئة الفرد تعبئةً كاملة، فهي تزوّده بسلاحين:

الأوّل: التعبئة النفسية

وهي عملية يُهدف منها إلىٰ أن يؤمن هذا المقاتل بأن العسكر الذي سيقف قُبالته سينهزم أمامه؛ لأنّه كيان منخور ويعيش حالة من الهزيمة الداخلية، وهو عسكرٌ ليس لديه عقيدة بخلافه هو؛ حيث إنّه يمتلك عقيدة تؤهّله لأن يصمد بوجههم، وتُشعره بأنه ذاهب إلى اللّه دون أن يكون ذلك الشعور موجوداً عندهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[١].

فهذه التعبئة تُقنعهُ بأنّه ذاهب إلىٰ الحياة الدائمة المليئة بالنعيم: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢].

ظروف التعبئة النفسية في الإسلام

إن التعبئة النفسية في الإسلام تقوم على جملة من الأساسات منها: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٣]، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾[٤].

---

(١) المؤمنون: ٣٧.
(٢) آل عمران: ١٦٩.
(٣) النساء: ١٠٤.
(٤) آل عمران: ١٤٠.

فهاتان وسيلتان من وسائل التعبئة التي اعتمدها الإسلام الحنيف ورسوله الكريم في تعبئة المسلمين ضدّ الكفر وأهله في مرحلة نشر الإسلام في الأرض. وهكذا فإن أوّل ما يُعبّأ به الجندي هو السلاح النفسي، حيث إنّه يُملأ إيماناً واعتقاداً بأنّه قادم على اللّه ومقبل على ساحته، وأنّه بهذا سينال رضاه وجنانه، ويُشبّع بفكرةِ أن هذه القضية هي قضيته، أو أنها لن تذهب سُدى.

ومعنى هذا أنّ اللّه تعالىٰ سيضمن له الخلود في الدنيا والآخرة؛ لأن الخلود في الدنيا كان يلعب عندهم دوراً كبيراً، وهنا نجد أن هذه التعبئة تقول له: إنك لن تفنىٰ، وإنّما ستنتقل إلى حياة أُخرىٰ. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنك ستأخذ جزاءك في الحياة الآخرة عن كلّ قطرة دمٍ سفك منك. ومن ناحية ثالثة إنك ستخلق العزّة لأُمّتك والمجد لأبناء دينك، وستترك لهم إرثاً كريماً مخلّداً. فكلُّ هذا ستحصل عليه عن طريق الشهادة.

فالتعبئة النفسية تتجه دائماً إلىٰ ملء هذا الفرد، وتقول له: إنك ستأخذ هذه المزايا جميعها؛ وعليه فأقدم ولا تُحجم؛ لأن إقدامك متعيّن في مثل هذه الموارد.

الثاني: التعبئة المسلّحة

ثم بعد هذا كلّه يأتي دور التعبئة المادية أو تعبئة السلاح، فمعلوم ما للسلاح من أهميّة ودور في تعزيز ثقة المقاتل بنفسه، وبتحقيق النصر عنده، لكن مع هذا تبقى للتعبئة النفسية أثرها الأكبر في خلق أجواء ذلك، فالمقاتل حينما يُسلّح من غير عقيدة فكأنّه لم يُسلّح، يقول أحد الشعراء:

أيها المستعير ألف سلاح ... لأعاديك كل ما تستعيرُ

هزّك الذعر لا الحديد ولا النا ... رُ وعبء على الوغى المذعورُ

أغــرور عــلى الفــرار لقــد ذا　　ب حــياءً من الغَـرور الغُـرورُ
القصور المحصّنات إلى الجبـ　　ـــن حــماها خـورنق وسـدير

فالإنسان في الواقع حتىٰ لو زُوّد بأحدث الأسلحة وأعتاها لكن لم يُزود بعقيدةٍ عسكريةٍ قائمة على أساس التعبئة النفسية، ولم يكن لديه إيمان بقضيته التي يُقاتل من أجلها وبعدالتـها فـإنّه سـينهزم عـند أول مـعركة وفـي أوّلهـا، يـقول أمـير المؤمنين عليه السلام: **«ما لقيت أحداً إلّا أعانني علىٰ نفسه»**[1]؛ لأنّه يشعر بأنه سيقاتل علي بن طالب عليه السلام وهو مهزوم من الداخل، فقد كانت ضرباته عليه السلام بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ[2]، وبهذا كانت العرب تعتبر الفرار من الزحف عاراً إلّا من سيف علي عليه السلام. وكانوا يقولون: من يهرب من سيف علي بن أبي طالب، فلا تثريب عليه. وهذا عامل قوي، وهذا هو الاتّجار والنصر والفتح، يقول أحـد الأُدبـاء وكأنـه يخاطب الإمام علياً عليه السلام:

وعلى عـدوّك يـابنَ عـمِّ مـحمدٍ　　رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ
فــإذا تــنبَّهَ رُعــتَهُ وإذا غــفا　　سلّت عليه سـيوفَك الأحـلامُ[3]

وهكذا نجد أن هذا اللون من التعبئة يلعب دوراً كبيراً في إحراز النصر وإلحاق الهزيمة بالعدوّ، وهو اللون عينه الذي اعتمدهُ الرسـول الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم فـي تـهيئة جيوش المسلمين وإعدادها. وقد وصل الأمر حدّاً كان المسلمون مـعه واثـقين بأنفسهم ومن انتصارهم حتىٰ قبل تسليحهم؛ لأنهم لم يكونوا يـحملون سـلاحاً

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٣١٨.
(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.
(٣) البيتان لأشجع بن عمر، وقيل: لمروان بن أبي حفصة، قالهما في المتوكّل العباسي. مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧، ونسبهما البكري وابن عساكر لأشجع بن عمر في الرشيد، معجم ما استعجم ٢: ٥٨٤، تاريخ مدينة دمشق ٩: ١٠٧.

كذلك السلاح الذي كانت تحمله الجيوش التي تقابلهم.

ولأُقربُ المعنىٰ بما ينقلهُ المؤرخون عن معركة بدر من أن المسلمين كانوا يقاتلون بجريد النخل. وهذا من الأمور العجيبة لأنّهم كانوا يقابلون طلحة بن أبي طلحة الذي أراد أن يضع بيضة على رأسه يومها، فلم يجد، لعظم رأسه، فأتوه بثلاث عصائب وصلوها ببعضٍ فدارت على رأسه. وكان بطلاً ضخم الجثة، ومع ذلك فإن المسلمين قابلوه وقابلوا أمثاله بجريد النخل المدعّم بتلك التعبئة التي عبّأهم بها رسول اللّه ﷺ.

وكمثالٍ آخر كان عمرو بن الجموح شديد العرج (أي أنّ الجهاد ساقط عنه؛ لأن المعركة تحتاج كرّاً وفرّاً، وذهاباً وإياباً وهذه العاهة تمنع ذلك وتحول دونه) لكنه أبىٰ إلّا أن يجاهد، وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يتوجّه إلى أُحد قال له بنوه: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لك رخصة؛ فلو قعدت، فنحن نكفيك؛ فقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أُستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنّة. فقال له رسول الله ﷺ: **«أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد»**. وقال لبنيه: **«وما عليكم أن تدعوه؛ لعلّ الله يرزقه الشهادة؟»**. فهذامعبأ نفسياً بهذا اللون من التعبئة الرساليّة.

وهكذا أذن له النبي ﷺ في أن يجاهد حينما رأى إصراره على الجهاد، وفعلاً فخرج مع رسول الله ﷺ، وكان أحد المعلّمين (والمعلّم هو الذي يضع إشارة في الحرب)، وكان معلّماً بعمامة صفراء، فقتل يوم أُحد شهيداً[1].

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٢٤، الاستيعاب ٣: ١١٦٨ - ١١٦٩ / ١٩٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٦ - ٢٢٧. وفي (الاستيعاب) أن رسولنا الأكرم ﷺ قال: «لقد

وكمثالٍ ثالث كان أحد الصبيان ويُدعىٰ رافعاً قد جاء في موقعه أُحد إلىٰ النبيّ ﷺ ليخرج معه إلىٰ القتال، وكان يعلم أن النبيّ ﷺ لن يأذن له في الخروج إلىٰ القتال؛ لأنّ من شروط الجهاد البلوغ وهو صبي لم يبلغ بعد، وكان قصير القامة، فراح يبحث عن ربوة يعلوها ويتطاول حتىٰ يراه النبيّ ﷺ ويأذن له في الخروج، فلما نظر إليه النبيّ ﷺ تبسّم وأذن له بالخروج للجهاد.

فالمسلمون كانوا معبّئين تعبئة كافية تُغنيهم عند القتال عن كل سلاح؛ لأنّ الجندي إذا حمل هذه الروح كان حقاً أن يُنتظر منه هذا الفتح وإلّا (أي إن لم يحقق الفتح) فإنها عقيدة ضحلة تستعمر السطح ولا تصل إلىٰ الأعماق، وبالنتيجة فإنه لا فائدة تُرجىٰ منه هنا. ولهذا وكان أميرالمؤمنين يقول: **«لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم»**[1].

أي أنه عليه السلام يروم أن يقرّر بقوله هذا أنه يريد من يقف معه وليس من يتفرّج أو يحمل شعاراً فارغاً، فالشعار الفارغ لا يفضي إلىٰ نتيجة أبداً، بل يُراد من الشعار أن يتجسّد على شكل فعل. ومن يفعل ذلك فهو الذي يصنع التاريخ ويغير المواقف.

☚ رأيته يطأ في الجنة بعرجته».

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٩٧. وهي خطبة تنمّ عن كبير ألم كان يعتمل في صدر أمير المؤمنين عليه السلام، وقد جاء فيها: «أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه. لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم؛ فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم. يا أهل الكوفة منيت بكم بثلاث واثنتين: صمّ ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء. تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها، كلّما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر».

وهذا ما حدث فعلاً فقد غيّر هؤلاء النفر الثلاثمئة والثلاثة عشر وجه التاريخ والحياة والعلم، وغيّروا الحضارة. وكلّ ما في الأمر أن يوطنّ الإنسان نفسه على التضحية والفداء، وعلى العطاء حتىٰ يخلص في نهاية الأمر إلى النتيجة التي يبتغيها.

ولذا فإن هؤلاء المرجفين كانوا منهزمين فعلاً كما أشرنا؛ فقد كانوا يرددون: أنّى لنا النصر على بني الأصفر، فأجابهم الله عزّ وجلّ على لسان الرسول ﷺ بأن نصر اللّه تعالى لا يرتبط بكثرة وقلّة، ولا علاقة له بسلاح: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1]. فاللّه تبارك وتعالىٰ يمنح النصر إذا كان الجيش يمتلك مقوّماته التي هي عبارة عن عملية التعبئة التي ذكرناها.

المبحث الرابع: أنّ الاستهزاء بالثوابت الإسلامية كفر

يستدل الفقهاء من هذه الآية الكريمة على أن من يستهزئ بالثوابت الإسلامية فهو كافر، فكلّ مادة من المواد التي أنزلتها السماء يجب أن تحترم وتقدس؛ فلا يجوز السخرية منها؛ لأنّ هذا معناه السخرية بحكمة اللّه وبتصميم السماء وإرادتها وتخطيطها. ولذا فإن عندنا أن من ينكر ضرورة من ضرورات الإسلام كافر من غير شك. ولهذا أيضاً إن على المسلم بعد تحصيل الحدّ الأدنىٰ من الإسلام ـ وهو الإيمان بوجود اللّه عزّ وجلّ وبوحدانيّته، والاعتراف برسالة نبينا محمد ﷺ وبأن اللّه ختم الأديان بها، وبالحشر والمعاد يوم القيامة ـ ألّا يعمل عملاً يؤدّي إلى إنكار ضرورة من ضرورات الدين؛ لأنّه إن فعل ذلك حُكم بكفره.

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

نظرة حول تنزيه الصحابة وكونه ضرورة إسلاميّة أم لا

وتبقىٰ في المقام مشكلة قائمة هي تحديد مفهوم الضرورة؛ لأن بعض المسلمين يعتبر أن شتم أي أحد من الصحابة كفر وإنكار لضرورة إسلامية. وهذا غير صحيح كما تقدّم؛ لأن اللّه تعالى تعبّدنا بأن نتّبع مقياساً وضعه لنا، وهو: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1].

فمن يسفكْ الدم ويستبحْ النبيذ ويعملْ المنكرات فليس من المعقول أن يوضع في مصافّ الصحابيّ المؤمن التقي الورع الملازم لطاعة اللّه؛ لأنّ ذاك ليس من الإسلام في شيء؛ لاستلزام عدّه كذلك نفي مبدأ العدالة التي تمثّل ركناً من أركان الإسلام. وكذلك الأمر مع من يُحلّ الربا ويستحلّه في تعامله، مع أنه تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

قيل لأحدهم: أنت تبيع الذهب بالذهب وتفاضل، وهذا ربا. قال: أنا لا أرىٰ به بأساً[3]. فهل إن مثل هذا حينما يُنتقد يعتبر منتقده كافراً؟ وهل يعدّ من العدل أن من يخالف حكماً إسلاميّاً صريحاً، وينكر ضرورة لا يعدّ كافراً؟ أي كلام هذا؟ إنه بطبيعة الحال كلام لا يصمد أمام المناقشة؛ لأنّ الاستهزاء بحكم من أحكام اللّه تعالى الثابتة ـ كما ذكرنا ـ يخرج الإنسان من ربقة الإسلام، ويرمي به في حضيض الكفر.

---

(١) الحشر: ٢٠. (٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) هو معاوية. انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.

دور الزكاة في بناء المجتمع الإسلامي

وقد يسأل سائل مستهزئاً: إنكم تريدون أن تؤسّسوا دولةً إسلامية، فهل تخطّطون لأن تجعلوا وارداتها المالية من الزكاة التي لا تتجاوز نسبة (٥ر٠ ٪)؟ ونُجيب مثل هذا المتسائل بقولنا: ما أنت وهذا؟ وما الذي تعرفه عن الموارد المالية في الإسلام حتىٰ تُشكل مثل هذا الإشكال؟ فهل إنّ الزكاة هي مصدر الإسلام الوحيد؟ وممّا يدلّ على جهل هذا المتسائل أنّ الزكاة ليست قناةً ماليةً تصبّ في بناء هيكل الدولة الإسلامية، بل إنّها صندوق ضمان اجتماعي للمحتاجين يعمل على الارتقاء بمستوىٰ حياة المسلم، ورفع حالته المعاشيّة.

فالمسلم عندما يهزأ بدينه يسخر منه بهذا الشكل مع أنه يرىٰ بعينيه كل النظم الاجتماعية المعاصرة قد هُزمت ولم تستطع أن تحقق الرفاه للمجتمع، ومع أنه أيضاً يرىٰ في تاريخه صوراً مشرقةً لتحقيق الرفاه في المجتمع الإسلامي عن طريق هذه الزكاة التي يستهزئ بها فإنّه يكون قد أنكر ضرورة من ضرورات الإسلام الموجب إنكارها الكفر. إن الدولة الإسلامية حينما أُسّست حملت إلى الدنيا وجهاً مشرقاً أضاءَ سماء العالم، وهذا واضح في السيرة الخيّرة التي كان عليها رموز الإسلام من ذوي الإيمان والورع والتقىٰ.

وينبغي التنويه هنا إلىٰ أنّ بعض الشخصيات ينبغي أن لا تعدّ على أنها تمتّ إلى الإسلام بصلة أو أنها تحسب عليه، كالحجّاج بن يوسف، وهذا هو الذي يتّبعهُ البعض مع أنّه جوهر المشكلة. وربما يكون للبعض مبرر في هذا، فيقول: هذا الحجاج الذي تحاولون إنكار كونه رمزاً إسلامياً، أليس هو أميراً مسلماً، وقد أضفت الخلافة على إمارته طابعاً شرعياً؟

والجواب على هذا التساؤل أن نقول: إن هذا الفكر يجب ألّا يستحوذ على

أذهان الناس؛ لأنه فكر البلاط والسلطة التي أرادت أن تغزو به عقول النـاس.. فكر البلاط الذي تتكلّم به في كلّ وقتٍ وآنٍ بمناسبة وغير مناسبة، أمّا فكر الأُمّة فلا يعتبر الحجّاج ولا نظائره من رموز الإسلام أو رجالاته، بل على العكس من ذلك فإنه يقف بوجوههم ويُناهضهم، ويتواصىٰ أبناؤه بذلك: ﴿**وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**﴾[(١)]، جيء بامرأة في أيام أحد الخلفاء الأُمويّين: فلمّا رآها لا ترفع رأسها إليه قال لها: أنا أُكلّمك، فلمَ لا ترفعين رأسك إليّ؟ فقالت له: إني أكره النظر إلىٰ وجه يكره اللّه النظر إليه. فهؤلاء في الواقع لا يمكن أن نُسميهم مسلمين،

على أية حال إن هذا التصرّف التعبوي ليس خيالاً، وإنّما هو سلوك نابع من التربية، فالإنسان إذا امتلك لوناً من العنفوان وعرف أن مصيره إلىٰ الموت فـإنّه حينئذٍ يأنف أن يموت منهزماً، بل إنه سوف لن يفكر سوىٰ أن يحمل العزّ:

ولوَ ان الحـياة تـبقى لحـيّ	لعـددنا أضـلّنا الشـجعانا
وإذا لم يكـن مـن المـوتِ بـدٌّ	فمن العارِ أن تموتَ جبانا[(٢)]

المبحث الخامس: في اشتراط القصد في العقد

اختلف الفقهاء في الأحكام غير الثابتة فيما لو وقعت بصيغة الهزل، من حيث وقوعها وكونها لازمـة مـعه أم أنـها ليست كـذلك؛ كـالعقود مـن مـثل الزواج، والإيقاعات من مثل الطلاق والرجعة بالمرأة، وكلُّ ما يدخل في دائرة الأحكام الإسلامية عدا قضية الإيمان باللّه ورسوله وقضية الأحكام الثابتة. فلو أن شخصاً باع شيئاً هازلاً وقبِل الثاني البيع وهو هازل أيـضاً، أو أنّ امـرأة قـالت لرجـل:

---

(١) هود: ١١٣.

(٢) ديوان المتنبّي ٢: ٤٧٤.

زوّجتك نفسي وهي هازلةً، وقال لها الرجل هازلاً: قبلت. فهل يعدُّ البيعُ أو الزواج هنا عقدين لازمين ثابتين في حقّ الطرفين أم لا؟

آراء فقهاء المسلمين في المسألة

إن فقهاء المسلمين ينقسمون حيال هذه المسألة إلىٰ ثلاثة أقسام:

الرأي الأوّل :أنّ العقود لا يشترط فيها القصود

وهذا الصنف من الفقهاء يذهب إلى أن جميع ذلك لازم؛ لأنّ الآية الكريمة تقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾**(١). وفيها إطلاق، وهو إطلاق أحوالي هنا؛ فكلُّ حالة من الحالات التي يكون فيها عقد فإنّه يكون لازماً.

الرأي الثاني:أن العقود يشترط فيها القصود

ويذهب أتباع هذا القسم إلى أن جميع العقود وما يشاكلها التي تقع بهذه الشاكلة أو بكلّ شاكلة ليس فيها قصد فهي عقود لاغية وغيرُ لازمة؛ فلا يقع البيع وغير ذلك من الأُمور التي تقع بمثل هذه الشاكلة غير القصديّة.

الرأي الثالث: أنّ بعضها لازم وبعضها لاغٍ

ويذهب أتباع هذا القسم إلىٰ أن بعض هذه العقود يعدّ عقوداً غير لازمة بالهزل كالبيع والشراء والإجارة وغيرها، أمّا الزواج والطلاق فيلزمان حتىٰ مع الهزل. ومستندهم في هذا رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث هزلهن جدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة»**(٢).

---

(١) المائدة: ١.

(٢) مواهب الجليل ٥: ٤٩، المغني ٧: ٤٣١، كشّاف القناع ٥: ٤١. ونسبه في المدوّنة الكبرى

وهذا الحديث ترويه كتب السنن. والحقيقة أن موضوع الطلاق عند بعض المذاهب الإسلامية متساهَل فيه كثيراً، ويحقّ للإنسان أن يستغرب من هذا، فقد وصل الأمر إلىٰ القول بوقوع الطلاق في كلّ حال ولو بقول الرجل لزوجته: أنت بريّة أو خليّة[1]. أو قال: أنت طلاق[2]. بل ولو أراد أن يقول: أنت طاهر، لكنه غلط في كلامه فقال: أنت طالق، وغير ذلك[3]. فهل من المعقول أن يدّعي إنسان أن الإسلام يهدم الأُسرة بهذه البساطة؟ وهل إنّ من الصحيح أن تُهدمَ الأُسرة بكلمة غير مقصودة تنعدم فيها الإرادة؟ وهل من الصحيح أن يُرتب على هذه الكلمة غير المقصودة أحكام الطلاق الذي يهتزّ له العرش[4].

إن هذه المسألة معقّدة، وتستحقّ التوقّف عندها والتروي فيها قبل الإقدام على إيقاعها؛ فأهمّ مشكلة تترتّب على الطلاق هي تشرذم الأطفال وضياعهم، وتركهم يصارعون الحياة إلى مصير مجهول. ومن مضاعفاته أيضاً أنه ينعكس سلبياً على المرأة المطلّقة نفسها.

هذا ما عليه المذاهب الإسلامية أمّا ما عندنا نحن الإمامية فغيرُ ذلك تماماً؛

☚ ٢: ١٩٨ لسعيد بن المسيب.

(١) انظر: الأُم ٥: ٢٧٨، رسالة أبي زيد القيرواني: ٤٦٨، المبسوط (السرخسي) ٦: ٨٠.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧: ١٠٥، ونسبه لمالك وأبي حنيفة.

(٣) كما لو أن رجلاً كانت له امرأتان، فنادى الأُولى باسمها ليطلّقها فأجابته الثانية: فقال: أنت طالق فإنها تطلق. انظر المغني ٨: ٢٨١. وكما لو نوى رجل أن يطلّق امرأته فإنها تصبح مطلّقة، انظر: الأم ٥: ١٢٩، ٧: ١٦٦، مختصر المزني: ١٩١، روضة الطالبين ٦: ٢٨، فتح المعين ٤: ٢١. وكما لو أن رجلاً قال لزوجته: يدك أو قدمك أو إصبعك طالق، فقد طلقت منه. مواهب الجليل ٥: ٣٤٥. وقال بعض: لو طلّق السكران صح طلاقه ووقع، انظر: مختصر المزني: ١٩٤ عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

(٤) مكارم الأخلاق: ١٩٧، عمدة القارى ٢٠: ٢٢٦، الجامع الصغير ١: ٥٠٥ / ٣٢٨٩.

إذ أن رأي المذهب في مثل هذه الحالات أن الزواج لا ينعقد وأن الطلاق لا يقع؛ إذ أنّ مثل هذين الأمرين يشترط فيهما أن يكونا عن قصد وإرادة، فلا هزل ولا إجبار أو إكراه، فأي عقد وأي إيقاع لابدّ فيه من ذلك، وحينها تترتّب عليه الآثار الشرعية؛ لأن بخلاف هذا يختلّ نظام المجتمع ويتفكّك.

إذن فالإنسان كيان عقلي وليس كياناً مبنياً على اللعب والهزل، واللّه عزّ وجلّ ميّز الإنسان عن الكائنات الأُخرى بالعقل الذي هو مناط التكليف، تقول الرواية الواردة عن أبي عبد الله ﵇ أنه قال: **«إن الله عزّ وجلّ لمّا خلق العقل قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، فقال الله تبارك وتعالىٰ: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلّا فيمن أُحبّ. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب وإياك أُثيب. ثم خلق الجهل فقال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فلم يقبل، فقال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أبغض إليّ منك، ولا أجعلك إلّا عند أبغض خلقي إليّ»**(١).

فالعقل يقرّب الإنسان إلى اللّه تعالىٰ، وهو **«ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان»**(٢)، والعقل هو الذي يقود الإنسان إلىٰ العمل المتّزن.

فإن كانت الأُمور خلاف ذلك وانعدمت الإرادة واللمحة العقلية، فإن التصرّف حينها يتحوّل إلىٰ كونه لعباً، ولا يجوز أن تُهدم حياة إنسان لمجرّد لعب أو كلمة هزليّة..الحياة الزوجية التي هي أقدس شيء عند الإنسان بعد دينه واعتقاده من وجهة نظر المشرّع الإسلامي. وعليه فإن الهزل لا يمكن أن يترتّب عليه أثر مطلقاً.

---

(١) الكافي ١: ١٠ / ١، ٢٠ - ٢٣ / ١٤، الخصال: ٥٨٨ - ٥٩١ / ١٣.

(٢) الكافي ١: ١١ / ٣.

المبحث السادس: الجوّ العام للآية

إنّ هؤلاء الذين خرجوا مع رسول اللّه ﷺ يُفترض بهم أن يكونوا عين الأُمة وأنهم إنما خرجوا ليُحقّقوا النصر لها. لكن الذي اتّضح كما أشرنا إليه هو أن هؤلاء كانوا منهزمين من الداخل، بل ويستهزئون بالقائد ﷺ وبرسالته وبآيات اللّـه. إذن كيف يمكن أن يُسمىٰ مثل هذا مسلماً. ومَن يمكن له أن يُحدّد إسلام شخص وسلوكه غير القرآن والرسول الأكرم ﷺ بما حدّد له اللّه تعالىٰ وبما افترض من أحكام. فإذا سخر هذا الخارج مع النبيّ ﷺ بهذه الأحكام فلا يمكن أن يُعدّ مجاهداً؛ لأنّ المجاهد هو الذي يخرج وهو يحمل على لسانه شعار الإسلام ويحمل في قلبه العزيمة وفي يده السلاح للدفاع عنه.

فهذه كُلّها يجب أن تتوافر عنده حتىٰ يُسمىٰ مقاتلاً؛ ولهذا ترىٰ أن هؤلاء قلّة، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا فقد أحداً من هؤلاء شعر بفداحة الفقد، بل تمنّى الموت. ولما سقط عمار جلس عند مصرعه يُفرغ ما في نفسه من حرارة ولوعة على هذه النفس الكبيرة والمصرع الذي يعدّهُ خسارة؛ لأنّ عماراً وأمثاله نماذج تعجز الدنيا أن تجود بمثلها. ولو رجعنا إلى تاريخ الجيوش وتاريخ الحركات والتضحيات لوجدنا أن بعض أفرادها يُعتبرون بمنزلة الروح في قلب الجيش. وحينما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

ألا أيّها الموت الذي ليس تاركي ... أرحني فقد أفنيت كلّ خليلِ

أراك بصيراً بالذين أُحبّهم ... كأنك تنحو نحوهم بدليلِ[1]

فإنه يقصد بالخلّة هنا الاتحاد بالنوايا والأهداف والاتجاه.

---

(١) بحار الأنوار ٣٣: ٢٠، ٧٥: ٨٨.

موقف أنصار الحسين عليه السلام من نهضته المباركة

وهذا اللون من النصرة والخلّة قد يأتي في لحظة من اللحظات التي تنتاب الإنسان، والتي يشعر فيها بأنّ عليه واجباً ينبغي أن يؤديه. وهذا هو حال الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، فقد خرج قسم منهم مصمّمين على التضحية من أول أمرهم، لكن هناك قسم آخر أدركتهم عناية السماء في لحظاتٍ حاسمة كالحرّ رضي الله عنه مثلاً، فقد سأله مهاجر بن أوس لمّا رآه يرتجّ ويرتجف، وقال: والله لو سئلت عن أشجع أهل الكوفة، لما عدوتك، فمالي أراك ترتجف؟ فقال له الحر رضي الله عنه: أنا لا أرتجف خوفاً، وإنما أنا أُخيّر نفسي بين الجنّة والنار، ووالله لا أختار على الجنّة بدلاً.

وكان يريد الخروج إلى الإمام الحسين عليه السلام والالتحاق به. وهكذا في لحظة واحدة انصهر هذا الرجل ذو النفس الكبيرة بروح الإمام الحسين عليه السلام وبوتقته، وأصبح جزءاً من هذا الاتّجاه المقدّس وهذه الروح الكبيرة.

وهناك صبيّ اسمه عمر، تدفع به أُمّه إلى المعركة التي استشهد فيها زوجها، وكانت قد خاطبته قائلة: بُني مالي أراك واقفاً؟ قال: وما أصنع يا أُماه؟ قالت له: اذهب وبيّض وجهي عند فاطمة الزهراء عليها السلام.. ابرز وجاهد بين يدي أبي عبد الله عليه السلام كما فعل أبوك ـ وكان أبوه جنادة بن الحارث السلماني قد خرج بعياله وولده إلى نصرة الحسين عليه السلام، فقاتل حتى قتل ـ ثم جاءته بالسلاح وقالت له: اذهب واعرض نفسك على الحسين عليه السلام، واستأذنه. فقال الحسين عليه السلام: **«هذا شابّ قتل أبوه، ولعلّ أمّه تكره خروجه»**.

ثم قال عليه السلام له: **«يا فتى، قتل أبوك، ولو قتلت فإلى من تلتجئ أُمّك في هذا القفر؟»**. فأراد أن يرجع، فجاءته أُمّه وقالت: يا بني، تختار سلامة نفسك على

نصرة ابن بنت رسول الله؟ فلا أرضى عنك أبداً. فرجع الشاب وقال: أُمّي أمرتني بذلك. ثم جاءت أُمّه نفسها إلى أبي عبد الله عليه السلام، وقالت له: يا أبا عبد الله، أتثكل الزهراء بولدها ولا أُثكل بولدي؟ فأذن له عليه السلام في القتال، فبرز وهو يقول:

أميري حسين ونعم الأميز ... سرور فؤاد البشير النذيز

علي وفاطمة والداه ... فهل تعلمون له من نظيز

له طلعة مثل شمس الضحى ... له غرّة مثل بدر منيز

وقاتل قتال الأبطال حتى وقع على الأرض، فقالت أُمّه: أحسنت يا بني. ثم أخذت عمود خيمة وحملت عليهم وهي تقول:

أنا عجوز سيدي ضعيفه ... خاوية بالية نحيفه

أضربكم بضربة عنيفه ... دون بني فاطمة الشريفه

وضربت رجلين، فأمر الحسين عليه السلام بصرفها ودعا لها[1]، وقيل: إنه عليه السلام التفت إليها قائلاً:

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جرّ الذيولِ[2]

ثم التفت إلى الأكبر وقال له: «**بني بادر إلى الصبي قبل أن تأخذه حوافر الخيل**». فقصده الأكبر، فرأى شفتيه تتحرّكان، فأدرك أنه يريد أن يوصيه، فأدنى أُذنه منه وأصاخ بسمعه إليه، فإذا هو يوصيه بأُمّه قائلاً: سيّدي، أُوصيك بأُمي، وضمّوها إلى رحالكم، فقد أصبحت وحيدة. فقال له الأكبر: أي أخي، والله

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٧ - ٢٨، لواعج الأشجان: ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) هذا البيت لعمر بن أبي ربيعة كما في تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣. وإن صحّت هذه الرواية، فإنه يكون لغيره.

لأُنعمنّك عيناً. ثم حمله من أرض المعركة، ورجع به إلى المخيّم.

وأقول له: أبا عبد اللّه، أبيت أن ترىٰ امرأة وصبيّاً بين الخيل والرجـال، إذن ليتك ترىٰ عقيلة الطالبيّين وهي تقوم من مصرع وتقعد عند مصرع:

نادَت فَقطّعت القلوبَ بشجوِها ... لكـنما انـتظَمَ البـيانُ فـريدا

إنسانَ عيني يا حسينُ أُخَيَّ يـا ... أملي وعِـقدَ جُـماني المَـنضودا

ما لي دعوتُ فلا تجيبُ ولم تَكنْ ... عَوَّدتَني مـن قـبلِ ذاكَ صُـدودا

أَلِـمِحنَةٍ شـغَلتكَ عـنّيَ أم قِلىً ... حـاشاك إنك مـا بَـرِحتَ وَدُودا

حَـنَّتْ فَـلم تَـرَ مـثلَهُنَّ نَـوائـحاً ... إذْ ليسَ مـثلُ فـقيدِهِنَّ فـقيدا

وثواكـل بـالنوح تسـعد مـثلها ... أرأيت ذا ثكل يكـون سـعيدا[1]

* * *

إلمـن بـعد يـحسين مـنواي ... ظني انگطع وانگطع رجـواي

أنـاديك مـا يشـجيلك انـداي ... ولا تسـمع اعـتابي ونـخواي

---

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

﴿١٥٩﴾

خلائق علي الأكبر

لم تــــرَ عـــين نــظرت مــثله مــن مـحتفٍ يـمشي ومـن نـاعلِ
يــغلي نــئيّ اللـحم حـتى إذا أنـضج لم يـغلُ عـلى الآكـلِ
كــان إذا شـبّت له نـاره أوقــدها بـالشرف القـابلِ
كــيما يـراهـا بـائس مـرمل أو فـرد حـي ليس بـالآهلِ
أعني ابن ليـلى ذا السدى النـدى أعـني ابـن بـنت الحسب الفاضلِ
لا يــؤثر الدنـيا عـلى ديـنه ولا يـبيع الحـق بـالباطلِ[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: في صفاته

إن قول الشاعر:

لم تــــرَ عـــين نــظرت مــثله مــن مـحتفٍ يـمشي ومـن نـاعلِ

يضع بين أيدينا بعضاً من ملامح وصفات هذا الرجل العظيم. وقد يقول قائل: ما هذا اللون من المبالغة الذي لا يمكن أن يُقبل؟ ومن أي منطلق انطلق الشاعر بهذه المبالغة؟ ولنفرض أننا نسمح للأدباء أن يكون عندهم لون من المبالغة في

(١) الأبيات للنجاشي الشاعر. مقاتل الطالبيّين: ٥٣، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٦١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٨.

الأدب بناءً على القول المأثور «أكذبهُ أعذبهُ» لكن ليس إلىٰ الدرجة التي يقول فيها شاعر: إنّه لم ترَ عين مثله.

لكن لو تمعنا في الأمر قليلاً لوجدنا أنّ هذا الشاعر لم يُبالغ؛ لأنّه إنّما يمدح صفات النبيّ وخلائقه، ويُصور سماته ﷺ؛ لأنّ علياً الأكبر كان يشبهُ رسول اللّه ﷺ في خلقه وخُلقه ومنطقه. وهذه الجنبة من وجه المشابهة هي مأخذ الشاعر ومدركه الداعيان له لأن يصف الأكبر بما وصف. فخصائص الوراثة تجلّت كلّها فيه بإجماع من كتب عنه من المؤرّخين، فهؤلاء حينما يتناولون شخصية عليٍ الأكبر يمنحونه هذه الصفات ويقولون عنه: إنّه كان أُنموذجاً يُمثل رسول اللّه ﷺ ويجسّده خلقاً وخُلقاً ومنطقاً.

أثر قانون الوراثة في بناء شخصية الأكبر

إننا نعرف أن قانون مندل للوارثة يقسم الوراثة إلىٰ قسمين: الوراثة القريبة، والوراثة البعيدة. وما يهمنا هنا هو الوراثة القريبة، وهي الوراثة التي تكون من الأب المباشر أو الجدّ المباشر. وعلي الأكبر قد أخذ الوراثة هذه عن أبيه الحسين عن جدّته فاطمة ﵍ عن جدّه رسول اللّه ﷺ، فليس بينهُ وبين جدّه رسول اللّه ﷺ سوى حلقتين فقط، أي أنّها ليست وراثة بعيدة وإنّما هي وراثة قريبة؛ فكان في مشيته يحكي مشية رسول اللّه ﷺ الذي كان يتكفأ فيها، وكذلك كان علي الأكبر، وكانت ملامح وجهه وقسماتُهُ وأخلاقهُ وتربيتهُ هي عينها تلك التي كانت عند النبيّ ﷺ.

وإضافة إلىٰ ذلك نجد أنه قد اكتسب هذه الصفات عن رسول اللّه ﷺ بحكم الاحتكاك بهذه الأُسرة التي تأثّرت بأخلاق الرسول وتشبّعت بها. وكانت هذه

الأُسرة النموذج الممثّل لأخلاق الرسولﷺ، وبهذا فإننا لا نستطيع أن نعتبر أنّ هذا الشاعر يبالغ في قوله هذا بعد أن عرفنا أنّ في علي الأكبر سمات كثيرة من جدّه رسول اللّهﷺ. ومضافاً إلى ما مرّ نجد أنّ فيه سمات كثيرة من جدّه أمير المؤمنينعليه السلام. ولعلّ الإمام الحسينعليه السلام لأجل هذا سماهُ عليّاً، وكان هذا الاسم من أحبّ الأسماء إلى أهل البيتعليهم السلام.

مكافحة الأمويين اسم علي ومن تسمّى به

ولهذا السبب كان هذا الاسم يكافح بشكل فظيع أيام الأُمـويين، فكـان مـن يتسمّىٰ بهذا الاسم يُعتبر قد ارتكب إثماً كبيراً من وجهة نظر السلطة الحـاكـمة، وكان المتسمّي به يتعرض إلىٰ المضايقات، وتمارس ضدّهُ بعض ألوان الإرهاب. ولست أدري ما السبب في ذلك، فكأنّهعليه السلام لم يأتِ من الحجاز بل إنّه جاء من بلاد الكفر. والمفروض ألّا يكون هناك نوع من الحساسية اتجاه هـذا الاسـم. ومـن شواهد هذه الحسّاسية التي يخلّفها اسم علي ما يروى من أن علي بن عبد اللّه بن عباس كان يكنّىٰ بـ(الحسن)، وقد دخل يوماً عـلى عـبد المـلك بـن مـروان، فاستقبله عبد الملك بقوله: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: واللّه لا أجمعهما لك، عليّ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو أن تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[1].

وموضع الشاهد هنا أنّ السلطة كانت تتحسّس من اسم عليعليه السلام.

على أية حال فإنّ الشاعر هنا لم يكن مبالغاً قط في وصفه عليّاً الأكبر بـهذا الوصف؛ لأنّه قد أخذ كل الجوانب الحميدة عن طريق الوراثة القريبة وعن طريق

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، وفيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

المؤثّرات البيتية في الجانب التربوي.

المؤثرات التي عاشها في أُسرته وتفاعل معها، فكان في غاية الصلابة والاستقامة، والصفات التي جعلت الإمام الحسين﵇ يرىٰ فيه سمات البيت بكامله.

وعلي الأكبر هو أكبر أولاد الإمام الحسين﵇، وقد ولد قبل الإمام زين العابدين﵇.

المبحث الثاني: في نسبة البعض إلى أُمّهاتهم

إنّ أوّل ما يطرأ على البال عندما نقرأ قول الشاعر:

أعني ابن ليلى ذا السدى الندى ... أعني ابن بنت الحسب الفاضلِ

هو تساؤل حول سبب نسبة بعضٍ إلى أُمّهاتهم عند العرب، وعن الداعي الذي يدفعهم إلىٰ ذلك حتىٰ قال الشاعر هنا: «ابن ليلىٰ».

إننا نعرف أن عند العرب أغراضاً وأساليب بلاغية يستخدمونها في كلامهم، وعندما ينسبون شخصاً إلىٰ أُمّهِ فإن لهم حتماً أهدافهم الخاصة، ومن هذه الأهداف:

أوّلاً: التحقير

فعندما يريدون أن يحقروا أحداً ينسبونه إلىٰ أُمّه، ووجه التحقير كأن توجد فيه عاهة اجتماعية، فيقولون: يابن الزرقاء، ويابن النابغة، ويابن فلانة. وهذا ما كانوا يفعلونه مع زياد؛ حيث إنّهم كانوا ينادونه بابن سمية، وكذلك كانوا ينادونه بابن أبيه؛ ولذلك فإن السيّدة عائشة أرادت يوماً أن تكتب كتاباً لزياد جواباً على كتاب كان قد كتبه إليها، فتحيّرت ما الذي تكتبه له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا

كذب، وقد قال رسول الله ﷺ: **«الولد للفراش وللعاهر الحجر»**[(١)]، فمن لم يولد على فراش شرعي لا يعتبر ولداً شرعيّاً، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أم المؤمنين إلىٰ ولدها زياد. فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أُمّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[(٢)].

ثانياً: التعظيم

وفي المقابل فإنّ العرب يسمون الإنسان باسم أُمّه للتمجيد والتعظيم، وذلك فيما إذا طغت شهرة الأم على شهرة الأب. فهنالك الكثير ممن ينسب إلىٰ أُمّه؛ لأنّ لأُمّهِ شهرة وتأثيراً كبيراً ومكانة في الحياة أكبر من تلك التي لبعلها. وحينئذٍ فإن هذا ينسب لأُمّه لهذا السبب.

ثالثاً: لاشتهار الأب شهرة فائقة

وهذا من الأسباب أو الأهداف التي كان العرب يضعونها في اعتبارهم عندما يريدون نسبة أحدٍ؛ فإنهم حينئذٍ ينسبونه إلىٰ أُمّه. فحينما يمتلك الأب شهرة طاغية جداً فإنّهم يلجؤون إلىٰ نسبة ولده إلىٰ أُمّه كي يوجدوا معادلة بين شهرة الأُمّ وشهرة الأب. فالولد حينما يكون أبوه بهذه الصفات ويمتلك تلك المكانة الكبرىٰ وذلك المركز الاجتماعي الراقي، وتكون أُمّه غير معروفة فإنهم حينئذٍ ينسبونه إليها حتى يقال: إنّه ليس ابن أبٍ عظيم فقط، وإنّما هو ابن أُمٍّ عظيمة. وهذا ما فعله

---

(١) الكافي ٥: ٤٩١ / ، ٤٩٢ / ، ٧: ١٦٣ / ، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

الفرزدق مع الإمام زين العابدين عليه السلام؛ حيث دخل هشام بن عبد الملك ـ وهو لا يزال وليّ العهد ـ إلى الكعبة فلم يجد طريقاً إلىٰ الحجر الأسعد، فاضطرّ إلىٰ الجلوس والانتظار. وفي هذا الوقت يدخل علي بن الحسين عليه السلام، فانفرج له الناس سماطين حتى وصل الحجر ولمسه، ويُسأل هشام: من هذا؟ فيقول: لا أعرفه. وكان يعرفه، لكنه خشي أن يميل الناس إليه، لكن الفرزدق ينبري له ليقول:

هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ ... بجدِّهِ أنبياءُ اللهِ قد خُتِموا

وليس قولُك من هذا بضائِرِهِ ... العُربُ تعرِفُ من أنكرتَ والعَجَمُ[1]

والفرزدق من محبي أهل البيت عليهم السلام يدل عليه أنه حينما وفد أبوه غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين عليه السلام وهو معه قال له عليه السلام: من أنت؟ فقال: غالب بن صعصعة المجاشعي. قال عليه السلام: **«ذو الإبل الكثيرة؟»**. قال: نعم. قال: **«ما فعلت إبلك؟»**. قال: أذهبتها النوائب، وذعذعتها الحقوق. قال عليه السلام: **«ذاك خير سبلها. ومن هذا الغلام معك؟»**. قال: ابني، وهو شاعر. قال: **«علّمه القرآن؛ فهو خير له من الشعر»**[2].

وإنما قال له الإمام عليه السلام ذلك لأنّه خشي أن يغلب عليه قول الشعر وإنشاده ويصبح في وضع يمدح به هذا ويذمّ ذاك دون أن يستحق المدح ممدوحُه أو

---

(١) ديوان الفرزق: ١٧٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦، تهذيب الكمال ٢٠: ٤٠٠ ـ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٨.

(٢) تقول الرواية: فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيّد نفسه، وآلى ألّا يحلّ قيده حتى يحفظ القرآن الكريم، فما حلّه حتى حفظه. وفي ذلك يقول:

وما صبّ رجلي في حديد مجاشع ... مع القدّ إلّا حاجة لي أُريدها

شرح نهج البلاغة ١٠: ٢١ – ٢٢، كنز العمال ٢: ٢٨٨ / ٤٠٢٦، الإصابة ٥: ٣٠١ / ٧٠٥٠.

القدح مقدوحُه.. خشي عليه أن يمدحَ التوافه وأن يقع في هذا النمط من قول الشعر لكسب الأموال.

إذن كان بوسع الفرزدق أن يقول له: هذا ابن علي أو هذا ابن رسول الله ﷺ لكنّه لم يفعل لأنّه يريد أن يقول له: إنّ عليّ ابن أبي طالب أو رسول اللّه ﷺ معروفان وهما من الشهرة والمكانة بدرجة لا يحتاجان معها إلىٰ زيادة إيضاح، ويقول كذلك: أُريد أن أزيد فقط أن هذا ينتمي من جهة إلىٰ علي عليه السلام ومن جهة أُخرىٰ إلىٰ رسول اللّه عن طريق فاطمة عليها السلام. ومثل هذا قول الشاعر مخاطباً رسول الله ﷺ:

يـــابن الفــواطـم والعـوا ... تك والتـــــرائك والأرائك[1]

---

(١) البيت لبديع الزمان الهمداني. تذكرة الخواصّ: ٣٤، أعيان الشيعة ١٠: ٧٨.
والفواطم اللائي ولدن رسول الله خمس: قرشية وقيسيّتان ويمانيّتان. فالقرشية هي فاطمة بنت عمرو، أُم أبيه عبد اللّه. والقيسيتان هما فاطمة بنت عبد الله بن رزاح، وأُمّها فاطمة بنت الحارث. واليمانيّتان هما أُم قصي بن كلاب فاطمة بنت سعد، وفاطمة بنت نصر بن عوف، أُم حيي بنت حليل.
وأما العواتك فاثنتا عشرة: قرشيّتان، وهما عاتكة بنت هلال جدّة أُمّه آمنة بنت وهب، وعاتكة بنت غالب بن فهر. وواحدة من بني يخلد بن النضر وهي عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة. وثلاث سلميات هن عاتكة بنت مرة أُم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت هلال أُم عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة أُم جدّه لأُمه وهب بن هلال. وعدويتان ـ من جهة أبيه عبد الله ـ وهما عاتكة بنت عامر، وعاتكة المعروفة بالحصان بنت عدوان. وأزدية هي عاتكة بنت الأزد بن الغوث. وقد ولدته هذه الأزدية مرّة أُخرى من قبل غالب بن فهر؛ فإن أُمه ليلى بنت سلمى بنت طابخة، وهي ابنة عاتكة بنت الأزد هذه. وهذلية هي عاتكة بنت سعد. وقضاعية هي عاتكة بنت رشدان. وأسدية هي عاتكة بنت دودان بن أسد.
تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨١ – ١٢٤، النهاية في غريب الحديث والأثر ٣: ١٨٠، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣ – ٤١.

وهذا لبيد يفخر بأُمّ البنين في مجلس النعمان:

نـحن بـنو أمّ البـنينِ الأربـعة ونـحنُ خـيرُ عـامر بـن صـعصعة

المـطعمونَ الجَـفنةَ المـدعدَعَةْ والضاربونَ الهامَ تحتَ الخيضعةْ[1]

فلبيد يفخر بأُمّ البنين والمفروض أن لها بعلاً، لكن كان يريد أن يفخر بها حتىٰ يُوجد معادلة في هذا.

إذن كان أمراً ضرورياً عند العرب أن يتساوىٰ أبو الرجل وأُمّه وإلّا عُدّ هجيناً، بل ربما يخلق له هذا الأمر مشكلة، ولأضرب لك مثلاً هذه الحادثة حيث دخل ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي، فقال أحدهم: إننا إخوة وقد مات أبونا. فقال: رحمه اللّه. قال: ونحن الاثنان أشقّاء، أمّا الثالث فأُمّه أمة، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا. فقال: ليس في البين مشكلة؛ فلكلّ واحد منكم الثلث. فقالا معاً: لا نراك فهمت. قال: بل فهمت؛ فإنه أخوكما، وكونه هجيناً لا يبخسه حقّه من ميراث أبيه. قالا: تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فقال: بلى. فقالا: إنك لقليل الخالات بالدهناء[2].

أي بتعبير آخر إنك لست ابن البادية، وليست عروبتك عروبةً خالصة، وإلّا لو كنت كذلك (لك خالات بالدهناء، أي من قلب العرب)، لما قلت هذا.

وهذا اللون من العصبية الذي يُعدّ ابن غير العربية هجيناً توجّه يخلق نوعاً من المشاكل بين الإخوة، وهو توجّه يرفضه الإسلام.

---

(١) ديوان لبيد (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨، الأمالي (المرتضى) ١: ١٣٦، الإرشاد ٢: ١٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٠، مقاتل الطالبيّين: ١٤٩، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام): ١٥٧، قصص العرب ٣: ١١١ ـ ١١٤ / ٤٨.

(٢) الكامل في الأدب ٢: ٤٨.

على أية حال فإن الفرزدق لا يجهل أن الزهراء لا ترقىٰ إلىٰ مستوى علي بن أبي طالب عليه السلام.

القرطبي ونسبة الحسنين عليهما السلام إلى فاطمة عليها السلام

وأنا أستغرب من شيء يستغرب منه القرطبي، هذا المفسّر الضخم والذي يُعدُّ تفسيره طعمةً؛ إذ يجد فيه القارئ الفكرة الرأي الفقهي والأُصولي والجانب التاريخي، لكنّه مع ذلك حينما يأتي إلىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ**﴾[1] فإنّه يقول: إن جميع الناس يوم القيامة يدعون بأسماء أُمّهاتهم؛ وذلك لثلاثة أسباب:

الأوّل: إكراماً لعيسى بن مريم عليه السلام، لأنه لا أب له.

الثاني: تشريفاً للحسنين عليهما السلام بنسبتهما إلى أُمّهما.

وهذه فكرة غير مقبولة؛ لأنّ اللّه تعالىٰ لو أراد أن يناديهما باسم أبيهما أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً فاطمة: «**زوّجتك خير الناس من بعدي**»[2]، لما كان يضيرهما ممّا يدّعيه شيء. والزهراء عليها السلام وغيرها

---

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، وفيه: «خير من أعلم»، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق): ٤٣٤ / ٥٧٤: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ذات يوم في منزل أُم إبراهيم، وعنده نفر من أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا بصر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا معشر الناس، أقبل إليكم خير الناس بعدي، وهو مولاكم؛ طاعته مفروضة كطاعتي، ومعصيته محرمة كمعصيتي».

وفي بشارة المصطفى (الطبري): ٤٢٠ – ٤٢١ / ٢٨: «يا علي أنت خير الناس بعدي، وأنت أوّل الناس تصدّراً، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاك فقد

لا يرقون إلىٰ مستوىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو إمام المتّقين، ويعسوب الدين، ومفخرة الإسلام.

أيّهما تشرف بهذه الزيجة؟ علي أم فاطمة عليهما السلام

وهذه المسألة يُثيرها المؤرّخون فيقولون: أيّهما تشرّف بالزواج من صاحبه؟ هل هو علي بن أبي طالب عليه السلام، أم فاطمة عليها السلام؟ وكأن هؤلاء قد تناسوا أن الإمام عليّاً عليه السلام هو حامي الإسلام ورافع لوائه في أربع وثمانين غزوة كان فيها المدافع عن حمىٰ المسلمين والمدرسة السيارة الذي لا زالت آراؤه إلىٰ الآن يضيق عنها الزمان. ومن يطلع على فكر علي بن أبي طالب عليه السلام يجد فيه العجب العُجاب، وليس كلُّ ما يعرف يُقال.

إذن فهذا الرأي الذي يطرحهُ القرطبي لا يُقبل بأي حالٍ من الأحوال، وليس من المعقول أن اللّه جل وعلا يدعو الناس بأسماء اُمّهاتهم ولو ضمناً على حساب الحسنين عليهما السلام، فيشرفهم بنسبتهم إلىٰ اُمّهم.

الثالث: أن في ذلك ستراً على الناس؛ إذ أن البعض منهم أولاد زنا، فإن نودوا بأسماء آبائهم الحقيقيّين افتضحوا واُمّهاتهم.

وهنا أودّ أن اُلفت النظر إلىٰ أنّ الوالد الحقيقي الذي يُسمىٰ والداً هو الاُم وليس الأب، والأب إنّما يُسمىٰ والداً من باب المقابلة. وهذا من قبيل إطلاق اسم القمرين على الشمس والقمر فهو إطلاق تغليب ومقابلة كما هو مذكور في علم البلاغة. فالأب والد لأنه يقابل الاُم، لأن الأب لا يلدّ والاُم هي التي تلد والتي يقع

☚ عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، يا علي لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق أو كافر».

عليها عبء الولادة وآلامها.

وهذا الأمر من جملة الأُمور التي يستند إليها الفقهاء في باب التزاحم في الحكم بتقديم قول الأم على قول الأب فيما لو تساويا فلو قال الأبُ: لا تفعل، وقالت الأم: افعل أو بالعكس، وجب تقديم قول الأُم ما لم يكن فيه معصية لله أو ضرر للولد؛ لأن تعب الأم على ولدها أكثر من تعب الأب عليه. فالأب يضع ابنه وهو في ألذّ حالاته أما الأم فتضعه في أشدّ حالاتها، وربما وضعته وهي في حالة نزع واحتضار فإن نجت وسلمت فإنّها تكون قد نجت بأُعجوبة. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن الأب لا يستطيع أنّ يتحمّل هذا الطفل وصراخه ليلاً، في حين أن الأُم تلتذّ بتربيته مع ما يسبّبه لها من أذىٰ. وهذا يدلّ على عمق علاقة الأُمومة التي تسري في كيانها وعروقها.

ثم إنّ من أشدّ الأُمور إيلاماً للمرأة وجرحاً لعاطفتها هو قول القائل لها: إنك امرأة عقيم، فهو قول فظيع من وجهة نظرها؛ لأنّه يطعن أُمومتها ويضربها في الصميم؛ فأعظم وظائف الأم هي الأُمومة وتربية الولد.

إذن فالأب والد مجازي للمقابلة، وهما والدان للتغليب، والأُم والدة حقيقة، وهذا ما يشير إليه التعبير القرآني الدقيق في قوله تعالىٰ: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[1] فتأمّل قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ**﴾، فهو لا يسميه والداً ولا يطلق عليه هذا اللفظ هنا أبداً. وحتى تعبير ﴿**الْمَوْلُودِ لَهُ**﴾ لم يكن ليستحقّه لولا أنه من مائه. فمن يلد فعلاً هي الأم؛ ولذلك جعل اللّه الجنّة تحت أقدامها على لسان رسوله الأكرم ﷺ في قوله: «**الجنة تحت أقدام الأمّهات**»[2].

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز

فلا يدخل في خلد أحد أنّ لأحد حقّاً على الآخر كالحقّ الذي افترضه اللّه تعالى للأم على ولدها؛ لأنّها الكائن الوحيد الذي يتحمّل كل أذى الوليد منذ وضعه وحتىٰ نضجه، فهي التي كرّست له كل حياتها وجهدها وطاقتها بمواصلة رعايته وتربيته، وبذلت كل حياتها ونذرتها لأجله.

فالأُم يخالجها شعور بأنّ الدنيا قد ابتسمت لها حينما يبتسم لها وليدها، وتظن أنّ الدنيا قد أغلقت أبوابها بوجهها حينما ترىٰ وليدها قد مسّه مرض أو ألم. وهذا هو السبب الذي من أجله جعل اللّه حقوق الأُم أعظم من حقوق الأب، فهي صانعة الحياة وبانية الأجيال ومشيّدة المجتمع، والتي تملأ كل ذلك حناناً وعطفاً. لقد أعجبني قول أحد الأُدباء وهو يصفها: «تغريد الملائكة بفم الأُم لطفلها». وهذا هو الذي يتوجّب علينا توفيره للطفل؛ لأنّه كائن ضعيف يحتاج إلى العطف والحنان والرعاية، ولا أحد يستطيع أن يملأ نفسه بهذا سوى الأُم ببسمتها له ومناغاتها إيّاه وضحكتها في وجهه.

رجـع

إذن فكلام القرطبي في هذا المورد مرفوض؛ لأنّ أمير المؤمنين ﷺ لم يتشرّف بالزهراء وإن كان قد تشرّف برسول اللّه ﷺ، بل الزهراء هي التي تشرفت بـه. وهو كلام عجيب يثير الاستغراب، وأنا لا أتّهم القرطبي، بل أظن أنّ في الأمر غفلة وقع فيها، فهذا الرجل عقلية ضخمة، وكونه صادراً من هذا الرجل يحملني علـى حسن الظن به وعدم تهمته، بل أحمله على الغفلة، أمّا أن يصدر من غـيره فأنـا أتّهمه. ولهذا الكلام نظير، وهو أن معاوية بن أبي سفيان سأل جلساءه يوماً، فقال

☚ العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

لهم: من أحقّ بالخلافة؟ قالوا: أنت. وهؤلاء بطبيعة الحال لا يمكن أن يعدوا هذا الجواب، أو أن يجيبوا بغيره وإن لم يكن عن قناعة منهم؛ لأنهم صنائعه، فقال لهم: لا، أنا لست الأحقّ بها. فعجبوا من قوله، وقالوا: فمن هو الأحقّ بها إذن؟ قال: علي الأكبر بن ليلى.

وهنا موضع الشاهد؛ حيث إنه نسبه إلى أُمّه بقوله: ابن ليلى، فقالوا له: ولم؟ فقال: لأن فيه زهوَ ثقيف. ذلك أن أُمّه هي ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي؛ فهو يلتقي مع المختار بن أبي عبيدة عند جدّهما الرابع من ناحية الأمّ. وقوله: فيه زهو ثقيف، لأن ثقيفاً كانت عندها خصلة الزهو والخيلاء، والاعتزاز بالنفس، والعنفوان.

ثم قال معاوية: وسخاءَ أُميّة. ذلك أن جدّته لأُمّه ليلى هي ميمونة بنت أبي سفيان. ومعنى هذا أنه يريد أن يقول: إننا ورّثناه سخاءنا.

ثم قال: وشجاعةَ هاشم.

ونحن نقول لمعاوية: هذا السخاء الذي نسبه للأمويين من أين ادّعاه؟ هل هو قبل أن يتولّى الخلافة أم بعدها؟ فإن كان قبل الخلافة فليُرجع إلى كتب التفسير في تفسير قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾**[(١)]، فالمفسّرون بصورة عامّة يقولون: إن هند زوجة أبي سفيان جاءت لتبايع، فلمّا فرغت قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أُطعم عيالنا من ماله؟ قال ﷺ: **«لا، إلا بالمعروف»**. أي بقدر الحاجة[(٢)]. فمن يبخل على أهله

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ – ١٧٨، وكذلك كتب الحديث، ومنها مارواه كل من أحمد بن حنبل،

كيف يورّث غيره السخاء؟ وإن كان بعد أن وصلت إليه الإمارة والسلطة فهو من باب «وهب الأمير ما لا يملك»:

ومن دخل البلاد بغير حرب　　يهون عليه تسليم البلادِ[١]

وهذا البيت ينطبق عليه تماماً، وأبسط مثال على ذلك أنّ الأمر وصل بـه أن أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص بعد أن طلب هذا الأخير منه ذلك، ووقف له قائلاً: ما لي إن شايعتك على أمرك حتى تنال ما تريد؟ قال: حكمك. قال عمرو: اجعل لي مصر طعمة ما دامت لك ولاية. فقال له معاوية: لك مصر طعمة[٢].

وهذا الذي يذكره المؤرّخون كافّة. فهل يعدّ كرماً أن يمنح بـلداً بأكـمله إلى شريك له بالإثم والمعصية؟ من أين أتته هذه الصلاحيّة؟ ومـن أعـطاه خـاصية التصرّف هذه؟ فهل ورثه من أبيه؟

والنتيجة أنهم غير معروفين بالسخاء، لكن حينما تسلّموا السلطة وأصـبحت أموال المسلمين بأيديهم بدأ التصرّف غير المشروع بها.

وهذا ما لا يمكن أن يُسمى سخاءً بل إنّه سوء تصرّف وعبث بأموال المسلمين؛ لأنّ السخاء أن يعطي الإنسان من كسب يده وعرق جبينه وتعبه، كما فعل أمـير

☚ ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله ﷺ فذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لامال له».

انظر: مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ - ٧٥.

(١) مجمع الحكم والأمثال ج ١ / موضوع الوطن.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٧٣ - ٧٤، الأخبار الطوال: ١٥٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٦، الغارات ١: ٢٧١ - ٢٧٢، ٢: ٧٤٨، سير أعلام النبلاء ٣: ٧٢ - ٧٣.

المؤمنين عليه السلام حيث أوقف عينين له احتفر أحدهما بيده، يقول أبو نيزر: كان للإمام علي عليه السلام قطعة أرض يملكها، فجاءني يوماً وأنا أقوم بالضيعتين: عين أبي نيزر والبغيبغة فقال: **«هل عندك من طعام؟»**. فقلت: عندنا طعام لا أرضاه لك، قرع من قرع الضيعة صنعته. فقال عليه السلام: **«عليّ به»**. فقام إلى الجدول فغسل يده، ثم أصاب من ذلك الطعام شيئاً: ثم رجع إلى الجدول، فغسل يده بالرمل حتى أنقاها، ثم ضم يديه كلّ واحدة إلى أُختها، ثم شرب بهما وقال: **«يا أبا نيزر، إن الأكف أنظف الآنية»**.

ثم مسح من ذلك الماء على بطنه وقال: **«من أدخله بطنه النار فأبعده الله»**. ثم أخذ المعول وانحدر إلى العين فأقبل يضرب فيها وأبطأ عليه الماء فخرج وقد تفضّخت جبهته عرقا، فاستشفّ العرق من جبينه ثم أخذ المعول وعاد إلى العين فأقبل يضرب فيها وجعل يهمهم، حتى انثالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعاً فقال: **«الله أكبر، سيخيب الوارث، أُشهد الله أنها صدقة. عليّ بدواة وصحيفة»**. فعجّلت بها إليه، فكتب عليه السلام: **«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تصدّق به عبد الله علي أمير المؤمنين، تصدّق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل؛ ليقيَ الله وجهي حرّ النار يوم القيامة، ولا تباعا ولا توهبا حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين، إلّا أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق لهما ليس لأحد غيرهما»**[1].

وهكذا فعل عليه السلام بعيني أبي نيزر والبغيبغة اللتين كانتا يملكهما فقد استنبعهما

---

(١) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٨١ - ٨٣ / ٣٦٥، جامع أحاديث الشيعة ١٩: ١١٠ - ١١١، معجم ما استعجم ٢: ٦٥٧. ٦٦٠.

وأصلح بهما الأرض، ثم أوقف ذلك كلّه على فقراء المسلمين ومساكينهم. وهذا هو السخاء الحقيقي الذي يكون عن عرق الإنسان وكدّه، والذي أوصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّه كان يرجع إلى البيت خالي اليد دون أن يحمل معه حاجة لأهله، فقد كان يفرّق جميع ما يحمله معه على بيوت الفقراء ويوزّعه عليهم.

وهاتان العينان دفع فيهما معاوية نفسه مليوني دينار للإمام الحسين عليه السلام حينما ركبه دين، فأبىٰ عليه السلام أن يبيع صدقات أبيه، وقال: **«إنما تصدّق بها أبي ليقي الله بها وجهه حرّ النار»**[(١)].

فعطاء أمير المؤمنين عليه السلام هو العطاء؛ لأنّه في شيء سكب عليه عرقه وحازه بكدّه وتعبه، أمّا أن يستولي شخص على أموال الآخرين ويكرم بها غيره فهذا لا يسمىٰ جواداً أو كريماً، بل هو مغتصب وفعله ليس جوداً أو سخاءً.

ثم إنّ محاولة معاوية تلك ـ قوله: إنّ الأكبر أحقّ بالخلافة ـ هي محاولة لئيمة وفكرة حقّ يراد بها باطل.. فكرة قد دُسّ السمّ بين ثناياها، فهو يريد أن يصرف الناس عن الإمام الحسين عليه السلام ويلقي حوله ظلالاً من الشك، وإلّا فإن الحق أن يقول: إن الحسين عليه السلام أحق بها؛ لأنّه يعرف منزلة الحسين ومكانته وأحقيته بالخلافة[(٢)].

إنّ هؤلاء قد عمدوا إلى نفي الحسين عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يمكن أن يصلوا إلى الخلافة في وجود الحسين عليه السلام، فقد ادّعوا أن الحسين عليه السلام إنّما هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وليس ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله بل هو

(١) المصدر نفسه، وفيها: مئتا ألف دينار.

(٢) إن هذا القول يذكّر بمحاولة المأمون إبعاد أمير المؤمنين عليه السلام عن الخلافة وإعطاء الحقّ فيها للحسنين عليهما السلام بعد أن أثبت أفضليته عليه السلام على سائر الخلفاء. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

ابن ابنته الزهراء، وابن البنت ليس ابناً[١]. وهذه العملية هي محاولة مفضوحة لتشويه الحقيقة في أعين الناس، وإظهارها أمامهم بمظهر مغاير؛ لأنها محاولة يهدف من ورائها إبعاد نظر الناس عن الإمام الحسين عليه السلام كما قلنا.

المبحث الثالث: في كرم الأكبر وشجاعته

ثم قال الشاعر:

يغلي نئيّ اللحم حتى إذا ... أنضج لم يغلُ على الآكلِ
كان إذا شبّت له ناره ... أوقدها بالشرف القابلِ

أقسام النار عند العرب

أودّ أن اُلفت النظر إلى أنّ للعرب أربعة عشر اسماً للنار، كل اسم منها يدلّ على نار معيّنة ترتبط بحدث معيّن، وهذا ما كان عليه العرب كما يحدّثنا عنه تاريخهم. وسأذكر هنا ما يتعلّق منها بحاجتنا كي نخلص منها إلى معنى النار التي يريدها الشاعر وهو يصف بها علياً الأكبر. فمن هذه النيران:

الأولى: نار الحرب

وهي النار التي توقد حينما يريدون الخروج للحرب؛ فقد كانت وسيلتهم في إعلام القبائل الاُخرى أن يعمدوا إلى مرتفع من الأرض فيشعلوا ناراً عليها، فتراها تلك القبائل فتبادر إلى الاجتماع عندها. وهذه النار هي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[٢].

---

(١) حول موضوع كون ابن الابنة ولداً صلبياً انظر محاضرة (البناء الاُسري في الإسلام) في ج ٤ من كتابنا هذا.

(٢) المائدة: ٦٤.

وأظن أن هذه الظاهرة لم يختصّ بها العرب وحدهم، بل إن الشعوب البدائية كلها تلجأ إلى هذه الطريقة، كما عند شعوب أفريقيا؛ حيث إنّهم كانوا يستمدّون منها العزيمة.

الثانية: نار العبادة

وهي النار التي يتوجّهون إليها عند العبادة أو يتحلّقون حولها. وفكرة عبادة النار ناشئة من كون النار من دنيا القوىٰ، ودنيا القوىٰ أشرف.

وهذا هو الذي يدفع مُقدّسي إبليس إلى القول بتفضيله، ولذا يقول بشّار بن برد:

إبـلِيسُ خَـيْرٌ مِـن أَبِـيكُمْ آدَم ... فـتَنَبَّهُوا يَـا مَـعْشَرَ الفُـجَّارِ

إبْـلِيسُ مِـن نَـارٍ وآدَمُ طِـينَةٌ ... والأَرْضُ لاتَسْمو سموّ النارِ[1]

الثالثة: نار الحلف

وهي النار التي يوقدونها حينما يريدون أن يقسموا على أمر، فيحلفوا بها، يقول شاعرهم:

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صدّ عن نار المهولة حالفُ[2]

الرابعة: نار الأحلاف

وهي نار توقد عندما يريدون أن يعقدوا معاهدة أو حلفاً بينهم، فإذا تحالفت

---

(١) ديوان بشّار: ٥٣٩. بل وهو ما دعا إبليس نفسه الى التفاخر بها على آدم في قوله تعالىٰ: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢.

(٢) الفائق في غريب الحديث ٣: ٢٥٦ – ٢٥٧، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الكشاف): ٤٦٧، لسان العرب ١١: ٧١٣ ـ هول. ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطرحون الملح في النار مع الكبريت ويتحالفون عليه، ويسمون تلك النار الهولة، وموقدها المهول.

قبيلتان أو أكثر على أمر أوقدوا لذلك ناراً.

الخامسة: نار القِرىٰ

وهي النار التي أشار إليها الشاعر في بيته الآنف. ونار القرىٰ هي النار التي يوقدونها ليلاً سيّما في الليالي المظلمة والباردة؛ ليستدلّ بها الطارق أو ابن السبيل على مضاربهم وربوعهم فيُقروه، أي يضيّفوه؛ ولهذا فإنّ هؤلاء يعمدون إلى إشعالها على ربوة أو تلّة كي يسهل على الطارق رؤيتها.

ومعلوم أن وسائل المواصلات عند الناس سابقاً كانت بدائية، فإذا أراد أحدهم سفراً بعيداً فإنّه لن يصل إلى هدفه بزمن قياسي كما هو الحال اليوم؛ ولذا فإنّ المسافر كان يحتاج إلى أن يستغرق في سفره أيّاماً وليالي كثيرة مع ما يصاحب ذلك من تعرّضه للبرد شتاءً، ولم تكن هناك ـ سيما في الصحراء ـ فنادق أو دور استراحة؛ ولذا كانت محطّات التوقّف للمسافر آنذاك بيوت العرب الذين اشتهروا بالكرم والجود وإقراء الضيف. ومعروف أنهم كانوا يتسابقون إلى اجتذاب الأضياف عبر إيقاد هذه النار على المرتفعات القريبة منهم. قال حاتم الطائي مخاطباً غلامه يساراً:

أوقد فإنّ الليل ليل قَرُّ … والريح يا موقد ريح صِرُّ

علّ يَرىٰ نارك من يمرُّ … إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ[1]

من مظاهر جود الأكبر

وهذه هي الصفة الحميدة التي يشير إليها الشاعر وهو يمدح علياً الأكبر في قوله:

---

(١) تفسير السمعاني ١: ٣٥٠، الوافي بالوفيات ١٠: ٥١، أضواء البيان ٧: ١٦.

كان إذا شبّت له نـاره أوقدها بالشرف القابلِ

يروي المؤرخون أنه كان ينحر الإبل ثم يوقد نار القرى وينضج الطعام، ثم يبدأ بإطعام الناس والأضياف. وهذه الخصلة لم تأته عن كلالة، بل إنّها سـمة آبـائه الذين كانوا يحملون الطعام في الليالي الباردة على ظهورهم، ثم يدورون بها على بيوت المدينة يطرقون أبوابها ليوصلوا الطعام إلى أهلها والمحتاجين منهم. يقول الزهري:

كنت في إحدى الليالي أمشي في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين ماشياً وهو يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «**أُريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز**». فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «**لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني**».

فانصرفت عنه، وبعد أيّام رأيته فقلت له: يابن رسول اللّـه، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ قال: «**يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله كنت استعدّ**». فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: «**هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة**»[1]. وهكذا كان دأبهم ﷺ.

إذن فعلي الأكبر كان يمتلك هذه المزايا، وهذا البيت الذي ذكـرناه يـتعرض لها ويذكرها، فهو قد أخذ محامد البيتين؛ فجده من ناحية الأُم عروة بن مسعود الثقفي الذي يُعبر عنه النبيّ ﷺ بقوله: «**مثل عروة مثل صاحب يس دعـا قـومه**

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣.

إلى الله تعالى فقتلوه»[١].

والذي عبر عنه القرآن بأنّه أحد العظيمين في قوله: **﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾**[٢].

وفعلاً كان أحد العظماء، وكان جليل القدر. هذا هو الجد الأول له، والجد الآخر هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي استغنىٰ بفضائله عن أن يُمدح. ومن بين هذين الشرفين كان علي الأكبر، حيث إنّه اكتسب التربية العالية من بيت الرسالة الذي يُعد منطلق الشعاع إلى دنيا المسلمين. وهكذا فإنّ علياً الأكبر كان خلاصة هذه التربية وخلاصة هذه الوراثة، ولذا فإن الحسين عليه السلام كان ينزله منزلة كبيرة عنده لا حدود لها، يقول المؤرخون: لمّا كان الركب الحسيني في طريقه من المدينة إلىٰ كربلاء هوّمت عينا الحسين عليه السلام ثم انتبه وهو يقول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون»**. فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟

يروى أنه لم يكن يقول لأبيه: يا أبي، ولكنه قالها مرة واحدة وذلك حينما سقط صريعاً كما سيمرّ بنا إن شاء الله تعالىٰ، وإلّا فإن خطاباته لأبيه عليه السلام لم تكن سوى قول: يابن رسول الله، أو يابن أمير المؤمنين، أو يا سيّد شباب أهل الجنة، أو ياسيدي. على أية حال سأل علي الأكبر أباه الحسين عليه السلام قائلاً: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟ فأجابه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: **«يابني، رأيت في**

---

(١) تحف العقول: ٤٦٥، تفسير السمعاني ٤: ٣٧٤، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦١٦، مجمع الزوائد ٩: ٣٨٦، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥٣٠، مسند أبي يعلى ٣: ١٧٤، المعجم الكبير ١٧: ١٤٨، الاستيعاب ٣: ١٠٦٧، الدرر (ابن عبد البرّ): ٢٤٧.

(٢) الزخرف: ٣١.

منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: **«بلى والذي إليه مرجع العباد»**. قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين. فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: **«جزاك الله من ولد خيراً»**. ثم أخذ يقبّله ويلثمه[1].

فهو يقول لأبيه: ليكن ذلك؛ فنحن لا نبالي ما دمنا قد أعددنا أنفسنا للموت وله خلقنا، فمرحباً بالموت في أية لحظة وأي مكان ما دمنا على الحقّ. فالموت بعزّ هو غايتنا لا الحياة الممزوجة بماء الذل، وهي أيضاً ستنتهي بالإنسان إلى الموت مع أن الذليل ميت وهو في حال الحياة. والموت الذي يكون فيه عزّ الإنسان ليس موتاً حقيقياً بل هو حياة له، ففي الواقع إن شريحة عريضة من الناس يمشون على الأرض وهم أموات، فهذا الماشي ليس إنساناً، بل هو قبر يمشي بصاحبه على وجه الأرض:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسيرُ

فالعزيز حيّ وإن فارقت روحه بدنه.

وقد اعتنقه عليه السلام ثانية لحظة نزوله إلى المعركة، يقول المؤرّخون: جاء الأكبر لأبيه الحسين عليه السلام وقال له: سيّدي، لقد نفد صبري؛ فلا طاقة لي على الانتظار، فائذن لي بالقتال. فقال الإمام عليه السلام: «بني، عزمت على القتال؟». قال نعم يا بن رسول الله؛ فإنه لا يسعني غير هذا. فقال عليه السلام له: **«بني ادنُ إليّ حتى أُودّعك»**. فجمع يديه فوق عنقه، واستدناه إليه، وراح يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا معاً إلى الأرض، وقد غشي عليهما، ثم لمّا أفاقا من غشيتهما قال له الإمام الحسين عليه السلام: **«ابرز بني»**.

---

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

فنزل علي الأكبر إلى ساحة الحرب، وكان مشهداً مؤثراً يصفه أحد الأُدباء بقوله: نزل بعنفوان يشبه عنفوان جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام، فذاد الخيل يميناً وشمالاً:

اسم اللّه عليه فرّع بالذوايب	بدر لاچن ابليل الشعر غايب
خاض الخيل وادعاها جنايب	وبخيل الگلايع ضيّگ البر
اشچم شْجاع من غدّارته نس	مهو ابن احسين ضرب السيف له وبس
برمحه اشچم عجيد اصياح لبّس	خلّاها ابجماجمها اتعثّر
عگب ما وزع الهامات والطاس	اجتّه ضربة العبدي على الراس

ثم وقف الإمام الحسين عليه السلام عند رأسه، وراح يطيل النظر إلى شخص كان يذكّره برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يا علي يبني النوب ذلّيت	للموت يوليدي تمنيت
عمود الوسط يا شايل البيت	بويه آنه بيش اجيت وبيش رديت

وهنا رفع عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: **«اللهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»**[(١)].

ثم رجع إلى أبيه يشكو إليه حرّ الظمأ، فعلّله عليه السلام بقرب الملتقى مع جده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه سيسقيه من كأسه الأوفى، ثم التفت الإمام الحسين فرأى على

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.

باب الخيمة زينب وليلىٰ وباقي النساء الهاشميات، وهن ينتظرن عليّاً الأكبر لتوديعه، إذ كان يمنعهن من دخول الخيمة وجود الحسين﵇ فيها؛ إكراماً له واحتراماً، فخرج﵇ من الخيمة؛ ليفسح المجال لهن ليودّعنه، فراحت هذه تشمّه وتلك تضمّه، وأُخرىٰ تخضّب شعرها بدمه، أمّا والدته ففقد احتضنته وجلست عنده:

بنيَّ اقتطعتُك من مُهجتي علامَ اقتطعتَ جميلَ الوصالِ

ثم عاد إلى المعركة، وراح الإمام الحسين﵇ يلاحقه بعينيه وهو في طريقه إلىٰ ساحة القتال، ويطيل النظر إليه، ويبدو على وجهه الشريف أنه كان نظر آيس منه؛ فقد أرخىٰ عينيه بالدموع، وما هي إلّا هنيهة حتى نظر إليه وقد سقط علىٰ وجه الأرض، فأقبل إليه، وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، حتىٰ إذا وصل عنده ألقىٰ بنفسه عليه واحتضنه، ووضع خدّه الشريف على خدّه؛ ليرى إن كان فيه صُبابة روح، فلمّا رأى أنه قد أسلم الروح صاح بأعلى صوته: «**بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهمها وغمها. وما أسرع اللحاق بك**»[1].

فجئا وأقنع للسماء بشيبة مغمورة بمدامعٍ ودماءِ
يا عَدلُ قد قتلوا شبيه محمد أَنزلْ بساحتهم عظيمَ بلاءِ

وقام يكفكف عينيه بمنديل كان في يده، ثم قال للهاشميين: «**احملوا أخاكم، والله لا طاقة لي علىٰ حمله**». فحملوه إلىٰ المخيم ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحوه إلىٰ جانب النساء، فوقعت عليه أُمه تحتضنه:

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

انه الوالده وتعبت برباك   اسهرت طول الليل وياك

احنه المثل هاليوم ردناك

يبني علي يا فتشة العين   يبني صواب الضاهدك وين

* * *

يا كوكباً ما كان أقصر عمره   وكذا تكون كواكب الأسحار





﴿١٦٠﴾

من مسائل فقه الصيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة: في معنى الأموال في القرآن الكريم

تعدّ هذه الآية الكريمة من آيات الأحكام، وآيات الأحكام هي تلك الآيات التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بسلوك الإنسان والمجتمعات. ومن هذه السلوكيات الأكل، وهو من الألفاظ المشتركة، والقرآن الكريم تارة يستعمله في كل أنواع التصرّفات: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[2]، فالأكل هنا لا يراد به عملية مضغ الطعام وابتلاعه، وإنّما المقصود به التصرّف فيه بكل أنواعه وصوره، فيكون مقصود الآية الكريمة هنا: لا تتصرّفوا بأموال اليتامىٰ تصرّفاً باطلاً يضرّ بهم.

---

(١) الأنعام: ١٢١. (٢) البقرة: ١٨٨.

وتارة يكون في خصوص المضغ والابتلاع كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، فإن المراد به هنا هو عمليّة مضغ الطعام وإيصاله إلى المعدة.

وقفة مع الآية الكريمة

والآن لنتوقّف عند بعض الأُمور التي سلّطت هذه الآية الكريمة الأضواء عليها، ويمكن أن نجملها بالآتي متناولين كلّ وقفة بمبحث إن شاء اللّه:

المبحث الأوّل: تحريم بعض الأطعمة ودوافعه

فاللّه تعالى ذكر بعض الأشياء التي حرّم أكلها في هذه الآية الكريمة، ويجب ألّا ننسىٰ أن أفعال اللّه تعالى وأوامره كلّها خاضعة لحكمة يرتئيها هو تعالىٰ.

أسباب التحريم

فلننظر إلى هذه الأسباب أو الدوافع التي حظر الشارع المقدّس من أجلها بعض أنواع الأطعمة، وهو منع كما قلنا خاضع لمصلحة وحكمة وعلّة تقف وراءه:

السبب الأوّل: صيانة الذوق

إن هناك بعضاً مما يمكن أن يؤكل لكن الشارع المقدّس حرّمه صيانة لذوق الإنسان؛ لأنّ الدين لا يقتصر في منهجه التربوي على تربية جانب عند الإنسان دون جانب، فليس هناك إهمال أو إغفال لجوانب أُخرىٰ في حياة الفرد التي يحاول الإسلام أن يُخضعها إلى أصعدة التربية السليمة كافّة؛ ولذا فإن الإسلام كما يربّي الروح ويربّي الجسد يربيّ الذوق عند الإنسان أيضاً. وهذا الأمر يرجع إلى كون الإنسان بطبعه كائناً اجتماعياً يتفاعل مع الآخرين ويتعامل مع المجتمع، فلابدّ أن يكون بمستوى هذا التفاعل، وألّا يكون عنده شيء من المنفّرات.

ولتقريب هذا المعنى نذكر أنّ الإسلام منع من التنخّم داخل المسجد[١]، ومنع من دخول آكل الثوم إليه[٢]؛ لئلاّ يؤذي الناس برائحته، وهذا يعني أنّ وراء هذه العملية محاولة مقصودة لتربية الذوق عند الإنسان.

وعملية تربية الذوق هي عملية خاضعة لكثير من الضوابط الأخلاقية التي حث الإسلام عليها، ومنها آداب الجلوس وآداب الاجتماع وغيرها. وكل هذه الضوابط تراعي الذوق. ومن جملة هذه الآداب والضوابط آداب الأكل والطعام؛ حيث إنّ هناك بعض المآكل التي يأباها الذوق وتنفر منها الطباع، مثل أكل بعض الحيوانات[٣].

وقد يقول قائل: إنّ هذا ربما كان ناتجاً عن اعتياد أكل نمط معيّن من الطعام، ولو أنه اعتاد على غيره لما رأىٰ فيه ضيراً. وعلى سبيل المثال فإنّ مجتمعنا ينفر بطبعه من تناول طبق من الضفادع ولا يستطيع أحد منه أن يأكله، لكن في مجتمعات أُخرىٰ يعدّ هذا الطبق مميّزاً وفاخراً؛ لأنهم اعتادوا على تناوله.

والجواب: أننا لا نناقش في هذا الجانب، ولكن نقول: إن هناك عادات يشترك فيها الذوق العام ـ أي في المجتمعات كافّة ـ كأكل الحشرات أو ما يشابهها، فهذه طبعاً يأباها الذوق.

فالمشرع الإسلامي يحرّم بعض أنواع المأكولات؛ لأنّها تسبب أذى للذوق العام.

---

(١) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة من النار». وسائل الشيعة ٥: ٢٤٤ / ٦٢٩٥، المصنف (ابن أبي شيبة) ٢: ٢٦٠ / ٩.

(٢) قال النبي ﷺ: «من أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا». دعائم الإسلام ١: ١٥٠، مسند أحمد ٢: ٤٢٩

(٣) كالخنزير والضبّ والورل واليربوع وغيرها.

السبب الثاني: صيانة الجسم

إنّ المشرّع الإسلامي يلحظ في عملية التشريع جوانب التشريع كافّة، فهو حينما يحرّم بعض الأطعمة؛ فلأنه يرىٰ فيها مسبّباً مرضياً للإنسان أو عاملاً مضرّاً بجسمه. فبعض الحشرات والحيوانات فيها مواد سميّة تؤذي الجسم[1]. نعم ربما كان هناك نوع من الأطعمة السميّة يكون لسمّها ضرر معقول لا يؤدّي إلى إلحاق كبير أذى بالجسم، وهذا مما يمكن أن يتسامح به الشارع، لكن ما يؤدّي إلى إلحاق الضرر الكبير والأذىٰ الجسيم بالجسم لا يمكن أن يتسامح به الشارع المقدّس، وذلك في أنواع معينة من الحشائش مثلاً التي تجعل متناولها عرضة للألم والمغص والأذىٰ، وتترك آثاراً ضارّة على جسمه، وكذلك بعض أنواع اللحوم.

الحكمة من تشريع محرّمات الذبيحة

وكمثال على ذلك محرّمات الذبيحة التي لم يحرّمها الله تعالى اعتباطاً، بل إنّه تعالى حرّمها؛ لما فيها من ضرر على صحّة الإنسان، فالتحريم خاضع لحكمةٍ اللهُ تعالى أعلم بها. أمّا من يعترض على تحريم هذه الأقسام من الذبيحة بحجة أنّ بعضها مفيد للجسم ويمنحه الصحّة، فيقال له: ما أنت؟ وما مبلغ علمك حتى تخطّط للإنسان ما ينفعه وما يضرّه، وتقرّر له ذلك؟ ومن أنت حتى تقابل البارئ جل وعلا وتشريعاته بتشريع من عندك؟ إنك إنّما تضع نفسك في موضع هو ليس موضعك، وتخوض في شيء ليس من اختصاصك، وتطأ أرضاً ليست بأرضك، وبهذا فأنت

---

(١) فالعلم الحديث كشف عن أن لحم الخنزير مثلاً يحوي موادّ مسرطنة تؤدي إلى إمكان إصابة آكله بهذا المرض الخبيث.

تضع نفسك مقابل اللّه تعالى مع أنك لست هناك.

إن هذا الإنسان يجب أن يعلم بأنّه شيء تافه، بل كل الكون كذلك، ولا قيمة للكل، فكيف يعطي نفسه حقّ التشريع مقابل التشريع الإلهي، وحقّ معارضته؟

السبب الثالث: صيانة العقل والكرامة

إنّ الإسلام باعتباره تشريعاً إلهياً يحترم الإنسان ويصونه ويوليه عناية خاصة؛ لأنه كائن عقلي، بل هو الكائن العقلي الوحيد وإن وجد هناك بعض الحيوانات التي لها تصرّفات عقلية، لكنها لا تقاس بتلك النسبة العقلية الموجودة عند الإنسان. وهذه المسألة موضع نزاع عند العلماء، فعلماء الحيوان وعلماء الفسيولوجي وعلماء الطب يختلفون في مقدار الفرق بين العقل البشري ونسبته عند الحيوانات، وفي حقيقة هذا الفرق، من حيث إنه نوعي أو كمي؛ ذلك أنّ بعض الحيوانات تتصرّف بدافع عقلي كما يبدو للوهلة الأُولىٰ، كابتعادها عن الحفر الموجودة في الطريق.

وهذا يعني أنها تختزن التجربة، كما أن الحيوانات في بعض الأحيان تمارس عمليات تصون بها أنفسها.

فالعلماء حيال هذه التصرّفات ينقسمون إلى قسمين: قسم يذهب إلى أنها تصرّفات غريزية ـ أي أنّ منشأها الغريزة ـ وقسم يذهب إلى أنّها من ظواهر العقل وإن كانت بنسبة ضئيلة من الإدراك الذي هو ظاهرة من ظواهر العقل.

الحيوان والمسؤولية الجنائية

ثم إنّ هذا المقدار من العقل الذي يوجد عند الحيوان هو الذي يجعله عرضة للمساءلة يوم القيامة، حيث إنّ علماءنا وفلاسفتنا يؤكّدون على أنّ الحيوان يحشر

يوم القيامة ليقتصّ منه؛ فيقتصّ من القرناء للجمّاء[1]. بمعنى أنه لو كانت هناك نعجة لها قرن نطحت أُخرىٰ ليس لها قرن فإنّها سيقتصّ منها؛ لأنّ هذا التصرّف اعتداء على الآخرين، واللّه عزّ وجلّ لا يرضى لأحد بأن يعتدي على مخلوقاته إلّا ما أذن به. وهكذا نسأل: لو لم يكن لديها عقل فكيف تكلّف ويقتصّ منها.

وهذا القصاص طبعاً في الآخرة وليس في الدنيا، التي يتعرّض فيها الحيوان للمسؤولية، لكن صاحبه هو الذي يتحمّلها، فلو أنّ فرساً صائلاً ألحق ضرراً بالمزروعات وكان عليه رجلٌ فإنّ صاحبه هذا سيتعرّض لهذه المساءلة القانونية والمسؤولية الجنائية أو المدنية. وهكذا نعرف أنّ أهداف الحشر هو القصاص.

إذن فالإنسان سيّد الموجودات، وهو كذلك بعقله، فإن سعى للقضاء على هذه الجوهرة التي أودعه اللّه إيّاها فحينها لا يمكن أن يبقى متّصفاً بهذه الصفة أو مختصّاً بهذه الميزة. ولهذا فإنّ اللّه تعالىٰ حرّم تعاطي المخدّرات أو معاقرة الخمرة؛ لأنّها تذهب بهذه الجوهرة، بل تدفع صاحبها إلى أن يسرق أو يقتل من أجل الحصول عليها، وبهذا فإن الإنسان، سيفقد إنسانيته وسيتحوّل إلى كيان تعاف النفس والعين النظر إليه، يقول أحد الأُدباء:

محمّد حرّم شرب الطّلا	صلّوا عليه وعلىٰ آلهِ
اذهب إلىٰ الحانةِ تؤمن به	إن كنت لم تؤمن بأقوالهِ
فكم ترىٰ بالحان من شارب	يحرّم الخمر بأفعالهِ

وفعلاً فإنّ الإنسان المخمور وهو يترنّح من سكره ولا يفقه ما يقول يدفع بنا

---

(١) قال رسولنا الأكرم ﷺ في ذكر يوم القيامة: «ينتصف للجمّاء من القرناء». المجازات النبوية: ٩٩، الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: ٩١، المستدرك على الصحيحين ٢: ٣١٦.

لأن نبكي على الإنسانية وعلى الحال الذي وصلت إليه. فهذا الكيان الضخم الذي سخّر الثروات وغزا الكواكب وغاص في أعماق البحار يتحوّل تحت تأثير هذه المسكرات والمخدّرات إلى كائن بهيمي.. إلى حيوان لا يعي ما حوله. وهذا في الواقع ضرر مرعب؛ لأنّ فيه تعريضاً للعقل إلى أدنىٰ ألوان الهوان والابتذال، ولا شك أنّ اللّه جلّ وعلا يريد للإنسان أن يحافظ على كرامته التي أولاه إياها.

فهذا اللون من ممارسة الأكل والشرب يقضي على كرامة الإنسان ويسحق وجوده؛ لأنّه يتحوّل إلى حيوان حقيقي، وهو خلاف ما يريده اللّه له. فكل ما يضرّ بعقل الإنسان ويغيّب الوعي عنده محرّم شرعاً مأكولاً كان أو مشروباً أو مشموماً، مع ملاحظة أنّ هذا النوع من المحرّمات لا يضرّ بعقل الإنسان فقط بل إنّه يلحق الضرر بجسمه أيضاً، فيضعف مناعته ويجعله عرضة للإصابة بالأمراض وفريسة سهلة للميكروبات والفايروسات.

السبب الرابع: صيانة الروح والعقيدة

إنّ هناك جملة من الأطعمة والأشربة قد حرّمها اللّه تعالى لأنّها تفسد العقيدة والروح عند الإنسان. ونحن نعلم أنّ الإسلام حريص على تربية الروح والعقيدة عند الإنسان وحفظهما بالمرتبة نفسها التي يحرص فيها على تربية عقله وجسمه وذوقه وكرامته. فهذا القسم من الأطعمة يؤذي الحالة الروحية والممارسة العرفانية عند الإنسان ويقضي على حسّ القداسة عنده. وأبرز هذه الممارسات الحالة العرفانية التي يتّصف بها ذوو التقوىٰ والورع، والتي تقرّبهم إلى اللّه. وكما قلنا فإنّ هناك أنماطاً من المآكل والمشرب ربما أضرّت بهذا الجانب عند الإنسان، فتضرّ بالنتيجة بعقيدته، وسيمرّ بنا هذا إن شاء اللّه.

فالمسلم يجب أن يحافظ على منظومة الآداب والأخلاق التي سنّها اللّه تعالى

له وقنّنها رسوله الكريم ﷺ وآله الأطهار ﷺ، وأنّ يظهر بالمظهر السلوكي والنمط الأخلاقي اللائقين به كمسلم. فالمحافظة عليهما واجب شرعي فرضه اللّه تعالى على كلّ مسلم؛ كي يظل محافظاً على ميزته الإسلامية. ولهذا فإنّ الإسلام يراعي الشكليات ذات العلاقة بالسلوك والعقيدة من قبيل النهي عن التشبّه باليهود والنصارىٰ حفظاً لعقيدة المسلم وهويته من الضياع. فالمسلم له هيكل معيّن يميّزه عن الآخرين، وهو هيكل يرتبط ارتباطاً مباشراً بالعقيدة. فالمسلم مدعوّ لأن يحافظ على هذا الهيكل؛ ليحافظ بالنتيجة على هويته الإسلاميّة.

منشأ تحريم الطعام في هذه الحالة

على أية حال فإنّ اللّه تعالى حرّم بعض أنواع الأطعمة على الإنسان كما قلنا؛ صيانة لعقيدته وروحه من أن تتلوّثا، وهذه الحرمة ذات منشأين:

المنشأ الأوّل: تحريمه من جهة اكتسابه

وهو الجزء المختصّ بكون هذا الطعام لم يكتسب من حلّ، وإنما جاء من طريق الغشّ أو السرقة أو الربا أو الابتزاز وغيرها من الأُمور التي حرّم اللّه تعالى التكسّب بها والاعتياش عليها.

المنشأ الثاني: تحريمه من جهة إعداده

أي أنّ الإنسان المسلم حينما يتحرّك لإشباع جوعه وإعداد طعامه فعليه أن يمرّر هذه الحاجة من خلال قناة إسلامية شرعية لا عن طريق قناة بعيدة عن الإسلام وتشريعاته وتحليله وتحريمه. فمثلاً يجب عليه أن يراعي في الذبيحة كونها مذكّاة على الطريقة الإسلامية وألّا يكون الدافع إلى الذبح بعيداً عمّا رسمته لنا السماء. فعندما يعزم الإنسان على أن يذبح حيواناً فعليه أن يعلم أنّ الله تعالىٰ

إنّما أباح له ذبحه لأنّ في البين تزاحماً بين سعادة الإنسان وحياته وهو سيّد المخلوقات وبين حياة الحيوان، ولذا فإنّ اللّه تعالى أباح له أن يستعمل هذا الحيوان وكل منتجاته لتحقيق سعادة هذا الإنسان. وعليه فإنّ الذبح يجب أن يكون وفق ضوابط العقيدة ونمطها الذي رسمته وأباحته، فإن خالفها حرمت الذبيحة وحرم أكلها.

شرائط الذبيحة

وعليه فلابدّ من توفّر جملة من الشروط اللازم مراعاتها في الذبيحة كي يحلّ أكل لحمها، ومنها:

١ـ استقبال القبلة.

٢ـ استخدام سكّين حادة عند الذبح.

٣ـ مسك الحيوان من مكان معيّن وإضجاعه، مع عدم نخسه أو ضربه ضرباً يؤذيه.

٤ـ التسمية. وهي أن تكون بلفظ «باسم اللّه» أو «لا إله إلّا اللّه» أو «سبحان اللّه»، أو كل ما فيه اسم اللّه تعالىٰ.

حكم التسمية

يجب ـ كما قلنا ـ التسمية على الذبيحة حال ذبحها، وهنا أودّ التنبيه إلى حكم التسمية من حيث تركها والتسمية بغير اسم اللّه تعالىٰ:

حكم ترك التسمية

أما ترك التسمية فيمكن أن يتصوّر على وجهين:

الأوّل: تركها عمداً

اختلف الفقهاء في هذه المسألة فالشوافع[١] يذهبون إلى أنّ ترك التسمية على هذا الذبيحة عمداً لا يحرّمها، وأنه يحلّ أكلها، أمّا المذاهب الأُخرىٰ[٢] ومنهم الإمامية[٣] فيذهبون إلى حرمتها وعدم جواز أكلها.

الثاني: تركها سهواً

أما إذا تركت التسمية سهواً فالصحيح عدم حرمتها كما يذهب إليه جماعة من المسلمين ومنهم الشيعة؛ لأنّ الذابح مسلم وما دام مسلماً فالمفروض أنه لا يمكن أن يخالف حكماً إسلامياً، فإن ترك التسمية فإنما تركها قسراً لا عن اختيار وسوء نيّة أو عدم إقرار بهذا. وعليه فإنه يكفي فيه قولنا: إنه مسلم[٤].

التسمية بغير اسم اللّه والفرية على الشيعة

إنّ الذبيحة إنّما تحلّ بشروطها، ومن هذه الشروط التسمية باسم اللّه تعالى كما قلنا، وعليه فلو أنّ أحداً سمّى على الذبيحة بغير اسم اللّه فإنّها يحرم أكلها. وهذا ما عليه الطائفة الإمامية، ودونك كل كتبنا الفقهية وكتب التفسير[٥]، فليس فيها ما

---

(١) المجموع ٨: ٤٠٨، ٩: ٨٣، ٨٦، وقد نصّ على أنها مستحبّة لا واجبة.
(٢) فللمذهب المالكي انظر: المدونة الكبرى ٢: ٥١، ٥٤، رسالة ابن أبي زيد: ٣٩٦ - ٣٩٧.
وللمذهب الحنفي انظر: المبسوط ١٢: ٣، بدائع الصنائع ٣: ١٧٥، حاشية ردّ المحتار ٦: ٦٠٨.
وللمذهب الحنبلي انظر: المغني ١١: ٣ - ٤، ٣٢، ٣٣، الشرح الكبير ١١: ٥٧ - ٥٨، كشّاف القناع ٦: ٢٦٥.
(٣) انظر: المقنعة: ٥٨٠، الكافي في الفقه: ٣٢٠، التبيان ٤: ٢٥٦، مجمع البيان ٤: ١٤٩.
(٤) المقنعة: ٥٨٠، الكافي في الفقه: ٣٢٠.
(٥) انظر الهامشين السابقين.

يذكر أنّ الذبيحة تحلّ لو كانت التذكية بغير اسم اللّه. وأنا أود من هذا المنبر أن أسأل إخواننا الذي يروّجون ضدّنا الإشاعات، ومنها أننا حينما نريد أن نذبح الذبيحة فلا نقول: «باسم اللّه»، بل نقول: ياعلي، وبالتالي فإنّ هذه الذبيحة ممّا أُهلّ به لغير اللّه تعالىٰ؛ فهي حرام، فأقول لهم: أين وجدتم مثل هذا الكلام وهذه الفرىٰ؟ إنني سأكون شاكراً لكم حسن صنيعكم فيما لو أرشدتموني إلى مصدر واحد من هذه المصادر التي تزعمون أنّ هذا الافتراء وهذا الكلام موجود فيها. وأنا بدوري سأُرشده إلى جملة من مصادر المسلمين التي تجيز أكل الذبيحة فيما لو أنّ اسم النبي عيسى عليه السلام أو اسم الصليب ذكر عليها فيما لو كان القصد من ذلك التقرّب إلى اللّه تعالى لا التقرّب إلى النبي عيسى عليه السلام أو إلى الصليب[1]. ومن أراد الاطّلاع فليراجع (الموسوعة الفقهية) المطبوعة في الكويت، في باب الذبائح.

ومما يؤيّد كلامي هذا أنّه جاءني أحد الإخوة وقال لي: لقد بعثت لجاري طعاماً فيه لحم وجعلت ثوابه للإمام عليه السلام، فأخذه وكبّه على الأرض وقال: أنتم لا تذكرون اسم اللّه على الذبيحة. ولست أدري من أين جاؤوا بهذه الفرية، وإلامَ سيستمرّ هذا الاعتقاد الباطل عندهم؟ وإلى متى سيبقى هذا الإنسان يُقاد أو يساق دون وعي منه هكذا؟ ثم إن هؤلاء الذين يحملون هذا الفكر، ما هي مصلحتهم في نشر هذا الكذب؟ هل المصلحة هي تمزيق وحدة المسلمين وتفريق شملهم؟ أم ماذا؟ ثم إنّ هذا المفتري حينما يطلق هذه الدعوة الكاذبة ألّا يخاف من أن

---

(١) المدونة الكبرى ٢: ٥٦، المغني ١١: ٥٦، الشرح الكبير ١١: ٥٨ المحلى ٧: ٤١١، ٤١٢، فتح الباري ٩: ٥٤٩، المصنف ٦: ١١٩، معرفة السنن والآثار ٧: ٢١٨: الاستذكار ٥: ٢٥٨. بل في المحلى ٧: ٤١٢ عن الحسن وطاووس ومجاهد أنهم كرّهوا ما ذبح للآلهة، أي أنه جائز.

يكذّبه أحد ويطالبه بالدليل من حيث لا يجد الدليل ولا يمكنه الوصول إليه؟

أما مسألة الميتة وأكلها؛ فإن كان الإنسان معتقداً بجواز أكلها مطلقاً وليس عند الضرورة التي صرّحت بها قواعد المسلمين، فلا شكّ في كفره، وهذا خارج نطاق بحثنا ومناقشتنا، لكن المشكلة أنّ هؤلاء لا يقرؤون ولا يستمعون لمن يكلّمهم[1]، ثم يهرّجون بتكفير اُمّة بكاملها.

وطبعاً نحن لا نهتم لمثل هذا الكلام، ولا يعنينا بشيء ما دمنا سائرين في أرض صلبة وعلى درب اللّه ونهجه وهداه، وهو لن يزيدنا شيئاً ولن ينقصنا كذلك. لكن كل ما في الأمر أننا نتساءل عن المصلحة والدوافع التي تقف وراء هذا التمزيق ومخالفة أمر اللّه تعالى[2]، وإلّا إذا لم يكن الأمر كذلك ـ تمزيقاً لوحدة المسلمين وتشتيتاً لأمرهم وتفريقاً لكلمتهم ـ فما هو إذن إذا كان هؤلاء يعيشون معنا ويسمعوننا كلّ يوم ننادي: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله**»، ونتوجه إلى قبلة المسلمين، ونحجّ بيت اللّه الحرام؟ والغرابة العظمىٰ أنّ هؤلاء حينما يمرّ بهم ذكرنا يفقدون توازنهم ويصيبهم الدوّار، ولست أدري لم كل هذا الحقد وهذه الكراهية.

على أية حال ليس عندنا رأي واحد يذهب إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه؛ لأنّها مخالفة صريحة للقرآن الكريم وللسنة النبويّة المطهّرة، بخلاف غيرنا.

---

(١) يقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

التبيان ١: ٦٤، ٤: ١٢٥، الكشاف ١: ٥٥٤.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٣.

المبحث الثاني: معنى ﴿ما لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ومعنى الفسق

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وللمفسّرين هنا آراء في الذبائح المقصودة في الآية الكريمة، فهم فيها على قسمين:

الأوّل: ما كان يذبح للصنم

فما كان يذبح للأصنام وتذكر عليه أسماؤها هو المقصود في هذه الآية الشريفة، وهو فعل المشركين وإن كان البخاري يروي من حديث عائشة أن جماعة قالوا: يا رسول الله، إن قوما حديثو عهد بشرك يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله أم لم يذكروا. فقال ﷺ: **«سمّوا أنتم وكلوا»**[1].

هذا في حين أننا إذا لم نحرز التذكية لا نأكل إلّا أن يكون من يد مسلم. وفقهاؤنا هم من أشدّ من يحافظ على القواعد الإسلامية ويراعيها.

الثاني: الميتة

فالحيوان الميت لا يجوز أكله لعدم تذكيته وعدم التسمية عليه. وهذا فيه نقاش بين العلماء.

معنى الفسق

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، والمراد بمتعلّق الفسق هنا: الأكل؛ وعليه فالضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على الأكل. ومعنى هذا أن كل أكل لم يُذكَّ بالشكل الشرعي الصحيح هو فسق حرام أكله، فهم يعبّرون عنه بالمصدر، والفسق معصية، وكل حكم يعرف الإنسان أنّه ثابت للّه جلّ وعلا وعنه ثم يخالفه إلى غيره يعتبر فيه عاصياً، فإنّ أصرّ عامداً منكراً أصبح مشركاً، كما سيمرّ بنا.

---

(١) صحيح البخاري ٣: ٦، وانظر: سنن الدارمي ٢: ٨٣، سنن ابن ماجة ٢: ١٠٦٠، كشّاف القناع ٦: ٢٦٥.

المبحث الثالث: في معنى المجادلة في الآية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، إن المجادلة في الواقع هي ابتلاء من ابتلاءات العصر وآفة من آفاته وأمراضه، بل في كل آن وزمان، فكأن الآية الكريمة تشير إلى حالات الجدال التي كان المشركون يثيرونها مع المسلمين حول مسألة حرمة أكل الميتة، ويقولون لهم: إنكم تأكلون ممّا تقتلونه أنتم ولا تأكلون مما يقتله اللّه! وهذا الجدل دلّ على لون من السطحية؛ لأنّ الميتة تترتّب عليها أضرار للآكل بخلاف المذكّاة؛ حيث إنّ الحيوان المذكّىٰ يكون صحيحاً سليماً وبكامل حياته ثم يذبح، أمّا الميتة فلم يحصل لها الموت إلّا لوجود نوع من الجراثيم أو المسبّبات المرضية[1]، أو حدوث أمراض فيها. وهذا أحد أسباب وحِكَم دفن الميت في الأرض، حيث أمرنا اللّه تعالى بذلك؛ لأنّ الأرض مطهِّرة، والبعض حينما يموت فإنّما يموت وهو عبارة عن مستودع للجراثيم والفايروسات، وبدفنه تأكل بكتريا الأرض ما به وينتهي الأمر.

إذن هناك فرق كبير بين التذكية والموت؛ ولذا فإن اللّه تعالى نهانا عن تناول لحم الميتة إلّا في حالة الاضطرار التي هي حكم ثانوي. ومعلوم أنّ الحكم الثانوي حاكم على الحكم الأوّلي، وبهذا صرّح الفقهاء؛ حيث يقولون: إنّ حالات الاضطرار حاكمة على الحالات الطبيعية الأُخرىٰ. فهذا الجائع المنقطع إذا لم يأكل من الميتة فإنّه سيموت. ومثله من كانت يده على مالٍ لغيره حيث إنّه لا يجوز له التصرّف به أبداً؛ فإن توقفت حياته عليه جاز له أخذ شيء منه ليأكله، لكن بمقدار ما يسدّ به رمقه. وإن مانع صاحب المال ومات الشخص المحتاج فهو

(١) والجائحيّات.

آثم وعليه الدية أو القصاص، وإنّ قتله المحتاج فدمه هدر؛ لأنّ هذه الحالة اضطرارية[١].

إذن فهؤلاء كانوا يجادلون المسلمين حول امتناعهم عن أكل الميتة التي هي من قتل اللّه كما يزعمون، وهو تفكير سطحي كما ذكرنا. وعليه فإننا يجب ألّا ننسىٰ أنّ له تأثيراً على الجماهير البسيطة، وهؤلاء هم من يهمّ أصحاب الدعوات الباطلة؛ لأنهم لا يستيطعون أن ينفذوا إلى العقول المستنيرة وأصحاب العلم والمعرفة، بل إنهم يتمكّنون من خداع السذّج من الناس وذوي العقول البسيطة والمعارف السطحية فقط.

هل هو زنا وإن كان برضا الطرفين؟

وهناك نوع آخر من أشكال الجدال يطرح على الساحة وهو: لماذا لا يجوز للزاني أن يزني إذا كان الطرفان متّفقين راضيين، في حين أن الزواج يجوز برضاهما؟ فعنصر الرضا متوفّر في الحالتين، فلِمَ لَمْ يجز في الأُولىٰ في حين أنه جاز في الثانية مع أنّ الرضا شرط في كلّ عقد؟ وما حاجتنا إلى الكلمة التي تشترط هنا إذن؟

عواقب الزنا وآثاره

إن الحرمة هنا تنشأ من كون أن هذا الفعل له عواقب وخيمة نذكر منها:

الأوّل: مشكلة الولد غير الشرعي

فإنّ من الممكن أن يتولّد من هذا الماء الحرام ولد، وهذا الولد سينعته المجتمع بأنه «ابن زنا»، وسيسميه بهذا، وهو ما يعدّ عاراً عند الولد نفسه. وبهذا النعت

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٣.

يتحوّل الولد إلى قنبلة موقوتة؛ لأنّه سيفسّر الأمر على أنّ هذا المجتمع الذي يلعنه الآن هو الذي دفع أبويه إلى هذه الجريمة وهذا الفعل المنكر وهذه الخطيئة؛ لأنّه لم يوفّر لهما الأجواء المناسبة للزواج، ولم يسهّل لهما موارده، ثم أصبح الآن يحمّله مسؤولية هذا الفعل. وبهذا فإنّه سيفكّر بالانتقام منه بأيّ وسيلة تخطر على باله أو تتاح له.

الثاني: انعدام الجانب الإنساني في العلاقة

إن التواصل بين الجنسين بهذا اللون يؤدّي إلى حالة من حالات عدم احترام إنسانية المرأة وعدم الالتزام بضرورة احترام كيانها؛ لأن الرجل سيتركها لمصيرها بمجرد أن يقضي وطره منها. وأبعد من ذلك أنّها بمجرّد أن تكبر وتشيخ ويذهب جمالها ينعدم رصيدها عند الرجال وتبقىٰ وحيدة تقتلها الكآبة، وربما رُميت في الشارع دون أن يحتضنها أحد أو يراعيها.

فالرجل الذي يتّسم بهذا المستوى من التفكير لا يكون له همّ سوىٰ إشباع حاجته ولذته، فإذا فعل ذلك رمىٰ المرأة إلى الأرصفة وتخلّىٰ عنها، وبهذا تصبح كياناً منهالكاً ضائعاً لا يجد من يحنو عليه أو يراعيه أو يؤويه. والنتيجة أنّ المرأة ستعيش جوّاً حيث لا كرامة ولا شرف ولا تكريم.

وكذلك الزوج فإنه سيحصل معه ما يحصل مع المرأة بمجرّد أن يكبر ويصبح عاجزاً؛ فهو مقبول مرغوب مادام في قمّة حيويته ونشاطه وفحولته، ومادام قادراً على إشباع حاجة المرأة ولذائذها، فإن شاخ رُمي وترك دون أن يعيره أحد نوع اهتمام، وكأنه قطعة أثاث قديمة ركنت في جانب منسي من المنزل، بل ربما ترك يلاقي مصيره وحيداً في الشارع، أو حيث يرمىٰ.

وهذا يعني أنّ الإنسانية كلها ستتعرّض للضياع وإلى حالات متشنّجة مؤلمة،

وهذا هو الفرق بين بينه وبين العقد الذي يعتبر أداة التزام ووسيلة التحقيق للإرادة. ولذا فإن الفقهاء يعبّرون عنه بأنه «مبرز»[١]؛ لأنّه يبرز إرادة الإنسان، أو يعبر عنها. والإرادة تعني الالتزام، وهو بدوره يعني إكرام المرأة، وضمان حقوقها المادية والمعنوية، وبالمقابل إلزامها بضمان واجباتها تجاه زوجها وبيتها وأُسرتها.

ومن هذا التواؤم والتآلف والتوافق تنشأ الأُسرة الصالحة والسليمة، القائمة على التفاهم والاحترام المتبادل والمبتنية على حفظ الحقوق والواجبات. وهذا الالتزام هو الذي يحفظ المجتمع؛ لأن المجتمع من غير التزام يتحوّل إلى مجتمع بهيمي.

إذن هذا الذي يريد أن يبرز عبقريته، فيعترض بأنه ليس هناك فرق بين الزنا والزواج، وأنّ الزواج أمر مكلف حيث تترتّب عليه التزامات وتكاليف مادية وغيرها، إنما هو في حقيقته يريد أن يصبح مثل الحيوان يقضي لذته ثم يولّي هارباً تاركاً وراءه كل الحقوق والالتزامات المترتّبة عليه، وبالتالي يهدر كرامة المجتمع ويحوّله إلى حضيرة حيوانات.

مسألة الربا ومضاعفاتها

وهذا التساؤل حول مسألة الزواج والزنا شبيه بالتساؤل حول مسألة البيع والربا، وهي مسألة أُثيرت في عهد رسول اللهﷺ، فكان هناك من يقول: ما الفرق بين أن أُعطي مئة دينار وآخذ مقابلها مئة دينار وعشرة، وبين أن أشغّلها وأربح عليها عشرة دنانير؟ فلم حلّ هذا وحرم ذاك؟ وجاء جواب القرآن الكريم:

---

(١) القواعد الفقهيّة ٣: ١٣٦ / ٣٠.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(١). وهؤلاء الذاهبون إلى هذا يضعون مختلف التعليلات لتبريره سيّما في هذا الزمن، فهم يعلّلون ذلك بأنّه لابدّ من التعامل مع المصارف، والمصارف في حقيقتها تقوم أساساً على مبدأ الربا، وعليه فلابدّ من التعامل بالربا؛ إذ يتعذّر الاستغناء عن التعامل مع المصارف.

ويجاب هؤلاء على هذه التبريرات بأنهم يجهلون أي منطق يتكلمون عنه، وهذا واضح؛ لأنهم لا يعلمون ما يترتب على الربا من بلاء وخيم، ومن أنواع هذا البلاء:

الأوّل: أنّه يعطّل الطاقات البشرية والمالية

فالمرابي حينما يأخذ هذه الأرباح على أمواله التي يقرضها، فإنّه سيعتاد على الكسل؛ لأنّه سيرفض فكرة العمل والتعب المترتّب عليه مادامت الأموال تدرّ عليه بهذه الصورة السهلة. وهو بهذا سيحرم المجتمع من طاقاته الفكرية أو الجسمية التي أودعها الله فيه، والتي فُرض عليه أن يستثمرها لصالحه وصالح مجتمعه. وهذا الأمر يفرضه عليه حتى المجتمع نفسه وليس الخالق جل وعلا فقط، فهو مطالب بأن يتعامل مع المجتمع الذي يعيش فيه تفاعلاً إيجابياً(٢). فإن رفض فإنه يكون قد جمّد كل طاقاته التي يمكن أن توظّف لخدمة المجتمع

---

(١) البقرة: ٢٧٥.

(٢) بمعنى أنّ المجتمع عبارة عن وحدات بناء متمثّلة بهذه الطاقات البشرية التي وفّرت له وسائل الراحة والمواصلات والاتّصالات وغير ذلك من أساليب الترفيه، فكما أنه يستفيد من هذا المجتمع فعليه أن يفيده، فيأخذ ويعطي. وهذا الواجب يطالبه به المجتمع كما يطالبه الله، فإن رفض التفاعل الإيجابي معه عاش عالةً عليه، فهو كالعلق يمتصّ دم الآخرين دون أن يعطيهم شيئاً.

والإنتاج. وهذا الأمر لا يقتصر على فرد دون آخر، فهو يشمل الفلّاح والنجّار والعامل البسيط، فكل عضو فاعل في المجتمع.

الثاني: عدم مشروعية المال المأخوذ به

ومعنى هذا أنّه يحرم التصرّف بها مطلقاً. فالربا لا يعترف بالعمل كرأس مال، وهذا خلاف النظرية الإسلامية التي تعدّ كل مال مأخوذ من غير عمل مهما كان مالاً حراماً يحرم التصرّف به. فالأرباح التي تأتي عن طريق الربا لم تأتِ عن طريق العمل، وبالتالي فهي غير مشروعة. ولتبسيط الفكرة نقول: إنّ هذه الأموال التي نتعامل بها هي عبارة عن عمل مجمّد، بمعنى أنّ المعادن المدفونة في الأرض مثلاً تحتاج إلى عامل يستخرجها، وآخر ينقلها، وثالث يعاملها لتصبح صالحة للاستعمال، ورابع يصنّعها، إلى غيره ممّن يقوم بتسويقها وبيعها، وغيره ممّن يهيئ لها وسيلة النقل التي تقوم بإيصالها إلى محالّ التسويق والبيع وهكذا. فهذا كلّه عمل، وهذا العمل مترجم إلى مال.

إذن فالأموال حصّة من المخزون السلعي أو المخزون الذي يُجمّد فيه العمل، أمّا الربا فيختلف جملة وتفصيلاً عن هذا، فهو لا يعترف بكل هذا، وبالنتيجة لا يعترف بالعمل كرأس مال؛ لأنّه لا يُهمه أن هذا ربح أو خسر، بل يهمّه أن يستلم هذه الأرباح التي يفرضها على المال الذي يقرضه. وحتى المضاربة مثلاً فإن الحال فيها خلاف ذلك؛ لأنّ من يعطِ رأس مال لغيره ليضارب به (يعمل به) فإن المال إن ربح قُسّم الربح بين المتضاربين حسب اتّفاقهما، وإن خسر عادت الخسارة على رأس المال فقط دون أن يخسر العامل شيئاً؛ لأنّه يكون قد خسر تعبه، وهو رأس مال أيضاً؛ إذ أنه عمل، وهو بقدر رأس المال الضائع كلّه أو بعضه.

وخلاصة الأمر أن الربا لا يعترف بالعمل كرأس مال.

الثالث: تعطيل الجانب الأخلاقي في المجتمع

إنّ الربا بهذا الشكل يقضي على العنصر الأخلاقي في التعامل بين الناس، فحينما يقترض شخص مبلغاً، ثم يكون لزاماً عليه أن يرجعه مع زيادة فيه لا عن طيب قلب ولا عن رضا ـ وهو خلاف الحال مع المضاربة ـ وإنما قبل به تحت ضغط الظروف ومشاكل الحياة وتعقيداتها، فإن هذا المقترض سيشعر بأن المرابي قد اقتصّ من تعبه وسرق من عرقه؛ وبهذا ستنشأ سوء علاقة بين الآخذ والمعطي. وهذه الحالة إن عمّت المجتمع أصبح كلّه بهذا الشعور العدائي المتبادل؛ وبذلك يكون مجتمعاً غير متوازن أخلاقيّاً، وهو ما يرفضهُ الدين وترفضه الفطرة قبله.

فهل بعد هذا يأتي من يقول: ما الفرق بين البيع والربا؟ إن هذا هو الجدل الذي لا يراد من ورائه بلوغ الحقيقة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.

المبحث الرابع: في المراد من الشياطين في الآية

يختلف المفسرون حول المراد من الشياطين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، فهم فيه على رأيين:

الرأي الأوّل: أنهم من الجن

وهم الذين يلقون الفكرة في رأس الإنسان الذي يجد نفسه أحياناً وقد برقت في ذهنه فكرة غير سليمة دون أن يعرف مصدرها. فهؤلاء المفسّرون يذهبون إلى أنّ الشياطين من الجن هم الذين يلقون هذه الأفكار غير القويمة في أذهان الناس ويطرحونها في رؤوسهم أو في الجزء الواعي من عقولهم. وهؤلاء الشياطين دائماً إلى جانبنا ويقومون بإغواء الإنسان وإلقاء أفكارهم المضلّلة في رأسه.

وقد استغل الدجّالون هذه الظاهرة القرآنية لابتزاز البسطاء عن طريق التحايل عليهم ببعض التمائم والتعاويذ. كما أنّ بعضاً من العلماء أيضاً يذهب إلى مثل هذه الكوارث، ويبتعد أكثر حينما ينسب البعض من البشر إلى الجن بدعوى وقوع التزاوج بين الثقلين. وهذا تاريخنا يثبت هذه الكارثة بين طيات كتبه، فأين هؤلاء من الدنيا؟

نعم، نحن نؤمن إجمالاً بوجود الجن من الصورة التي رسمها لنا اللّه تعالى في القرآن الكريم، وهي صورة إجمالية، ونحن نؤمن بكل ما يذكره اللّه تعالىٰ في كتابه الكريم. أمّا على نحو التفصيل فهذا ما لا نعلمه إلّا بمقدار ما تذكره وتثبته السنة الصحيحة الثابتة نسبتها لرسول اللّه ﷺ وآله المعصومين. وما عدا ذلك فيجب أن نتوقف فيه من قبيل نمط حياتهم، وإمكانية الزواج منهم، ووقوع ذلك وعدمه؛ فهي من الأُمور التي يجب الرجوع فيها إلى رأي المعصوم؛ إذ أنّها لا تقع ضمن دائرة الحواسّ أو العقول البشرية أو الإدراكات الإنسانية؛ فهي ممّا وراء الطبيعة، وإذا كانت كذلك فيجب عدم البتّ فيها دون الرجوع إلى رأي المعصوم. أي أنّ الواجب ألّا يفتح الباب أو هذا المجال أمام الدجّالين والمخرّفين ليدلوا بدلائهم في هذه الأُمور الغيبية، فيستغلوا عامّة الناس وبسطاءهم.

الرأي الثاني: أنهم من الإنس

وهذا الرأي عليه الأعمّ الأغلب من المفسّرين، فهناك شريحة من الناس لهم تصرّفات تميل وتجنح إلى جانب الشر، ويشوبها السلوك غير القويم، وهؤلاء يحاولون أن يوهموا الناس بأن آراءهم هذه صحيحة بواسطة مجادلاتهم العقيمة، فيوسوسوا لهم بأن يذهبوا ويجادلوا غيرهم بهذه المجادلات الفاسدة العقيمة. وهذا مثل من يدّعي مثلاً أنّ الخروج على يزيد بن معاوية حرام؛ لأنه خروج على

الإمام الحقّ، والخروج على الإمام يؤدّي إلى فساد المجتمع.

وهذا كلام مموّه ويحمل نصف الحقيقة؛ فالمقدمة الكبرى ـ وهي أن الخروج على الإمام حرام؛ لأنه يؤدي إلى فساد المجتمع، كما يقرّر ذلك في موضعه من علم المنطق ـ هي مقدّمة صحيحة، لكن المقدّمة الصغرى ـ وهي أن يزيد إمام حقّ ـ هل هي صحيحة سليمة أم لا؟ إنّ هذه المقدّمة طبعاً فاسدة وغير صحيحة[1].

والاعتقاد الفاسد بصحة هذه المقدّمة لا يزال يعيش إلى الآن عند البعض ممن يكتبون عن الإمام الحسين عليه السلام، فيقول هؤلاء: ما الذي أخرجه؟ ولماذا ألقىٰ بنفسه إلى التهلكة؟ وكأن هذا المتسائل المعترض لم يقرأ القرآن الذي يصدح بأعلى صوته: ﴿**وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**﴾[2]، ألم يحمل القرآن الكريم دائماً على الظالمين ويأمر بقتالهم: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً**﴾[3]؟ ألم يدفعنا القرآن الكريم إلى الوقوف دفاعاً عن العقيدة؟ ثم بعد كل هذا يأتي من يتّهم سيّد شباب أهل الجنة بالخروج على الإمام والإفساد في الأرض[4].

وقد سجّل الإمام الحسين عليه السلام هذا الموقف بوصيّته لأخيه محمد بن الحنفية رضي الله عنه حيث قال: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول**

---

(١) وإذا كانت إحدى المقدّمتين غير صحيحة فإنّ النتيجة تكون غير صحيحة أيضاً؛ لأن النتيجة دائماً تتبع أخسّ المقدّمتين على ما أثبته المناطقة.

(٢) هود: ١١٣. (٣) الكهف: ٢٩.

(٤) قد مرّ ما كان من ابن عربي في ج ٣ ص ٣٦، وابن تيمية في ص ١٠٢ من هذا المجلّد.

الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»[١].

وكان محمدﷺ قد حجبه مرضه عن حضور واقعة الطف، فقد كان مصاباً بالصرع، وكان يغمى عليه بين آونة وأُخرىٰ. فودّعه الإمام الحسينﷺ قبل خروجه، وكانت ساعة توديع مؤلمة، فقد اعتنقا وبكىٰ محمد بن الحنفية، فأخبره الإمام الحسينﷺ أنّه حينما يستقرّ به المقام سيتصل به.

وبقي محمدﷺ على هذا الأمل، وإن كان عالماً بما سيجري على أخيه الحسينﷺ، حتى وصل ناعي كربلاء ينعاه وإخوته وأصحابه، وكانت السبايا قد لاح لهن قبر الرسول الأكرمﷺ، فجرين مهرولات نحوه يندبن إليه ولده وأنصاره، والناعي يصيح بأعلى صوته:

يا أهلَ يثربَ لا مقامَ لكم بها ... قُتل الحسينُ فأدمعي مدرارُ

الجسمُ منه بكربلاءَ مضرّجٌ ... والرأسُ منه على القناةِ يدارُ[٢]

فسأل محمدﷺ غلامه عن خبر المدينة والضجّة التي فيها، فقال له غلامه: سيّدي لقد رجع أهلك، والناس قد خرجوا لاستقبالهم. فقال: أُريد أن أذهب للحسينﷺ. وكان مريضاً فلمّا أراد أن يقوم سقط إلى الأرض، ونهض ثانياً فسقط، وأمّا في الثالثة فنهض وقال: أما والله إن فيها لمصائب آل يعقوب. ثمّ نشروا عليه رداء عن الشمس، فأقبل ولما توسّط المدينة فاجأته السبايا ومعها الأطفال وهم ينادون: والوعتاه واحسيناه. فقال: فعلتها بنو أُميّة؟

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) مقتل الإمام الحسينﷺ (أبو مخنف): ٢٣٩، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١١٥.

وكانت النساء قد توزّعن؛ كل واحدة ذهبت إلىٰ جهة، أما الحوراء أُخت الحسين فأقبلت إلىٰ قبر رسول اللّه ﷺ وأخذت بعضادة القبر وأخذت تنعىٰ لرسول اللّه ﷺ ولده. ثم عادت فوقع بصرها على أخيها محمّد، فهرولت إليه، وكانت طيلة فترة السبا لم تجد قلباً أو صدراً تفيء إليه سوىٰ قلب السجاد ﷺ الذي كانت المصيبة قد فجعته أيضاً، فلما شاهدها محمد ﷺ سقط إلى الأرض مغمىً عليه، فأقبل إليه الإمام السجاد ﷺ، وأخذ رأسه ووضعه في حجره ونضحه بدموعه، ففتح عينيه وقال: علي هذا؟ قال: «**بلىٰ**». قال: بنيّ علي أين أبوك؟ قال: «**ياعمّ لا تسأل لقد أتيتك وحيداً**».

ثم أقبلت الحوراء إلى دار أبي عبد الله الحسين ﷺ:

وحگك لو چـهبت الدار	أنـاجيها بـدمع سـچّابْ
أشـوف ارسـومكم بـيها	واشـتَم ريـحة الأحـبابْ
واتـذكّر ثـناياكـم	واتكـوّم گـبال البـابْ

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا	وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا	لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا[1]

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿١٦١﴾

قانون الأُسرة في التشريع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾[2].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الأُسرة والمؤسّسات الدينية

ترتبط هذه الآية الكريمة بتكوين الأُسرة ونظام تأسيسها وإنشائها، وموضوع الأُسرة الإسلامية ربما يكون قد عولج نظرياً، بمعنى أنّ الكتّاب المسلمين قد عالجوه من الجانب النظري، لكن مؤسّساتنا الدينية والحضارية ـ للأسف

(١) الفرقان: ٧٤. (٢) النساء: ٣.

الشديد ـ قد أهملت هذا الجانب وقصّرت في معالجته ومراقبة تقنينه. وهذا الموضوع أساسي جداً؛ لأنّه لا يمكن أن نحصل على مجتمع واعٍ ومنظّم وسليم ما لم تنظم الأُسرة، وما لم يكن الأفراد سليمين صالحين؛ فإذا كانت الأُسرة منخورة كان المجتمع منخوراً. ولعل هذا الأمر هو السمة الغالبة لمعظم الأُسر العصرية؛ فنادراً ما يكون الأبوان منسجمين، وهو ما ينعكس على الأولاد بصورة سلبية وقاتلة.

مشروع الزواج في الإسلام

ونحن اعتدنا في ليلة القاسم بن الحسن عليه السلام أن نتعرّض إلى موضوع الزواج، وهو موضوع يتّسم بالكثير من الحساسية، ويتوّفر على جوانب متعدّدة يجب مراعاتها بدقّة. والإنسان لا يستطيع أن يُلمّ بكل هذه الجوانب في موضوع واحد، لكن لا يترك الميسور بالمعسور؛ ولذا فإننا سنتناول أهم هذه الجوانب. وموضوع الزواج تناوله قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾، وهو من أكثر المواضيع التصاقاً بواقعنا القائم على الكثير من المغالطات التي ينبغي أن تعالج.

النظم بين اليتامى وتعدّد الزوجات في الآية

إنّ أوّل ما يتبادر إلى الأذهان هو تساؤل حول وجه العلاقة بين اليتامىٰ وإباحة تعدّد الزوجات حتى تربط بينهما الآية الكريمة. وهذا المتسائل يجد جواب تساؤله هذا من خلال فهم الجوّ العام لليتامى، وتحقيق معنى اليتيم. إن اليتيم من الحيوانات هو الحيوان الذي فقد أُمّه لأنّها هي التي تقوم برعاية صغارها وتنشئتهم

وحمايتهم حتى يكبروا دون الأب، وهو خلاف ما عند بني الإنسان حيث إنّ اليتيم هو من يفقد أباه وليس أُمّه؛ لأنّ الأب هو المسؤول عن رعاية الأطفال وتربيتهم وتنشئتهم، وصيانة الأُسرة والقوامة عليها، وتوفير المأكل والمشرب والملبس، فإذا ذهب الأب فقد الأطفال كلّ هذا.

سبب نزول الآية

فالآية الكريمة تخاطب المسلمين الذين كانوا يكفلون اليتامىٰ من أبناء إخوانهم في الدين بصفتهم أولياء لهم بعد فقد أوليائهم، وكان من جملة اليتامىٰ بنات، وهذا الولي ربما كان يسكنهن معه في بيته، أو في بيت آخر لكن يحتاج إلى أن يدخله متى شاء حسبما تقتضيه مصلحتهن، وهنا يرى الفتاة وتراه وهي محرّمة عليه، ومن الممكن أن يعجب بها ويرغب في الزواج منها، لكن يخاف أن يمدّ يده لمالها أو ألّا يعدل معها: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾[1]، فكانوا يتورّعون خائفين. فجاءت الآية الأُخرىٰ تخاطبهم وتقول لهم: إن كنتم خائفين من أن تقعوا في هذا المحذور فهناك نساء أخر فتزوّجوا منهن كيلا تقعوا فيه. وهذا الأمر بين.

فمسألة اليتيم ليست سهلة البتة، فإذا أُسيئت معاملته اهتزّ العرش[2].

فكرة الزواج تحقيق للنظام التكويني للإنسان

إنّ فكرة الزواج تعيش عند الإنسان بفطرته وتتملّكه، وهي تمثل أحد جوانب

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) ورد في الحديث الشريف عن رسولنا الأكرم ﷺ: «إذا بكىٰ اليتيم اهتزّ له العرش». الفقيه ١: ١٨٨ / ٥٧٣، ثواب الأعمال: ٢٠٠، الفقه المنسوب إلىٰ الإمام الرضا عليه السلام: ١٧٢.

النظام التكويني الذي أودعه اللّه عنده. بمعنى أن الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثىٰ ـ حينما يولد تولد معه في ذهنه ومخيّلته فكرة الزواج، وهو ما يعبر عنه الفقهاء بقولهم: كل فرد هو زوج للآخر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١]. فكل واحد من الذكر والأُنثىٰ لا ينفكّ عنه صفة الزوجية، وهذه الثنائية تحكمهما كما أنها تحكم الكون كلّه[٢]. ولعل من أهم مظاهر هذه الثنائية التي تحكم كلّ شيء هو إثبات وحدانية الخالق جلّ وعلا، فهو تعالىٰ الواحد الفرد الصمد[٣].

مواصفات الأسرة السليمة

إذن فالإنسان عندما يولد تولد معه فكرة الزواج، فهذه الحاجة تخلق معه في قرارة نفسه؛ ولذا فإنّه لا يمكن أن يسمىٰ مخلوقاً كاملاً أو إنساناً كاملاً، بل هو نصف فقط، ويكمله نصفه الثاني[٤] الذي هو المرأة التي خلقها من نفسه[٥] وجنسه

---

(١) يس: ٣٦.

(٢) إنّ فكرة الزوجية والثنائية موجودة في الكون كلّه، وتحكمه بأجمعه بلا استثناء؛ فقد أثبت العلم الحديث أنّ لكل جسيّم جسيّماً يضادّه ويقابله، فالمادّة المنظورة تقابلها المادّة المظلمة، والإلكترون يقابله البوزيترون، وهكذا.

(٣) قال الشاعر:

لم يتخذ ولداً إلّا مبالغة ... في صدق توحيد من لم يتّخذ ولدا

البيت لأبي محمد الخازن. الدرجات الرفيعة: ٤٨٣، يتيمة الدهر ٣: ٢٧٨.

(٤) الذي عبّر الرسول الأكرم ﷺ عن لازمه بأنه نصف الدين بقوله: «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتّقِ الله في النصف الآخر». الكافي ٥: ٣٢٩، الفقيه ٣: ٣٨٣، كشف الخفاء ٢: ٢٣٩ / ٢٤٣٢.

(٥) وقد عبّر الله تعالى عن هذا في مواضع عدّة من كتابه العزيز، فقال عزّ من قائل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ النحل: ٧٢. وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ

ومشاعره. والزوجان حينما يقدمان على الزواج فإنما يقدمان على تكوين أُسرة ونواة للمجتمع، وهما بهذا يجب أن يعرفا أنّ لهـذه الأُسـرة مـجموعة ضـوابـط ومواصفات منها:

الأُولى: أنّ المرأة صانعة جيل وليست وعاء غريزة

فعلى الزوجين أنّ يؤمنا بضرورة الدور الذي سيقومان به معاً، وهو تهيئة نواة جديدة تصبّ في بناء المجتمع وتكوينه، وأنّ المرأة لها دور كبير في هذا المجال، وهو دور حسّاس وخطير وخطر في آن؛ لأنّها هي التي ستبني الجيل بـحكم أنّ الرجل سيتفرّغ لإدارة أعماله وكفالة الأُسرة من الناحية المالية وتـوفير وسـائل الحياة لها. فالمرأة هي التي تبني الجيل[١] وليست مجرّد وعـاء لغـريزة الرجـل يشبعه وقت يشاء. وهذا التفكير يتوفّر على كبير ظلم للمرأة، وإرخاصٍ لقـيمتها التي منحها اللّه إيّاها[٢]. فالمرأة هي التي تنشئ أجيال المستقبل بما تـملك مـن

☚ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الروم: ٢١. وقال: ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ الشورى: ١١.

(١) وقد جعله رسولنا الأكرم ﷺ بمنزلة الجهاد في سبيل اللّه، فقال: «جهاد المـرأة حسـن التبعل». الكافي ٥: ٩ / ١، كنز العمّال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣، ٢٤١ / ٤٤٣٠٨.
وقال ﷺ لشخص كان قد سأله: «ألا أُخبرك بخير ما يكنزه المرء؟». قال: ما هو؟ قال: «المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته». جوامع الجامع ١: ٣٩٦، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧٠، مسند أبي داود الطيالسي: ٣٠٦.
وفي حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية مع النبي ﷺ حيث سألته عن الجهاد، فقال لها: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتّباعها موافقته يعدل ذلك كلّه». الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣.

(٢) حيث جعل الجنة تحت أقدامها. مستدرك وسائل الشـيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسـند

إمكانيات تكوينية مودعة فيها لا يملكها الرجل البتّة؛ فهي تغذّي الوليد مع اللبن المشاعر والرأفة والحنان والعطف والتناغم والمحبّة، وكل هذه الأُمور يـرتضعها الوليد من ثدي أُمّه فهي موجودة فيه.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنّ الولد حينما يرى أُمّه كئيبة حزينة تسودّ الدنيا في عينيه، وهو ما لا يحصل له مع أبيه. وهو دليل على ارتباط الطفل بأُمّه وتأثّره بها وبحالتها النفسية؛ فالأُمّ هي الثغر الضاحك لأبنائها، والذي يضيء لهم سبل الحياة، والأُمّ هي عباءة الدفء التي تبعث في نفوس أطفالها الحنان والرقّة والمحبّة. ولذا فإن الأُم حينما تذهب يفقد الولد من العطف ما لا حدود له، يقول أحد الأُدباء مخاطباً زوجته التي توفيت وتركت أولادها:

في ذمّة اللّه ما ألقىٰ وما أجدُ — أهـذه صـخرة أم هـذه كـبدُ

غطّىٰ جناحاك أولادي فكنت لهم — ثغراً إذا استيقظوا عيناً إذا رقدوا

وفعلاً هي العين الساهرة التي يجافيها لذيذ الرقـاد وهـي إلى جـانب سـرير ولدها، في وقت يغطّ الأب في عميق نومه.

إذن فالمرأة هي التي تعدّ الجيل؛ لأن الأب في موضوع الزواج ينتهي دوره بعد أن ينتهي من حماية غريزته وإشباعها، فإن تكوّن ولد من ذلك فإنّه سيكون من مسؤولية الأُم من لحظة علوقه وحتى كبره وتمكّنه من الاعتماد على نفسه، مع أنّه يجب أن يمارس دوره كأب في توجيه ولده وتربيته وملاحظة سلوكه وتصرّفاته.

الثانية: أنّها تتحمل العبء الأكبر في عملية التربية

إذن فالمرأة يقع عليها العبء الأكبر والجانب الأضخم في عملية التربية والتهيئة

☚ الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

والتنشئة، ومن هنا جاءت توصية الإسلام بها؛ فيقول الرسول الأكرمﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٍ**»[١]. ويقول: «**إنهن عوارٍ عندكم**»[٢].

فالزوجة مكرّمة؛ فقد كرّمها الإسلام على لسان نبيّه الكريم محمدﷺ؛ ولذا فإنّه ليس من الرجولة ولا من الإنسانية ولا من الأخلاق أن يرمي الرجل جام غضبه على زوجته لأتفه الأسباب، بل ليس له ذلك وإن عظم السبب إلّا فيما يخرج عن الحشمة والدين. فالإسلام يعبّر عن رجل كهذا بأنه لئيم، جاء في الحديث الشريف: «**ما أكرمهن إلّا كريم ولا أهانهن إلّا لئيم**»[٣].

لأنّ المرأة مشدودة عاطفياً إلى زوجها، وهي تنتظر منه المعاملة الحسنة والاحترام والرقّة، كما أنّها مشدودة إلى أطفالها، وأيّ إساءة لها سوف تصيبها بخيبة عظيمة وطاغية للأمل الكبير الذي تعيش فيه وله. ومن هنا فإن الرسول الأكرمﷺ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[٤].

وهذا واقع فعلاً فنحن نعرف مدى تحمّل النبيﷺ لنسائه، ولو امعنّا النظر فيه لعرفنا العظمة في نمط السلوك الذي كانﷺ عليه، بل لا حدّ لعظمته. ولك أن تتصوّر كم هو سلوك عالٍ وراقٍ، وكم هو تصرّف سامٍ. وقد ورد في الروايات أنّ أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال[٥].

دخل رجل على النبيﷺ فقال له: يارسول اللّه، أخطب المرأة الجميلة أو

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٥٥ / ١٦، سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤ / ١٨٥١.

(٢) إيضاح الفوائد ٣: ٢٦٧، فتح القدير ١: ٤٦٢.

(٣) الجامع الصغير ١: ٦٣٢ / ٤١٠٢، كنز العمّال ١٦: ٣٧١ / ٤٤٩٤٤.

(٤) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.

(٥) انظر الاعتقادات: ٥٩.

ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: **«اظفر بذات الدين تربت يداك»**[(١)]. كما أنّ الشرع المقدّس في الوقت نفسه يوصي المرأة بأن ترتبط بذي الدين؛ لأنّه إن رغب عنها لم يظلمها. وذو الدين هو صاحب الخلق والالتزام، والذي يحمل الإنسانية بين جنبات نفسه.. الإنسانيّة التي أراد ديننا الحنيف أن يغرسها في نفوسنا. فمثل هذا إن أحبّها رفع قدرها وإن كرهها لم يظلمها[(٢)]، فمثل هذا هو الذي يملك وعياً بالأهداف الدينية وبأهداف بناء الأسرة والمجتمع.

والزوج إذا كان يعرف من نفسه أن سوف لن يحقّق العدل مع زوجته فليس من حقّه أن يتزوّج؛ لأنّ العدل واجب والزواج بهذه الصورة تضييع لهذا الواجب؛ إذ أنّ الزوجة في الأصل كيان أجنبي عن الزوج غير أنّ اللّه تعالى ربطه بكيانه بالعقد، فهي لها حقوقها ومجال حرّيتها التي ضمنها لها ديننا الحنيف، ولذا يجب مراعاة الأدب معها واحترامها. وكل مسلم مسؤول عن أن يعرف طبيعة التعاليم الإسلامية بهذا الخصوص (حقوق الزوجة وواجباتها) في حياتنا، وهذه رسائل علمائنا ملأى ببيان هذه الأُمور، فهي تتكفّل بتعليم الناس هذا الجانب الحيوي والمهم عند بني الإنسان، وبتربية الزوج على السلوك الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه إزاء زوجته. فهذه الرسائل تبين لنا حقوق الأُسرة وحقوق الزوجة وحقوق الرجل، وكيف يجب أن يتصرّفا حيال بعضهما.

المبحث الثاني: افتقار المجتمع الإسلامي إلى مؤسسات تربوية

إذن نحن بحاجة إلى تنظيم أُسروي تطبيقي، وهو تنظيم يحتاج إلى مؤسسات،

---

(١) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(٢) يقول النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر». مسند أحمد ٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨.

لكننا ـ ببالغ الأسف ـ لا نملك مثل هذه المؤسسات التربوية والتنظيمية لرعاية الأُسر، وتنظيم هذا الزواج. ولتدعيم هذا سوف أضرب بعض الأمثلة:

أوّلاً: اختيار شريك الحياة المناسب

ففي أوروپا مثلاً هناك مؤسّسات مختصة بشؤون الزواج، حيث يأتي كلّ من الشاب والفتاة إليها، فيعطيان معلومات شخصيّة عن حاليهما ونفسيهما تسمى «case study» أي «دراسة حال». ويشترط في هذه الدراسة أن تكون شمولية لمراحل حياة المتقدّم كافّة؛ من طفولته وحتى ساعته تلك. ثم يتولّىٰ جملة من الاختصاصيّين دراسة هذه المعلومات لإيجاد نقاط التقارب بين اثنين من المتقدّمين في الميول والأخلاق، ولمعرفة الموانع الصحيّة أو الاجتماعية، ثم يعطون نسبة النجاح لكل زيجة محتملة. وتعاليم ديننا الحنيف لا تمنع من وجود مثل هذه المؤسّسات، بل إنها تحثّ على توفّر عامل الوئام الذي هو نوع من أنواع البرّ التي يأمر بها القرآن الكريم حيث يقول تعالىٰ: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[1].

ثانياً: تقنين الزيجات

فلو أراد أحد أن يتزوّج من زوجة ثانية لسبب من الأسباب المشروعة ـ وإن كانت أغلب الزيجات التالية في مجتمعاتنا بعيدة عن الأسباب المشروعة؛ لأن البعض بمجرّد أن يمتلئ جيبه يسارع إلى الزواج دون معرفة بعواقبه ـ فمن المستحسن أن تكون هناك مؤسسات مختصّة تشرف على هذه الزيجات ومعرفة الأسباب والمسوّغات وهل هي كافية أم لا؛ ليرجع إليها؛ حتى تكون عملية

---

(١) المائدة: ٢.

الزواج هذه خاضعة لقوانين تنظيم الأُسرة. ومع أن الشرع لا يمنع من التعدّد، لكنه أباحه بشرط وجود داعٍ أو علّة مسوّغة. وقد ترك اللّه لنا تقدير هذه العلّة. لأنّ هذه الزيجات قد تؤدّي إلى ارتكاب حرام كما هو ملاحظ في كثير من البيوت التي تتّصف بوجود تعدد زيجات منها؛ حيث إنّها تتّصف بعدم توافر العدل بين الزوجات، وبضعف العلائق بين الإخوة أبناء العلّات، وانعدام الانسجام بينهم؛ فكل واحد من هؤلاء ينظر إلى أخيه على أنّه ابن ضرّة، فلا تجد بينهم ذلك الاندماج الروحي الواجب توفّره بين الإخوة.

إنّ الحياة مهما طالت ما هي إلّا أيام قلائل يقضيها الإنسان، ثم يودّع الأهل والأبناء والإخوة ويرحل إلى مقرّه الأخير، فهل يصحّ له أن يقضيها بهذا الشكل من النكد؟ إن المفروض بكل أسرة أن تعيش حالة الوئام والهدوء؛ لأنّ الإنسان أكبر من الغريزة، والمؤمن الذي له حرمة عند اللّه أعظم من حرمة الكعبة[1] يجب ألّا ينزل بنفسه إلى مستوى الغريزة، وأن يربأ بها عن ذلك. ونحن لا ننكر أن الإنسان يحتاج إلى الغريزة، لكن يجب أن يمارسها بالأُسلوب المهذّب، وألّا يكون مسيّراً لها فتتحكم في تصرّفاته، بل عليه أن يهذّبها وأن يخضعها لقواعد

---

(١) عن رسولنا الأكرم ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن اللّه عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.

وقيل لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: حديث يروى عنك؟ قال: «وما هو؟». قيل: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة». قال: «قلت ذلك، إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلي، أقبلت». الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

العقل وضوابط الدين عبر ركوب الطريق الصحيح الذي رسمته الشريعة.

وعليه فلا مانع من أن إيجاد مؤسّسات تحدّد مدى الحاجة إلى التعدد ومستواها. وفكرة المؤسّسات سواء كانت أخلاقية أو مالية أو اجتماعية تقوم أساساً على التعاون والتكاتف لبناء أُسرة سليمة.

من المسؤول عن قيام هذه المنظومة المؤسّساتية؟

إنّ هذه المؤسّسات يجب أن ترعاها وتشرف عليها جهة معيّنة، وتقوم بمراقبة أعمالها وأنشطتها، وكونها خاضعة للقواعد المرسومة أم لا. وهناك جهتان يمكن أن تكونا الطرف المسؤول عن مثل هذه المؤسّسات:

الجهة الأُولى: المجتمع

إنّ المجتمع كلّه يعدّ مسؤولاً أمام كل فرد عن قيام مثل هذه المجمّع المؤسساتي، وعن عمله ومراقبة نشاطه. والمجتمع يتمثل بالناس على اختلاف طبقاتهم وتعليمهم وأعراقهم؛ لأنّها قضية وطنية تهمّ الجميع؛ كونها ترتبط ببناء الأُسرة التي سيمزّق المجتمع إهمالها وعدم تنظيمها.

الجهة الثانية: الدولة

كما أن الدولة يجب أن تشترك بما تملك من إمكانيات وطاقات وأموال في تنظم هذه المسألة؛ لأنّ الجميع يجب أن يتعاون في بناء الأُسرة واستقرارها. فالدولة مطالبة أمام الرأي العام بهذا الأمر، بما تتوفّر عليه من الإمكانيات المادية وموارد الطاقة كافّة، ممّا يمكن أن تستخدمها وتسخّرها لخدمة هذا الغرض.

الأمن الأُسروي

فالدولة كما أنّها مطالبة ببناء المؤسسات التعليمية والصحية فهي كذلك مطالبة ببناء مؤسّسات اجتماعية ذات طابع أمني اجتماعي؛ لأن هذا الجانب يمثّل «أمن

أُسرة»، والأمن الأُسروي مطلوب تحقّقه وواجب تحقيقه؛ لأن الأُسرة التي فيها مربٍّ أمين لا تنتج جاسوساً أو مخرّباً أو عميلاً أو إنساناً منحطّ الأخلاق، فالأُسرة تبني الإنسان وتغرس فيه روح المواطنة الطيّبة، وتشدّه إلى التربية الإسلامية والقيم الأخلاقية فيما لو كانت مبنية على أساس صلب وبصورة سليمة، وهذه العملية حتماً سيكون لمثل هذه المؤسسات التوجيهيّة والتربوية، الأثر الأكبر فيها.

وعليه فترتيب الأُسرة وبناؤها هما من صلب الروح التي يهدف الإسلام إلى تعميمها في الجسد الإسلامي الواحد.

المبحث الثالث: دلالة ﴿مَا﴾ في الآية

تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، وللمفسّرين في معنى ﴿مَا﴾ الموصولية في قوله تعالىٰ: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، وفي دلالتها رأيان:

الأوّل: أنّها لغير العاقل

وهذا الرأي لا يعدّ تفسيراً للنصّ القرآني، بل هو إعراب عمّا في مخّ المفسّر ونفسيته؛ لأنّ مثل هذا المفسّر في عمله هذا ليس أكثر من أن يكون قد خلع مزاجه على النصّ، فهو لا يفسّر النصوص القرآنية وإنما يفسر ما هو موجود في ذهنه ويصبغه بصبغة التفسير.

وهؤلاء المفسّرون يقولون: بما أن ﴿مَا﴾ موضوعة لغير العاقل، وبما أنّ المراد بها هنا: المرأة، فنستطيع أن نخرج بنتيجة مفادها أنّ المرأة كائن غير عاقل، وأن حكمها حكم من لا يعقل؛ لأنّه تعالى استخدم ﴿مَا﴾ ولم يستخدم «من» الموضوعة لجماعة العقلاء.

وهذا الرأي غريب، ولو أنّه صدر عن إنسان عاميّ لأمكن التجاوز عنه والتذرّع له بأنّه لا يفهم معاريض الكلام؛ لأنّ البعض من الناس اذا تكلّم عن المرأة، قال: «أجلّ اللّه السامع»، وكأن المرأة شيء يستحقر ويستقبح ذكره وينفر منه، فلماذا؟ أليست المرأة هي أُمّ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام؟ أليست هي التي ولدت العظماء؟

فمن أين جاء البعض بمثل هذه التعبيرات المجحفة؟ ولماذا لا نستطيع أن نتخلّص من ميراثنا الاجتماعي الجاهلي؟ إن مثل هذه النظرة كانت ذات يوم من الأيام ميراثاً جاهلياً أقرّته عاداتهم وأعرافهم، فلماذا لا يزال هذا الميراث ملتصقاً بنا، ولا نزال نتمسّك به حتى الآن؟ ولماذا لا نستطيع التخلص منه؟

إذن فحينما يكون هذا الكلام صادراً من إنسان عامّي لأمكن التجاوز عنه، أمّا حينما يكون هذا الكلام صادراً عن عالم أو مفسّرٍ فإننا يحقّ لنا أن نرسم علامات الدهشة والاستغراب على وجوهنا.

وليس هذا بأوّل ما ابتُدع في هذا الباب، فهناك من يفسّر ﴿**السُّفَهَاءَ**﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**﴾[1] بالنساء[2]. وهذا في واقع الأمر ظلم كبير وعظيم للمرأة التي تمثّل نصف المجتمع، بل إنّه أكثر من الظلم، فهو تعدٍّ على الآخرين وعلى حقوقهم، ونستطيع أن نسميه انحرافاً عن جادّة الصواب.

الثاني: في مقدار العدد الشرعي للزواج

ويذهب البعض إلى أن للإنسان أن يتزوّج أي عدد شاء من النساء؛ لأنّ ﴿**مَا**﴾

---

(١) النساء: ٥.

(٢) التبيان ١: ٧٧، ونسبه لعامّة أهل التأويل، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٣.

الموصولة هنا مطلقة شاملة لأي عدد. وهذه النظرية موجودة في كتب المذاهب الأربعة[١]، وقد بحثتها في كتاب (فقه الجنس)[٢]، ومن أراد فليرجع إليه.

ويذهب البعض إلى العدد الأقصى المسموح به هو ثمانية عشر[٣]؛ لأنّ قوله تعالىٰ: ﴿مَثْنَى﴾ معدول عن اثنين واثنين، و﴿ثُلَاثَ﴾ معدول عن ثلاث وثلاث، و﴿رُبَاعَ﴾ عن أربع وأربع؛ فيكون المجموع ثماني عشرة زوجة، مستدلاً بأن رسول الله ﷺ قد تزوّج أكثر من تسع نساء، وهو ﷺ قد ندبنا لأن تتّبع سنّته. ونقول لهذا: أمّا هذا الفعل فهو من خصوصيّات النبي ﷺ، وأمّا الإطلاق الذي تتكلّم عنه فهو مقيّد بالإجماع وبالروايات؛ يقول الإمام الصادق ؑ: **«لا يحلّ لماء رجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»**[٤]. وهذه الأربعة شرّعت للحالات الاضطرارية وليست على نحو الإطلاق.

وهذا المذهب فاجعة، غير أنّ الفاجعة الأكبر أن من يقول بجواز الزواج من أكثر من أربع يتهّم الشيعة بأنهم يجيزون ذلك. ومن هؤلاء الذين ينسبون ذلك لنا

---

(١) تبيين الحقائق ٢: ١١٢، رمز الحقائق ١: ١٤٣، نيل الأوطار ٦: ٢٨٩، المجموع شرح المهذب ١٦: ٢٤٤، غرائب القرآن ٤: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧.

(٢) فقه الجنس: ٨١ ـ ٩٥.

(٣) غرائب القرآن ٤: ١٧٢، وفيه: «ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوّج بأي عدد أُريد؛ لأن قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ إطلاق في جميع الأعداد؛ لصحّة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقاً؛ فإن من قال لولده: افعل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر؛ فذِكْر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها».

(٤) فقه القرآن ٢: ٩٩.

الشاطبي حيث يقول: إنّ الشيعة يجيزون الزواج من تسع في آن واحد، أي يجمعون بين تسع. على أية حال إن هذه ليست المصيبة الأُولىٰ في تاريخنا، فإن هذا التاريخ مليء بالمصائب من أمثال هذه، بل بما هو أشدّ وأنكىٰ. ولذا فإني أنصح أي شخص يمرّ بتاريخنا ألّا يأخذه أخذ الحقائق المسلّمة، لأنّه ليس كل ما فيه مسلّماً؛ فقد لعبت به مؤثّرات كثيرة، ومن يرَ فيه رأياً أو واقعة فليتثبّت منه قبل أن يعتنقه ويأخذ بالتقوّل به ونقله؛ فسمعة المسلمين أهم بكثير من أشياء أُخرىٰ تنبع من دوافع نفسية.

مناقشة

وعليه فهذان الرأيان غير صائبين، لأن الثاني قد ذكرنا أن السنّة والإجماع لا يعضدانه، والأوّل يمكن أن يردّ عليه بأن (ما) يمكن أن تستعمل للعاقل، وهذا ما ينصّ عليه علماء النحو[١] واللغة[٢]، وغيرهم[٣]. ثم إنّ الكثير ممّن يكتب لا يستطيع أن يتخلّص من دائرتي الإفراط والتفريط، فمن ذلك ما رأيناه هنا من التصريح بعطف المرأة على غير العاقل، وفي مقابل ذلك نجد من يقول: إن المرأة عندها استعداد لأن تكون نبيّاً لأُمّة، بل يصرّح بأن هناك نساء نبيّات، وهذا ما يذهب إليه جملة من الفقهاء والمفسرين.

وهذان الرأيان فيهما جنوح واضح نحو الإفراط والتفريط، فليس هناك ميل لحلّ وسط أو رأي وسط. ومن يذهب الى وجود نساء نبيّات يذكر أن منهن آسية

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل ١: ١٤٧، مغني اللبيب ١: ٢٩٧.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٧٣ ـ ما.

(٣) البحر المحيط ٣: ٥٤٦، البرهان (الزركشي) ٤: ٣٩٩، أضواء البيان ٨: ٤.

بنت مزاحم ومريم بنت عمران وأمّ النبي موسىٰ عليه السلام. بل يذهب البعض إلى حصول ذلك عند بعض النساء المتأخّرات؛ بدعوى أنّ الملائكة قد حدّثتهن، والملائكة لا تحدّث إلّا الأنبياء.

تقليد المرأة

وأدلّة هؤلاء غير ناهضة، لكن ما هو صالح للتوقّف عنده في هذا المجال ـ وهو من المسائل الحيوية اليوم، وقد عالجها فقهاؤنا ـ هو: هل يصحّ أن تكون المرأة فقيهة مجتهدة مفتية، أم لا؟ رأي بعض المحقّقين أن ذلك جائز؛ لأنّ الاجتهاد يقوم أساساً على حصول ملكتين: ملكة الاستنباط، وملكة العدالة؛ فإن حصلتا جاز تقليد صاحبهما. ومن هؤلاء المحقّقين السيد الحكيم (تغمده اللّه برحمته)، وهذا هو الأصل.

فالمرأة تتوفّر على القابلية عينها التي يتوفّر عليها الرجل، فهي خدينة الرجل إذا رقت إلى المراتب عينها التي يرقى إليها. يقول الحديث الشريف: **«النساء شقائق الرجال»**[1]، فلماذا نهبط بهن بسبب ميراثنا الاجتماعي ومتراكمات تقاليدنا عن مكانتهن التي وضعهن اللّه تعالى فيها إلى مستوىً يجعلهنّ كائناً منحطّاً؟ ولماذا نصعد بهن فوق منزلتهن الإنسانية لنعطيهن من الوصف فوق ما أعطاهن اللّه تعالىٰ فنجعلهن نبيّات؟ إن الصحيح هو أن نعطيهن حقّهن من التقدير والرعاية والإكرام والمصاحبة بالإحسان؛ كي يتسنّىٰ للأُسرة أن تقوم على الاستقرار الذي أراده اللّه عزّ وجلّ لها أن تقوم عليه؛ لينشأ الطفل ويترعرع في جوّ سليم.

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

المبحث الرابع: في معنى ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾

إن المذهب الصحيح في قوله تعالىٰ: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ رأيان هما:

الأوّل: الزواج من غير المحارم

فالمراد هنا هو عدم الإقدام على الزواج من ذات محرم كالأُم وإن علت والأُخت وإن نزلت، وبنت الأخ والأُخت، والخالة والعمة. فهؤلاء كما هو معلوم شرعاً وضرورة لا يجوز الزواج منهن أو العقد عليهن. لكن هناك من يتزوّج من المحارم، وهو أمر موجود عند بعض من ينتسب للأديان السماوية. وقد نسب[1] للخوارج أنهم يجيزون زواج الرجل من بنت أُخته. وللحقيقة أقول: إنني لم أتتبع هذا الرأي عند فقهائهم، لكن أُحب أن أشير إلى أنّ الخوارج هم من الثوار، والثوّار غالباً تلصق بهم الكثير من المعائب والتهم زوراً لإسقاطهم من نظر الناس، ولطردهم عن الساحة، فيجب التروّي قبل إلصاق هذا بهم ونسبته إليهم. وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: **«لا تقتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»**[2].

فما أعظم هذا الرجل! والله، إنّ كل من يتأمّل في شخصية أمير المؤمنين عليه السلام وفي أخلاقه ومزاياه ولو بأدنى درجات التأمّل فسيجد شخصاً عظيماً، وسيتلمّس مدى عظمته وكبر نفسه. يقول أحد الأُدباء يخاطبه:

كلما مرّ في سماك طماحي	**ضاع في زحمة النجوم جماحي**
غمرتك النجوم بالضوء حتى	**ضاع درب السنا على اللمّاحِ**

---

(١) انظر: نيل الأوطار ٧: ٣٤١، فتح الباري ١٢: ٢٥٢، عمدة القاري ٢٤: ٨٥، الأنساب ٥: ٤٣٨، اللباب في تهذيب الأنساب ٣: ٢٨٥.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٦١.

فهو يوصي بالخوارج خيراً في الوقت الذي فعلوا به ما فعلوا حتى إنهم قتلوه.

الثاني: الحجر النظيف من الدنس

ويذهب البعض إلى أن المقصود بـ ﴿**مَا طَابَ لَكُمْ**﴾ هو الحجر النظيف الذي لم تدنّسه أرجاس المجتمع والعلاقات المحرّمة التي يعبّر عنها الحديث الشريف بقوله: «**إياكم وخضراء الدمن**»[1]، أي المرأة الحسناء في منبت السوء، و«**تخيّروا لنطفكم**»[2]. إنّ من الناس من يجنح إلى الزواج من امرأة لمجرد جمالها دون أن يعير أي اهتمام للاعتبارات الأُخرى؛ فلم ينظر إلى أُسرتها وحالها، بل إنّه يكتفي بمجرّد كونها جميلة، مع أن عليه أن يأخذ مفهوم الآية بنظر الاعتبار؛ لأن الحِجر الطيّب هو الذي سيبني الأُسرة الصالحة الطيبة المستقيمة التي تصلح أن تكون نواة إيجابية وفعّالة في بناء مجتمع سليم.

المبحث الخامس: في موانع التعدّد

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾، وهنا يركّز المفسّرون على لفظة ﴿**خِفْتُمْ**﴾ في الآية الكريمة، وهم إزاءها على رأيين:

الأوّل: أنّه مطلق الخوف

فأصحاب هذا الرأي يقولون: إنّ مجرّد الخوف ومطلقه كافيان في منع التعدّد. وهذا الرأي معناه ألّا يقدم إنسان على الزواج من ثانية؛ لأن كل إنسان لابدّ أنّه يخاف من ألّا يعدل؛ فالخوف حاصل بالتأكيد؛ ولذا فإنّ باب التعدّد مسدود عنده. وهذا واقع فعلاً؛ لأنّ بعض النساء حتماً سيتميّزن عن غيرهن بالسلوك أو الأخلاق

---

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣ / ١٦٠٨، وسائل الشيعة ٢٠: ٣٥ / ٢٤٩٦٣، كنز العمال ١٦: ٣٠٠ / ٤٤٥٨٧.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

أو الشكل أو بالتزامهن بواجباتهن البيتية، فإن تميّزت إحداهن بهذا كان الزوج إليها أميل، فيقع في دائرة عدم العدل.

الثاني: أنّه الخوف من عدم العدل في النفقة

ويذهب أتباع هذا الرأي ـ وهم الأغلب ـ إلى أنّ المقصود بالخوف في الآية الكريمة هو الخوف من عدم العدل في النفقة؛ فيجب على من يتزوّج من أكثر من واحدة أن ينفق بالعدل على زوجاته دون أن ينقص إحداهن شيئاً أعطاه لغيرها.

مراعاة بيئة المرأة في النفقة

ويستثنى من هذا الأمر الحالة الاجتماعية أو المعاشية التي كانت عليها الزوجة قبل زواج الرجل منها، فلو أنّه تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى وأُخرىٰ من الطبقة الراقية؛ فإن العدل الذي هو وضع الشيء موضعه يحتّم عليه هنا أن ينفق على هذه بما يناسب حالتها المعيشية والاجتماعية قبل الزواج منه، ولا يكون غير عادل حينها إن فعل هذا. فهذه الحالة مستثناة من قاعدة العدل بين الزوجات؛ لأنّها حينئذٍ لا تدخل ضمن نطاق التمييز بين الزوجات اللاتي من حقّهن أن تأخذ كل واحدة حقّها بما يناسبها منزلةً ورتبةً إلى غير ذلك. بل إنّه إن ساوى هذه بتلك فربما يكون قد ظلمها؛ لأنّه حينئذٍ يكون قد أنزلها عن حالها الذي كانت عليه في بيت أبيها.

فالإسلام يراعي هذا الجانب، ولا يعدّ الميل فيه ظلماً وعدم عدلٍ مطلقاً، بل إنّه يراعي كلّ الجوانب الحياتية في هذه المسألة؛ لما لها من أهمية وأثر كبيرين في حياة الإنسان. فهو لا يعدّه ظلماً أبداً، بل إنّه هو العدل في منظاره؛ لأنّه وضع الشيء في موضعه. وكمثال تقريبي على هذا حينما يستأجر الإنسان عاملاً لعمل

ما يريده ولم يتّفق معه على أجره، فإنّه يجب عليه أن يعطيه أُجرة المِثل، وأُجرة المثل هذه تناسب وضع العامل نفسه فإن كان فنيّاً أعطاه أجرة العامل الفني ولا يكون قد ظلم العامل غير الفني حينما يعطيه ما يناسبه بدعوى أنه لم يعدل ولم يساوِ بينهما؛ بل إنّه يكون قد طبّق قواعد العدل هنا؛ لأنّه لم يبخس ذا الحق حقّه؛ فأعطى لكلّ من يستحق حقّه الذي ينبغي له.

فإن كان الإنسان يخاف ألّا يعدل هنا فيجب عليه أن يغلق باب التعدّد ولا يوقع نفسه في المحذور والمحظور أبداً؛ لأنّ المسألة ليست مسألة رغبة عابرة فقط، بل لابدّ أن يكون هناك تحقيق لضوابط التعدّد وتطبيق لها.

أسباب التعدّد

ثم إنّ على الإنسان أن يراعي موجبات التعدّد، ولا يجعلها خاضعة لهذه الرغبة العابرة، إذ أنّ خلف ذلك حياة جديدة ومسؤوليات كبيرة تجاه تطبيق شرع اللّه تعالى وقوانينه في مسألة التعدّد؛ فهناك زوجة أُولى يجب مراعاة حقّها، وهناك أطفال يجب وضع حساب لهم وزمن كافٍ لمتابعتهم ورصد قابلية وقدرة على تربيتهم وجعلهم منسجمين مع بعضٍ كونهم أبناء علّات، وما إلى ذلك من أُمور تتبعها كالإنفاق والفراش وغيرها.

مشكلة العزوف عن الزواج عند البعض وحلولها

وعليه فمسألة مراعاة موجب التعدّد مسألة ضرورية جدّاً، لأنها داخلة في صميم ترتيب الأُسرة وبنائها. وهذه المشكلة تعيشها أغلب البلدان الإسلاميّة؛ وعليه فلابدّ من معالجتها بوضوح وشفّافية بعيداً عن الضبابية وتعويم المفاهيم والقوانين. ونحن نعرف مثلاً أنّ هناك عدداً من العوانس في جميع البلاد

الإسلاميّة، فربما يتذرّع الشاب بأنّه غير مؤهّل بعد للحياة الأُسرية؛ إذ أنّ الزواج سيربطه بأُسرة وأطفال، وبالتالي البحث عن ساعات عمل إضافية ومجال عمل أكبر كي يتمكن من أن يسدّ حاجات أُسرته، ويلبّي جميع متطلّباتها.

وعليه فهو يقول: لا داعي لأنّ أُقيدّ نفسي، بهذا الأمر مع أني استطيع أن أوفّر دواعي اللّذة متى أردتها، فهي مبذولة في الشارع؟ وهذا ليس أمراً طوباوياً فهناك جملة من الشباب يخضعون لهذا النمط من التصوّر عن الحياة الزوجية، ولهذا اللون من التفكير بشأنها، فيعزفون عن الزواج والاستقرار الحياتي.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن بعض الشباب يلجؤون إلى الزواج من بنات البلاد الأُخرىٰ سعياً وراء الجمال الصارخ المبهرج، ويترك بنت بلده التي هي ربما كانت بنت عمه أو غيرها. وقد يتذرّع البعض للزواج من الأجنبيات بحجة الثقافة العالية وليس الجمال، فهو يتزوّج من هذه الأجنبية؛ لأنّه يريد أن يتزوّج امرأة تحمل ثقافة عالية ومؤهّلاً علمياً كبيراً، وهذه قد وجدها في زميلته في الدراسة هناك، فيعقد عليها ويتزوّجها.

الحل القائم على اساس المجتمع

وبهذا يكون هؤلاء قد هيؤوا الظروف لأن تكون هناك حالات عنوسة في بلداننا، وأنا لا أُريد أن أقول: إن هذا محرّم أو غير جائز، لكن أودّ أن أنبّه الى أن هناك شيئاً هامّاً اسمه «مروءة»، فالدين مروءة، وهذا العدد الفائض من النساء في بلدان المسلمين يرسم في آفاقنا الأُسروية مشاكل ينبغي إيجاد حلول لها، وهذه الحلول لا بدّ أن تكون بشكل عملي وتطبيقي، فمثلاً على صعيد امتناع البعض من الشباب من الزواج بذريعة الفقر أو عدم التمكن من إيجاد ساعات عمل إضافية

لتلبية متطلبات الأُسرة، فهؤلاء يمكن أن يُحل جزء من مشاكلهم عبر توفير دور سكن لهم.

ونحن نلاحظ أنّ بعض أهل البرّ والإحسان حينما يريدوا أن يعملوا عملاً خيرياً يلجؤوا إلى بناء مسجد ولو أنه سيظلّ فارغاً دون أن يشغله المصلّون، في حين أنهم يمكن أن يضعوا برّهم في توفير مساكن لهؤلاء الشباب كي يرغّبوهم في الزواج ولو بحلّ جزئي لمشكلتهم، وبالتالي يبعدونهم عن طريق الخطيئة والرذيلة، حتىٰ يوسّع اللّه عليهم فيتركوا هذه المساكن لغيرهم ممّن يعيش المشكلة التي كانوا يعيشونها ويعانون منها عينها. وهذا العمل الخيري يشمل الكثير من أعمال البرّ والخير ويتوفّر عليها؛ لأنّه سيكون فيه ستر لأعراض المسلمين وعوراتهم وحفظ لهم وصيانة عن الوقوع في الحرام، وإضافة إلى ذلك فيه سدّ لحاجاتهم وحلّ لمشكلة اجتماعية أن تقع، تعد كارثة إن هي وقعت.

لقد أوحىٰ اللّه تعالى إلى نبيه إبراهيم ﷺ فيما أوحىٰ: «**ابنِ لي بيتاً في الأرض أعبدُ فيه**». فبنى بيتاً، ثم أوحىٰ إليه ثانية: «**ابنِ لي بيتاً في الأرض أعبدُ فيه**». فبنى بيتاً ثانياً، ثم أوحىٰ إليه في الثالثة: «**ابنِ لي بيتاً في الأرض أعبدُ فيه**». فبنى بيتاً ثالثاً، وقال: «**يا ربِّ، لقد بنيت ثلاثة بيوت**». فقال تعالىٰ: «**هل أشبعت جائعاً؟ هل كسوت عرياناً؟ ابنِ لي بيتاً في قلوب الناس**».

ذلك أن الإنسان أهم شيء في الوجود؛ فيجب أن يتوجّه كل عمل برّ إلى صيانته وصيانة الموارد الحيوية التي تمسّه عبر بناء مجتمع إنساني صالح.

الحل القائم على أساس الدولة

هذا هو العلاج القائم على أساس التكامل الاجتماعي بين أبناء المجتمع نفسه، أمّا العلاج الثاني فهو العلاج المبتني على تدخّل الدولة المباشر، والتي يجب أن

تقوم ببناء المؤسّسات الاجتماعية ورعايتها وتوفير كامل مستلزماتها كما ذكرنا. لكننا على مستوى التطبيق والواقع لا نجد لهذا الالتزام وجوداً أبداً، وماذا ستكون النتيجة؟ إن هذه العانس إما أن تكون نجيبة شريفة وحينها ستظل تعاني من الكبت والألم مما يسبّب لها في النهاية عقدة نفسية أو مرضاً، وإما أن تكون غير ملتزمة، وسينتهي بها الأمر إلى الانحلال والانحراف، وكذلك الأمر مع الشاب.

حلول الإسلام لمشكلة الزواج

وهذا هو ما يحاول الإسلام أن يضع له حلولاً مناسبة تكون نواة لعلاج جذري لمشكلة العنوسة. ومن ذلك ما نجده في كتبنا الحديثية من قول الرسول الأكرم ﷺ: **«من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»**[١].

وهو فتنة فعلاً يجب وضع حلول له. وليعلم بأن حل هذه المشكلة يتوفّر على عدّة جوانب تصبّ في المنبع الإسلامي؛ ففيها جانب مواطنة، وفيها جانب إنساني، وفيها جانب أخلاقي، وفيها جانب التقرب إلى اللّه تعالى بفعل الخير. وكلّ هذه الأشياء سيسألنا اللّه تعالى عنها غداً.

ومع أنّ هذه المسألة بمتعلّقاتها لا تصل حدّ الوجوب إلّا إنّ الإسلام كما ذكرنا هو المروءة، ومن المروءة أن ينظر الإنسان لأخيه الإنسان وألّا يهمل مشاكله، ولا يتركه وحيداً أمام أزمات حياته.

المبحث السادس: مسألة الإماء

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وهي هنا تحثّ على الاكتفاء

---

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ ـ ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

بزوجة واحدة فيما لو لم يتمكن من العدل بين الزوجات في النفقة والعطاء. وتقدير هذا الأمر متروك للإنسان الذي يجب أن يشعر بالمسؤولية الكاملة تجاه أُسرته وقدرته على تربية أطفاله وإعالتهم، كما أنّ عليه أن يقدّر حالة الضرورة التي تلجئه إلى التعدّد.

وهنا نقطة هامّة أودّ أن أُشير إليها هي أنّ الإنسان يولد حرّاً لا عبداً؛ فإن كان التعبير القرآني في الآية يشير إلى هذا، فليس لأنّه يجيز استعباد الإنسان مطلقاً بل إنّه يقرّر حالة واقعة يعيشها المجتمع ينبغي أن توضع لها التشريعات الخاصّة بها. فالمرأة تمر بظروف تؤول بها إلى الاسترقاق، كما لو أن مجتمعاً غير إسلامي شكل عنصر خطر على المسلمين ويشنّ عليهم الحروب، فإن من حقّ المجتمع الإسلامي حينئذٍ الردّ عليهم، فإن سبى منهم نساء كنّ رقيقات.

وليس معنى هذا أنّ الإسلام ينزل بالسبيّة التي ربما كانت من أُمّة متحضّرة أو امرأة ذات ثقافة عن مستواها، بل إنّه يرفعها، كما لو أن المسلم تزوّجها فإن ملكيتها تصبح متزلزلة فلا يستطيع بيعها، فإن رزق منها بولد أُعتقت من حصّة ولدها. أما بالنسبة لولدها فإنّه يتبع أشرف الأبوين، والأب حرّ، فهو حرّ أيضاً.

ثم إنه من قال: إن الإسلام يفرّق بين الأمة والحرّة؟ فكل ما يريد الإسلام أن يقوله هنا: إن مهر الأمة أقل لتذليل العقبات أمام الزواج؟ فالبعض يضع عقبات وهمية في طريق زواج الشباب، فنجده يدقّق في حسب الشخص ونسبه، لكنه إن وجده مغطّى بالذهب فإن الذهب حينئذٍ سيمحو كل العيوب التي يمكن أن تكون عنده سواء في نسبه أو في حسبه.

ونحن لا ننكر أن المسلمين كانوا يحتقرون ابن الأمة[1]، وأنهم كانوا يقولون:

---

(١) يقول أحد القرشيّين: جلست إلى سعيد بن المسيّب يوماً أتدارس معه، فسألني: من

كنا نحتقر أبناء الإماء حتى ولد ثلاثة أبناء منهن هم: زين العابدين عليه السلام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[1]. فعندها تغيّرت النظرة إليهم.

وعليه فإن الأمّة ربما كانت من وسط متحضّر، فتربّي أبناءها تربية علمية وتغذيهم بالثقافة. وربما كان هذا هو السبب الكامن وراء زواج أغلب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من الإماء، كالإمام موسى الكاظم عليه السلام؛ فقد كان ابن أمة، وهي حميدة بنت صاعد. وهذا هو الذي حدا بأحدهم ممن كان لا يودّ الإمام عليه السلام عندما يمرّ بداره أن يقول عنه: ابن البربرية. على أية حال هذا هو البلاء، المجتمع لا يخلو من أمثال هذه النماذج، وهذا لا يغيّر شيئاً من واقع الأئمة عليهم السلام ولا من رتبهم ومنازلهم التي رتبها اللّه لهم وأنزلهم فيها. إذن فالقمم عندنا في تاريخنا العلمي أُمّهاتهم إماء.

وهكذا نرىٰ أنّ الإسلام الحنيف لا يفرّق بين الحرّة والأمة، لكنّه يلاحظ جانب المهر؛ لأنّه يريد أن يزيل العقبات أمام الشباب التي وضعها المجتمع في طريق زواجهم، فالإسلام ينشد ستر الإنسان وحفظ شرفه وعرضه عن أن يدنّس، ويروم له أن يصان من الخطيئة.

☚ أخوالك؟ قلت: إن أُمّي فتاة. أي جارية، فلمّا قلت له ذلك كأنما صغرت في عينه. وفي هذه الأثناء دخل زين العابدين عليه السلام، فانتفض له سعيد بن المسيّب قائماً وجلس بين يديه، وأقبل ينصت إليه ويستمع، فلما قام الإمام زين العابدين عليه السلام قلت لسعيد: من هذا؟ قال: هذا أعظم الناس، الذي لا يسع مسلماً أن يجهله. قلت: من؟ قال: علي بن الحسين. قلت: من أُمّه؟ قال: أُمّه جارية. قلت: رأيتك صغرتُ في عينك لما قلت لك: إن أُمي فتاة، أفما لي في هؤلاء أُسوة؟ قال: فجللت في عينه جدّاً. المجدي في أنساب الطالبيّين: ٢٤٩، وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

المبحث السابع: في معنى ﴿تَعُولُوا﴾

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾، وفي معنى ﴿تَعُولُوا﴾ عند المفسرين رأيان هما:

الأوّل: الفقر

أي لكيلا تقعوا في مشكلة زيادة العائلة والأطفال، فتعيشوا بالتالي حالة من الفقر، حيث لا يتمكّن أحدكم من أن يعيل هذا الكم من الأطفال والعيال.

الثاني: مشاكل الأسرة

وهذا الرأي هو الأهم، ويذهب إليه جملة من المحققين، منهم محمد رشيد رضا في (المنار)، ويقول هؤلاء المحقّقون حول هذا المطلب: إنّ المقصود بـ﴿تَعُولُوا﴾ هنا هو أن تكثر عيالكم فتكثر بذلك مشاكلكم. فالرجل ربما يكون قادراً من ناحية مادية على جمع الأموال وتوفيرها وبالتالي الزواج من أكثر من واحدة وتوفير متطلبات حياتهن ولوازم أبنائهن، لكنه من ناحية أُخرىٰ ربما يكون غير قادر على توفير الجوّ الروحي المناسب لحصول حياة منسجمة ووادعة وهانئة بين العائلة، وذلك بسبب افتقاره إلى معرفة مقوّمات العملية التربويّة السليمة، وإلى كيفية تطبيقها.

وهذا الجهل والقصور في تطبيق الممارسة التربوية السليمة والصحيحة سيؤدّي حتماً إلى حصول نوع من التفكّك الأُسري، وعدم انسجام الأبناء مع بعضهم، وربما نشوء لون من العداء بينهم.

ثم إنّ هذه العملية التربويّة ليست سهلة مطلقاً، بل إنّها تعدّ من أصعب الأُمور التي يمكن أن يصطدم بها الإنسان في حياته العملية؛ لأنّها جانب حيوي هام

ويجب أن يوليه المربّي إمكاناته العلمية والتربوية كافّة.

فالآية هنا على هذا الرأي لها دور وقائي، وهو منع التعدّد عند خشية الوقوع في هذه المشكلة الاجتماعية. ونحن نجدّد الدعوة لمؤسّساتنا الإسلامية لرعاية الأُسرة في مجتمعنا الإسلامي التي تتّسم غالباً بضعف علاقات أبنائها مع بعضهم أو الآباء مع أبنائهم أو الزوجات مع أزواجهم. والخلاصة أن الأُسرة الإسلامية تمر بمرحلة حرجة تحتاج فيها إلى الرعاية الخاصّة والتوجيه الدائب المستمرّ، وإلّا آلت إلى التفكّك سيمّا فيما يخصّ علاقة الزوجة بالزوج.

وهناك البعض من الأزواج يعيشون علاقات سيئة جداً، أو أنّ الأزواج يتصرّفون بشكل سيّئ جداً مع أهلهم وأبنائهم، وهؤلاء حتماً سيواجهون عذاب القبر وسيتعرّضون لغضب اللّه تعالى وسخطه، فضلاً عن أنّ مثل هؤلاء الأزواج سيرمون بعدم تقوى اللّه تعالىٰ وبعدم طاعته وطاعة الرسول ﷺ.

وعليه فلابد للمجتمع أن تتضافر جهوده بما فيه من مؤسّسات تربوية لتوجيه أرباب الأُسر خاصة والأُسر عامّة إلى أُسلوب التعامل الصحيح مع الأُسرة وأفرادها كلّاً حسب خصوصيته ومع المجتمع، وإرشادهم إلى ضرورة التكاتف والانسجام، وإلى خطر التفكّك ونتائجه السلبية على الأُسرة والمجتمع.

المبحث الثامن: في زواج القاسم بن الحسن عليه السلام

وتواجهنا هنا رواية لعلّها توحي بأهمية الزواج كمؤسسة اجتماعية ـ على فرض صحة هذه الرواية ـ وهي رواية زواج القاسم من إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام. وهذا الموضوع أمرّ به كل عام وأؤكّد على طرحه لا لأجل شيء سوىٰ بيان أني لا أريد لنا أن نكون محطة سخرية للآخرين، وإلّا فإن الجوّ الذي كان يعيشه الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه ليس جوّ زواج، مضافاً إلى ذلك أنّ

القاسم لم يكن يتجاوز التسع سنوات، كما أن المرأة التي تنصّ عليها هذه الروايات على أنها زوجة القاسم ـ وهي سكينة ـ كانت تكبره في السن، فضلاً عن أنها كانت متزوّجة يوم الطف؛ وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يناديها حينها بقوله: «**يا خيرة النسوان**»[(١)].

وعليه فإن هذه الرواية ضعيفة، لكن يمكن أن يقال: إنّ الحسين عليه السلام أراد أن يحقّق لأُم القاسم، أو لأخيه الإمام الحسن عليه السلام ـ وخصوصاً لأُمّه ـ رغبة كامنة في نفسيهما، وهي رغبة تعتري الأُمهات كافّة ألا وهي رؤية أولادهن متزوّجين، فقد كانت هذه الفكرة تلحّ على أُم القاسم لأنّه لم يبلغ سن الزواج وسيستشهد، وبالتالي فإنّها لن ترىٰ ولدها متزوّجاً أبداً، فأحبّت أن تقدّم الأمر ولو كان ابنها لم يبلغ الحلم. وهذا ما يذهب إليه أحد المؤرّخين، وبالتالي فإنّه يصبح منشأً لهذه الرواية، كما أن هذا هو المتصوّر الأسلم في زواج القاسم.

على أية حال سمع القاسم عمّه الحسين منادياً يوم العاشر من المحرم وقد وقف منادياً أمام أشلاء أهل بيته: «**أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول اللّه؟**»[(٢)].

فخرج وكان عمره بين التاسعة والحادية عشرة كما تقول الروايات، فتعلّق بأذيال عمّه عليه السلام، وطلب منه أن يأذن له بالخروج إلى القتال، فأرجعه الإمام عليه السلام إلى

---

(١) من ثلاثة أبيات قالها عليه السلام، وهو يودعها وقد عزم على الخروج للقتال، وهي:

سيطول بعدي يا سكينة فاعلمي	منك البكاء إذا الحمام دهاني
لا تحرقي قلبي بدمعك حسرة	ما دام منّي الروح في جثماني
وإذا قتلت فأنت أولى بالذي	تأتينه يا خيرة النسوان

مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧، ينابيع المودة ٣: ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) كشف الغمّة ٢: ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار ٤٥: ١٢.

الخيمة، وقال له: «**بني، ارجع إلى الخيمة؛ لعلّ أُمك تأنس بك**». ثم سمع نداء عمّه ثانية، فجاء إليه وقال له: ياعم لا أقدر أن أسمعك تنادي: «**أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟**»، وأنا قابع في أعماق المخيّم، فائذن لي حتىٰ أُقاتل بين يديك. فاستدناه الإمام الحسين عليه السلام، وتأمّل في وجهه وقال: «**يا آل محمد بعداً لقومٍ يكون جدّكم خصمهم يومَ القيامة، يعرّضونكم للقتل وأنتم ريحانة رسول الله**».

وكانت المسألة مسألة دفاع وليست مسألة جهاد؛ وهذا هو الذي جعلها تنسحب حتى على الصبي، ولذا فإنه حينما ألحّ على عمّه في الثالثة قال له: «**بني أوَ عزمت؟**». قال: بلىٰ. قال: «**بني ادنُ مني حتى أُودّعك**». فلمّا دنا منه قبّله، ثمّ دخل الخيمة وأخرج له رداء كان لأخيه الإمام الحسن عليه السلام وألبسه إيّاه، وأخرج له سيفاً من الخيمة وأعطاه إيّاه، ثم أمسك به من كتفيه وهزّه وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا**». ثم قال له: «**ابرز بنيّ**». فنزل القاسم عليه السلام إلى الساحة وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسنْ — سبطُ النبيّ المصطفى والمؤتمنْ
هذا حسينٌ كالأسيرِ المرتهنْ — بين أُناس لا سُقوا صوبَ المزنْ[1]

وأخذ يقاتل قتال الأبطال إلىٰ أن توسّط ساحة الحرب، يقول حميد بن مسلم: مرّ بي عمر الأسدي، فقال لي: أما ترى ما يفعله هذا الغلام؟ والله لأُثكلن به أُمّه. فقلت له: ويلك أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني لما مددت إليه يدي. وبينا نحن كذلك إذ انقطع شراك نعله فانحنىٰ ليشدّه، فأقبل إليه الأسدي من خلفه، وإذا بالسيف يهوي علىٰ رأسه؛ فسقط علىٰ الأرض منادياً: أدركني يا عماه.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ٢: ٢٩.

فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه ووضعه في حجره، ثم راح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[1].

ثمّ قال عليه السلام: «**قتل الله قوماً قتلوك**»[2]. ثمّ أخذ رأسه وأقبل به إلىٰ المخيم ووضعه بين القتلى، ثم خرج من الخيمة ليفسح المجال لأُمّه وعمّاته وباقي النساء، فدخلت أُمّه رملة وجلست عند رأسه، ثم وضعت رأسه في حجرها:

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ ... أقمار تسبح في غدير دماءِ

خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم ... بدم من الأوداجِ لا الحنّاءِ

ومغسّلين ولا مياهَ لهم سوى ... عبراتِ ثكلى حَرّةِ الأحشاءِ

أصواتُها بُحّت فهن نوائح ... يندبن قتلاهن بالإيماءِ[3]

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) لم نعثر عليه في القاسم، وإنما هو في علي الأكبر. انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٦.

(٣) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأُولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ومنها:

رقدوا وما مرّت بهم سِنةُ الكرى ... وغفت جفونهُمُ بلا إغفاءِ

متوسّدين من الصعيدِ صخورَه ... متمهّدين خشونةَ الحصباءِ

مدّثّرين بكربلا سلب القنا ... مزّمّلين على الرّبى بدماءِ

أطفالُهم بلغوا الحلومَ بقربهم ... شوقاً إلى الهيجاءِ لا الحسناءِ

﴿١٦٢﴾

تبادل الأدوار بين الآباء والأبناء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأوّل: منزلة النخلة عند المسلمين

إنّ الهدف الأوّل من القصص القرآني هو طرح العظة والعبرة في تاريخ الهيئة الاجتماعية، وبيان مضمون الحدث التاريخي، وليس الهدف مجرّد سرد التاريخ سرداً سطحيّاً ضحلاً يتناول الجانب القصصي من الحدث. إنّ في كلّ قصّة يطرحها القرآن الكريم جانباً تربوياً ومضمون تجربة يمكن أن يستفيد منها المجتمع؛ كونها تتناول حالة من الحالات التي يعيشها هذا المجتمع. والقصة التي تطرحها آية المقام تتناول حالة من الحالات التي يمرّ بها نصف المجتمع؛ فالمعروف أنّ أهم رغبات المرأة هو أن تكون أُمّاً، ومسألة الأُمومة تستأثر باهتمام المرأة، بل تكاد تحتكره؛ فهي لا تجد لحياتها معنى ولا تجد أنها تحقّق الهدف من وجودها ما لم

---

(١) مريم: ٢٥ ـ ٢٦.

تقم بدور الأُمّ، أو لم ترزق بأطفال.

وهذا الجانب له مضاعفات في ساعة الولادة التي تمرّ على المرأة أثناءها أدوار صعبة، والآية الكريمة تستعرض اللحظات التي مرّت على مريم عليها السلام ساعة ولادتها.

مكانة النخل وفضل ثمره

تقول الآية الكريمة: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾، والنخلة هي شجرة التمر التي تسمى العجوة، وقد ورد في الروايات: **«أكرموا عماتكم النخل»**[1]. والمفسرون عندما يتناولون هذا الحديث يذكرون أسباب أمر اللّه تعالى بإكرامها، وهي:

أوّلاً: أنّها هبطت من الجنة

فحينما يعبر الحديث الشريف عنها بقوله: **«عمّاتكم»** فلأنّها هبطت من الجنة مع أبينا آدم عليه السلام. ويستفاد من هذه الرواية أن التمر من ثمار الجنة، وشجر الجنة وثمرها له خصائص يمكن أن تكون إحداها وجه فرق بيننا وبينها، فالإنسان عادة ينشّئ نفسه على أن يأخذ دون أن يعطي إلّا ما ندر، فهو يطالب الآخرين بأن يكسوه ويشبعوه دون أن يتحرّك ليقدّم مقابلاً لذلك، بل إنّه يرتع في جوّ من الخمول. وهذه الظاهرة تُلبس ثوباً اجتماعياً، فنجد أنّ البعض لا يعمل عملاً ما بدعوى أنّ هذا العمل لا يناسبه ولا يناسب مكانته الاجتماعية. ثم إنه يقول: إنّ

---

(١) وتتمّة الحديث الشريف: «فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، وليس من الشجر يلقّح غيرها». وفي حديث آخر: «أطعموا نساءكم الولّد الرطب، فإن لم يكن رطب فالتمر، وليس من الشجر أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران».
بحار الأنوار ٥٧: ١٨١، شرح أُصول الكافي ٩: ١٦٤، مسند أبي يعلى ١: ٣٥٣ – ٣٥٤، كتاب أمثال الحديث: ٧٣، الجامع الصغير ١: ٢١٢ / ١٤٣٢.

اللّه تعالىٰ كما يدلّني عند الموت فكذلك يدلّني عند الرزق، فلماذا أُتعب نفسي إذن وراء الرزق وطلبه مع أنني يكفيني منها رغيف؟

وهذا في الواقع إنما يعطي تبريراته لأجل أن يقنع نفسه والمجتمع بصحّة مذهبه هذا، مع أنّه في واقع الأمر يريد أن يأخذ دون أن يعطي. أمّا النخلة فهي على العكس من هذا تعطي كل شيء ولا تأخذ منّا شيئاً، فهي تعطي عطاء لا حدود له فيستفاد من جذعها وسعفها وورقها وثمرها الذي يعدّ غذاءً كاملاً. فكل جزء منها عطاء فضلاً عن جمال منظرها. كما أنّها تعدّ رصيداً اقتصادياً؛ لأنّ البلد الذي يكثر فيه النخيل لا يمرّ بمجاعة أبداً.

الثاني: شبهها بالإنسان

وهذا الوجه من الشبه هو أيضاً مسوّغ لإكرام النخلة، ووجه الشبه هنا أنّها كالإنسان الذي حينما يقطع رأسه فإنّه يموت وهي كذلك إن يقطع رأسها تمت. ومن هنا أيضاً يصح توجيه تعبير الحديث عنها بأنها **«عمّاتكم»**.

المحبث الثاني: شرف العمل

تقول الآية الكريمة: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ لقد كان ديدن مريم عليها السلام قبل الحمل والولادة العبادة والانقطاع إلى اللّه تعالىٰ، فقد وقفت كل وقتها على التوجه إلى اللّه وعبادته. وكل ذلك في المعبد الذي اتخذته محراباً لصلاتها وتعبّدها؛ ولذا فإن اللّه تعالى أراد أن يكافئها على انشغالها بذكره وعبادته بتوفير رزقها لها: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً**﴾[1]، فكان رزقها مكفولاً لها تؤتاه وهي في مكانها.

---

(١) آل عمران: ٣٧.

وسبب تعبّدها أنّ أمها «حنّة» نذرت للّه إن رزقها ولداً أن تجعله خادماً للمعبد، فلما حملت نذرت ذلك، لكنها حينما وضعت كان الوليد انثىٰ، تقول الآية: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾[1]. وكان هذا سبب أسفها؛ لأنها قد نذرت ولداً يخدم في المعبد، وهذه فتاة يمرّ عليها من الأدوار ما لا يمرّ على الرجل، وهذا يمنعها من أن تمكث في المعبد أو أن تعبد اللّه تعالى في هذه الأدوار والفترات. لكن اللّه تعالى جعلها بتول عذراء طاهرة لم ترَ الدم كما تقول الروايات، فكانت نظيفة طاهرة.

السبب الطبيعي

لقد كان من الممكن أن يهيّئ اللّه تعالى لمريم عليها السلام رزقها كما كان تعالى يهيّئه سابقاً لها، دون تدخّل منها ودون أن تحرّك ساكناً، لكنه تعالىٰ أراد أن يجري الأُمور على طبيعتها؛ فلذا كلّفها بالسعي، فقال: ﴿**وَهُزِّي**﴾. هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ أراد القرآن الكريم أن يصحّح اعتقاداً كان ولا يزال سائداً عند الناس وهو: «إن من يدلّني عند الموت يدلّني عند الرزق». وهذا التفكير خطأ؛ لأن اللّه تعالىٰ ربط الأسباب بمسبّباتها، فلو أنّ الإنسان لم يمت لفترة جيلين مثلاً أو أكثر فحينها لن يجد مقدار شبر من الأرض ليسكن فيه، بل إننا سنجد خصومة على كل شبر فيها؛ ولذا فإن اللّه تعالىٰ قدّر لكل إنسان أن تنتهي فرصته في الحياة عند أجل معيّن كي يفسح المجال للآخرين على الأرض ليعيشوا.

وعليه فإن السماء تنظر إلى المسألة من زاوية تختلف عن الزاوية التي ننظر منها نحن إليها، بل إن وجهة نظر السماء تختلف عن وجهات نظرنا في كل شيء.

---

(١) آل عمران: ٣٦.

ثم إنّ الموت لا ينهي الإنسان ولا يعدمه، بل إن كل ما يحصل هو أن يستردّ التراب قسمه من هذا الجسم، أما الروح فإنها تنتقل إلى مكان آخر وتعيش فيه. وهذا ما عليه مأثوراتنا الإسلامية وأدلتنا العلمية، فالموت لا يعدمنا وإنما يفرّق بين أجسادنا وأرواحنا.

إذن لابدّ من تصحيح هذا المفهوم عند الناس «الذي يدلّني عند الموت يدلّني عند الرزق»، والآية الكريمة تبيّن للإنسان أنّ عليه أن يسعىٰ ويجتهد كي يحصل على مبتغاه، وإلّا فإنّه لن يحصل على شيء أبداً؛ لأنّه إنّما يحصل على ما يريد فيما إذا استخدم السبب الطبيعي، فإن لم يستخدم السبب الطبيعي فإن الأرض ستمتلئ بالناس الذين لا عمل لهم، والذي يظلّون ينتظرون من السماء أن تهيّئ لهم ما يحتاجون إليه.

إن اللّه تعالىٰ استعمرنا في الأرض وأراد منا أن نسخّر الأسباب الطبيعية كافّة في تسيير اُمورنا الحياتية. وعمارة الأرض تشتمل على جوانب مادية وجوانب معنوية، ونحن مسؤولون أمام اللّه تعالىٰ أن نملأ كل أبعاد هذا الفراغ حتى نصل إلى مرحلة إعمار الأرض. فمفهوم انتظار الرزق دون إخضاعه إلى السبب الطبيعي هو مفهوم مخطوء وبحاجة إلى تصحيح، وهذا ما ندب إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَهُزِّي﴾.

وهناك أمر أثاره البعض من المتزهّدين وهو أنّ العمل ينافي التوكّل؛ لأن معنى أن يعمل الإنسان: أنّه ليس له ثقة باللّه تعالى من حيث إنّه سيكفل له رزقه، فهو حينما يعمل فإنّما ينتظر ثمار عمله بعيداً عن اللّه تعالىٰ. ولو أنّ هذا يمتلك أدنىٰ قدر من التوكل على اللّه تعالى لترك العمل؛ لأنّ التوكّل سيهيّئ له كل مطالبه. وهذا الاعتقاد غلطة كبيرة، فالعمل لا ينافي التوكّل على اللّه مطلقاً، ولا ينافي الزهد

كذلك؛ لأنّ الزهد هو أن يأكل الإنسان من حلال[1]، أمّا أن يعيش الإنسان كلّاً على الآخرين فهذا بعيد كل البعد عن الزهد الحقيقي.

ومما يروىٰ في هذا المجال أنّ رسول اللّه ﷺ كان جالساً إذ جاءه اثنان يحملان رجلاً لا يقوى على الحركة، فسأل عنه، فقالا له: إنه أخونا، وقد انقطع للعبادة. قال: **«ومن يطعمه ويسقيه؟»**. قالا: نحن. قال ﷺ: **«أنتما أعبد منه»**. فالذي يعمل يعتبر أكثر عبادة من غيره؛ لأن العبادة إنما تأتي بعد إحراز الرزق، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«النفس إذا أحرزت معيشتها اطمأنت»**[2].

فعندما يتوجّه الإنسان في محرابه إلى اللّه وهو يعلم أن ليس في بيته رغيف خبز وأنّ أطفاله جياع فإنّه سوف لن يتمكن من أن يتوجّه بقلب خالص وانقطاع تامّ إلى اللّه تعالىٰ، ولن يتمكن من ضبط قراءته، وسيبقىٰ جزء من مراسيمها غير صحيح أو غير مراعى فيه جانب الكمال. فمتى ما أحرزت النفس قوتها توجّهت بقلب مطمئن إلى العبادة. وهذا هو معنى الحديث الشريف: **«لولا الخبز ما عبد الله»**[3]. أما إذا كان ذهنه مملوءاً بالشعور بالفراغ، فإنّه يصبح بأمسّ الحاجة إلى العمل قبل أن يقدم على العبادة.

فالسعي والطلب للرزق، والتوكّل الواعي على اللّه تعالى هو أوّل أهداف الآية، وهو معنى أخذه الشاعر فقال:

---

(١) انظر محاضرتي (أمير الزاهدين عليه السلام) ج ٥، و(الزهد في حياة علي عليه السلام) ج ٦ من كتابنا هذا.

(٢) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكافي ٥: ٨٩ / ٣، والعلل (ابن حنبل) ٣: ٤٠٢ / ٥٧٧٤، وغيرهما لسلمان ﵁.

(٣) الكافي ٥: ٧٣ / ١٣، وفيه: «ما صلينا ولا صمنا، ولا أدّينا فرائض ربّنا»، المبسوط ٣٠: ٢٥٨، تفسير السمعاني ٤: ١٣٢.

توكّل على الرحمن في الأمر كله ولا تركنن للعجز يوماً عن الطلبْ
ألم تـرَ أن اللـه قـال لمـريم وهزّي إليك الجذع يساقطْ الرطبْ
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كلّ شيء له سببْ[1]

ففي الآية عبرة واضحة، وبيان لبعض المفاهيم المخطوءة التي تعيش في أذهاننا، وهي أنّ الإنسان يأتيه رزقه عفواً، وتبيّن أن الأُمور مرهونة بأسبابها الطبيعية.

المبحث الثاني: العطاء المعرفي في القرآن

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾. إن المسلمين كانوا متّجهين بمجامع قلوبهم نحو القرآن عند نزوله؛ لأنّهم كانوا ينتظرون أن يأخذوا جميع حاجاتهم وتشريعاتهم من مضامين القرآن، حتى الطعام والشراب واللباس ومستلزمات الحياة الحرة الكريمة. ولذلك فإن تلك الفترة أنجبت شريحة علمائية أغنت الدنيا بالنظريات. فنظرية الجاذبية مثلاً قبل أن يكتشفها نيوتن كان الرازي قد قال بها، وقرّر أن للأرض قوة قاهرة تجذب الأجسام والأشياء إليها. وكذلك نظرية النشوء والارتقاء حيث نلاحظ أن بعض الفلاسفة المسلمين قد تنبّه إليها ومنهم الملّا صدرا. وهذا ما أقرّ به أحد العلماء الأمريكيّين حيث قال: إن المسلمين قد سبقونا إلى نظرية النشوء والارتقاء، فقد كانوا يدرّسون هذه الظاهرة في مساجدهم.

وكان العلماء المسلمون في ذلك الوقت أبعد مدىً وأوسع انتشاراً في تأسيس

---

(١) أحكام القرآن ٣: ٢٤٩. تفسير الآلوسي ١٦: ٨٥، أضواء البيان ٣: ٣٩٩، المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٥٤٧.

النظريات العلمية وتطبيقها، كما نجده عند الحسن بن الهيثم حيث إنّه ذكر أن الضوء والصوت عبارة عن أجسام وليسا عبارة عن كيفيات ثم يبرهن على ذلك. وكذلك ما نجده عند هشام بن الحكم وجابر بن حيان من نظريات في مجال علم الكيمياء. وقد استمرّ هذا حتى عصور متأخّرة، فحينما نقرأ كتاب (علم اليقين) للمحدّث الكاشاني فإننا سنجد فيه نظريات غاية في الروعة، كنظرية النشوء والارتقاء حيث إنّه يشرحها بصورة مفصّلة ورائعة.

وهذا اللون من العطاء كان من خصائص المسلمين عندما كانوا متوجّهين إلى القرآن يستوحون منه حضارتهم وثقافتهم وإنسانيتهم ومعرفتهم، كان عبد اللّه بن عباس ﷺ يقول: «إن في القرآن معاني يفسّرها الزمن». ومعنى هذا أنّ على المسلمين ألّا يتصوّروا أنّ القرآن كتاب حلال وحرام وأخلاق فقط بل هو أبعد من ذلك؛ فعن الصادق ﷺ: **«ما الحلال والحرام جنب العلوم في القرآن إلّا قليل»**. أي أن هناك معلومات عظيمة يحتوي عليها القرآن في جوانب المعرفة كافّة إلى جانب مسائل الحلال والحرام.

غير أنّ الذي يحزّ في النفس ـ وهو ما حصل في العصور المتأخّرة ـ أنّ المسلمين راحوا يمتحون المعرفة والعلم من مصادر أُخرىٰ بعيدة عن القرآن وبعيداً عنه. وهذه المصادر دنيوية، ظانّين أنها ستنهض بهم، لكن للأسف لم يولد لنا بعد من هو كابن الهيثم والرازي في عطائهما العلمي، وكذا مثل غيرهما من علمائنا الأوائل الذين أغنوا الدنيا بميراثهم العلمي. وسبب هذا طبعاً والسرّ فيه يرجعان إلى أن المسلمين أعرضوا عن مصادر ثروتهم العلمية.

وأرجو ألّا يفهم من هذا أننا نمنع الناس من البحث عن المعرفة، بل ما أُريده هو العكس من هذا تماماً؛ فالإسلام لم يجئ لأجل الحجر على العقول، بل إنّه جعل

الحكمة ضالة المؤمن وأمرنا بأخذ المعرفة من أي مصدر. فأي طريق نستطيع أن نحصل عبره على المعرفة يجب علينا أن نسلكه لتحصيلها على أية صُعُد كانت سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك، لكن ما أُريده هنا هو ألّا يُهجر القرآن، بل أن يُجعل أحد مصادر معرفتنا وعلومنا ورافداً من روافد حضارتنا المعرفية، وأن نرى هل إن فيه ما يغني مجتمعاتنا أم لا.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم لا يمكن أن يغني مجتمعاتنا في كل مجالات الحياة الخاصة والعامة، العلمية وغيرها، لكن ينبغي علينا ألّا نبتعد عنه وألّا نغفل ما فيه. وهذا ـ ابتعاد المسلمين عنه ـ هو الذي يحصل الآن؛ حيث نجد أنّه حتى الإنسان المتديّن لا تعدو قراءته فيه بضع آيات لأجل التبرّك به، ثم بعد ذلك ينغمس في مشاكل الحياة وصراعها ومصارعتها. وقد يقرأ البعض الشيء اليسير منه ليهدي ثوابه إلى الميت، مع أنّ في القرآن عطاءً علمياً كبيراً ومنهجيّة رائعة، لكن هذا الجانب لم يفكّر فيه أحد؛ مما أضعف ثقة المسلمين بكتابهم.

العوامل التي أضعفت ثقة المسلمين بكتابهم

إن هناك عدّة عوامل ساعدت على حصول مثل هذه الظاهرة، لعلّ أوّلها وأشدها خطراً هو آراء المستشرقين وأداؤهم، فهؤلاء هم الذين لعبوا دوراً مروّعاً في تعميق هذه النظرة عند الناس ضد القرآن، حتى إنّ أحدهم يقول: «حينما أقرأ شيئاً من القرآن أُصاب بالغثيان». ولسنا ندري ما الذي لا يعجبه في القرآن ويثير عنده هذا الأمر؛ وهل يعجبه الزواج المثلي الذي تقرّه حضارته؟ وهل مثل هذه الحضارة تعدّ حضارة إنسانية؟

إن القرآن الذي يحمل أرقىٰ المفاهيم الإنسانية، ويستهدف بناء الأخلاق والروح والجسد، كيف يمكن أن يكون عاملاً يثير الغثيان عند الإنسان حينما

يقرؤه؟ ومع هذا التهافت فإن حملة هؤلاء أضعفت ثقتنا بمصادر معرفتنا، وجعلتنا نتساق خلف الحضارات الغربية الزائفة.

ما الذي يوفّره التمر للحامل؟

ولنا أن نتساءل عن الغاية من أمر القرآن الكريم مريم عليها السلام بأكل التمر، وهو أمر ينسحب على كل حامل، ويقال في ذلك: إن العلم الحديث قام بتحليل محتويات التمر، فوجد فيه أشياء كثيرة تساعد الحامل على الطلق والولادة. وهكذا نجد أن من فوائد التمر للمرأة التي تكون في حالة المخاض:

١ ـ أنّ فيه موادَّ تقوم بتحريض الجنين على الحركة والانزلاق أثناء عملية الطلق أو المخاض. وهذه الموادّ المحرّضة تساعد الجنين على الخروج بسهولة.

٢ ـ أن فيه موادَّ غذائية كاملة[١] كالبروتينات والأملاح المعدنية والسكريّات.

٣ ـ أنّ فيه موادّ حينما تصل الأمعاء تقوم بتفريغها وتحريضها على التخلّص من الفضلات المتخلّفة فيها، وهو ما يساعد في عملية الولادة أيضاً.

٤ ـ أنّ فيه موادّ تمنع نزف الدم وتعمل على إيقافه إن حصل.

المبحث الثالث: في معنى ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾، طعاماً ناضجاً لذيذاً يوفر لك

---

(١) يشار إلى أنّ علماء الأغذية الاختصاصيّين يقسّمون الأغذية إلى ثلاثة أقسام هي:
١ ـ أغذية الصحة. وهي الأملاح والمعادن والفايتامينات.
٢ ـ أغذية الطاقة. وهي السكريات (البسيطة، والثنائيّة، والمعقّدة المعروفة بالكاربوهيدرات) والدهنيّات.
٣ ـ أغذية البناء. وهي البروتينات.
وكل هذه الأقسام موجودة في التمر.

ما تحتاجينه في تلك اللحظة، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾، وهنا تكمن بعض الجوانب الحريّة بالبحث. وللمفسرين في هذا المورد آراء منها:

الرأي الأوّل: السرور الحاصل من أداء المرأة وظيفتها

فقرار العين هو ما يسبّب لها الفرح؛ حيث إن مهمّة المرأة هي الأُمومة، وهي غايتها من التبعّل ورغبتها وراءه. والأُمومة أحد أهم المقدّسات التي تقوم بها الأُم؛ لأنّها تعني بناء المجتمع الذي هو عبارة عن منظومة من الأُسر التي يمكن أن تكون صالحة فيصلح بصلاحها، أو طالحة فيضيع بضياعها. وأوّل من يبني الأُسرة الأُم، لأنّها العنصر المباشر الأوّل في تربية أبنائها؛ فإذا ربّتهم على الصلاح نشؤوا وشبّوا عليه وبالتالي تصلح الأُسرة، وإلّا فإن الأُسرة ستضيع. وهذا طبعاً إن حدث فهو إنّما يكون بسبب تخلّي الأُم الواضح عن أداء دورها ووظيفتها في بناء الأُسرة.

المرأة والأُمومة في العصر الحديث

وهذا الأمر يحصل حالياً على مستوى واسع وعريض في مجتمعاتنا، وهو ما يظهر على نمطين في تفكير المرأة:

الأوّل: أن البعض من النساء يعمدن إلى استعمال موانع الحمل بحجّة أنّ الحمل يضيّع عليها فرصة الاهتمام بجمالهن ورشاقتهن، أو أنّه أصلاً يشوّه مواطن الجمال عندهن.

الثاني: أنهن إنما يتزوّجن ليمارسن حريتهن التي من أبرز مصاديقها العمل والحصول على وظيفة معينة في مكان ما لتكسب ما يمنعها من أن تكون تحت وطأة الحاجة إلى غيرها، أو الفقر. والولادة وتربية الأطفال من أشدّ العوامل وأقواها في منعهن من ممارسة هذا الحق وتطبيق هذه الحرّيّة، فهن يصرخن بأنهن

لم يُخلقن أو يتزوّجن ليكنّ مربيات. وإن تنازلت إحداهن قليلاً وحملت فإنّها بمجرد أن تلد تعمد إلى تسليم الوليد إلى مربية تسهر عليه وتلاحظ شؤونه وحاجاته التي لا يمكن أن يوفّرها له أحد مهما كان سوى الأُم نفسها.

المرأة والعمل

إن الإسلام لا يمنع المرأة من العمل، فهو يضمن لها هذا الحق، لكن في نطاق مشروط، أمّا النطاق فهو أن تكون فعلاً محتاجة وليس لها من يعولها وأطفالها وينفق عليها، ويوفّر لها مستلزمات الحياة والعيش، أمّا الشرط فهو ألّا تتخلّىٰ عن أداء دورها الأساسي المناط بها وهو دور الأُمومة ورعاية الأطفال وتنشئتهم. فإن كانت المرأة من بيت غني موسر فما الموجب للعمل؟ بل إن بعض النساء الموسرات تتعدىٰ هذا وتقوم بتسليم أطفالها ـ كما قلنا ـ إلى مربية لتقوم على شؤونهم وتسهر على راحتهم وكأنها هي الأم وكأن الأُم ليست كذلك.

وكل هذا لأجل العمل أو لأجل أن تثبت صرختها: أنا لست مربية أطفال، وكأنها تتناسىٰ ما الذي يمكن أن يحدث لأطفالها من ضياع عاطفي أو نفسي، أو ما سيشعرون به من نقص حنان ومشاعر لا يمكن لأحد أن يوفّرها لهم سواها. هذا فضلاً عن القيم التي سيفتقدونها؛ لأنّها ضُيّعت عليهم؛ إذ أن من المفترض أن يمتصّوها مع اللبن الذي يشربونه من صدرها.

إن هذه الشريحة من النساء تغفل أو تتغافل عن أمور منها أن الطفل لا يرتضع اللبن فقط، وإنما هو يرتضع معه الأخلاق والقيم والآداب والعاطفة والحنان، وغيرها، وكل هذا إنما يحصل حينما يكون الطفل في حجر أُمّه يشمّ رائحتها. فهؤلاء يتناسين أنّ حجورهن مصانع تنتج الإنسان السليم المتوازن، حيث إنها

(الحجور) تلقنه الكلمة الطيّبة، وتركّز عنده المثل والقيم والأخلاق، وتخلق عنده حالة من التوازن العاطفي.

هذا مع ضرورة التنبّه إلى أن كل هذا لا يحصل إلّا إذا كانت المرأة ملتزمة بدينها، حيث إنه يفترض بالمرأة المسلمة أن تكون محافظة على أُمور دينها، ومراعية لأحكام الإسلام، وقارئة للقرآن وملتزمة بمضامينه، وأن تلتزم بقول اللّه تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[١].

فهذه هي التي تحمل المسؤولية كاملة في بناء الجيل والمجتمع، أمّا إذا تركته للمربية التي ربما لم تكن مسلمة أو أنها مسلمة غير ملتزمة فتشرب الخمر، أو حتى إذا كانت مسلمة غير فاسقة لكنها لا تلتزم بآداب المنطقة وعاداتها وأعرافها؛ لأنها غريبة عنها ولا تعرفها، فإن النتيجة التي ستخرج بها جرّاء هذا التصرّف أن الجيل سيكون فارغاً من أي محتوىً ومضمون، بل وسيكون بعيداً عن الدين والآداب والقيم والأعراف التي نشأ عليها مجتمعه.

وكل هذا بطبيعة الحال نتيجة تخلّي الاُم عن أداء دورها في الحياة وهو الاُمومة، وهو تخلٍّ ناشئ أساساً عن تخلّي الرجلِ عن دوره في قوامة البيت التي منحه اللّه تعالى إياها. وليس المقصود من هذه القوامة أن يمارس الديكتاتورية في بيته مع زوجته وأطفاله، معاذ الله، بل المقصود بها القوامة التي تقع ضمن دائرة التصريح الإلهي الممنوح له دون أن يتجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الشارع المقدس له. وكلّ ما في الأمر أن القوامة أساساً إنما حدّدها الشارع بالرجل؛

---

(١) التحريم: ٦.

لتركيبته، ولكيلا تتعدّد الزعامات في البيت فيضيع ويضيع الأطفال معه.

وعليه فقوله تعالىٰ: ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ يعني افرحي بما منحك اللّه تعالى من دور ستقومين به، وهو دور الأُمومة الذي يعني رؤية الأُم امتدادها الطبيعي في الحياة؛ إذ أن المرأة التي لا تلد مثلُها كمثل قطعة أرض تُبذر فلا ينبت نباتها، فيصاب صاحبها بالحسرة والإحباط. وهذا ما يحصل للمرأة حينما لا تلد، فهي لن ترىٰ ثمرة الزواج؛ مما يزيد عليها ضغوطها النفسية وآلامها.

الرأي الثاني: قيام الولد بدوره تجاه أمّه

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾: النوم الهادئ الذي يوفّر مسببات الراحة والسكينة والهدوء والطمأنينة لصاحبه سيّما إذا كان هذا النوم بعد مرور الإنسان بظروف عصيبة شديدة، وهو ما حصل مع السيدة مريم عليها السلام؛ حيث إنّها قد مرّت بعبء ثقيل من آلام حمل وآلام ولادة. وهذا بطبيعة الحال ما يحصل مع كلّ أُمّ؛ لأنّها تتحمّل آلام الولادة والتربية والسهر على راحة الوليد؛ ولذا فإن المنتظر من الولد بعد ذلك أن يقوم هو بدوره تجاه أُمه، وأن يرد لها تعبها وسهرها في سبيله. وهذا يتركّز أكثر فيما لو عرف الولد أن الأُم قد أفنت شبابها وقوّتها في العمل من أجل توفير لقمة العيش والقوت له ولإخوته. ولذا فإن الولد مطالب بأن يقوم بدور رعاية الأُم بعد كبرها، وبعد بلوغه السنّ التي تؤهّله لأن يقوم بذلك الدور.

الشاب المسلم على ضوء الواقع الحديث

إن الكثير من شبابنا اليوم يعيشون واقعاً غير واقعهم، وهو أمر محزن ومؤلم، لأن تقليد هؤلاء لأبناء الغرب في أُسلوب حياتهم ومعطياتها جعلهم يدخلون

مطبّات من الضياع يصعب تجاوزها وعدم التوقف عندها لتدارسها ولوضع حلول لها. فالكثير من أبناء هذا العصر يعمد إلى ترك والديه بمجرد أن يلج قفص الزوجية، وعندها لا يفكر ولن يفكّر بزيارة والديه إلاّ في مناسبات متباعدة حيث يأتي كأي غريب آخر فيزور أبويه ويقدم لهما باقة ورد ثم يخرج كما يخرج أي زائر آخر غيره لا تربطه بهما علاقة دم وصلة رحم.

إن هذا الجوّ في الواقع لا ينسجم مع الجوّ الإسلامي الذي أمر اللّه تعالى المسلمين أن يعيشوه من حيث التزاور والتراحم والتعاطف وصلة الرحم ووجوب طاعة الوالدين وتقديمها على كل طاعة عدا طاعة اللّه تعالىٰ. فاللّه تعالىٰ حرّم الإساءة إليهما بأي شكل كان ومهما بلغ قدره صغراً: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾**[1]. ذلك أنّ الأم لا تستقذر من ابنها ما تستقذر من غيره وما يستقذره غيرها منه.

وهذا ما يذكّر القرآن الكريم الولد به، فيقول له: إن أبويك إذا بلغا مبلغاً من السن يستقذرهما فيه غيرك، فلا تستقذرهما، و**﴿لاَ تَقُلْ﴾**لا تقل لذلك: **﴿أُفٍّ﴾**. وهذه عملية مقايضة؛ فالوالدان أعطيا الولد كل قوّتهما وطاقتهما أثناء تربيته ونشئته، وغذّياه مع طعامه عطفهما وحنانهما وحبّهما، فعلى الولد إذن أن يقابلهما على أقل تقدير بمثل ما عاملاه به.

ثم إن على الولد إن عقّ والديه أن يتوقع من أبنائه مصيراً مماثلاً عند كبره، فمن الغالب أن قانون «كما تدين تدان» يسري هنا؛ فيقع الولد في فخ عقوقه لوالديه،

---

(١) الإسراء: ٢٣.

وابتعاده عنهما، وعدم تطبيق قواعد البر التي أمره اللّه بها معهما. فاللّه تعالى وضع لنا قوانين ثابتة لها تأثيرات كبيرة على مصير الإنسان في الآخرة، كما أنّ لها تلك التأثيرات عينها في الدنيا التي منها ما ذكرنا من أن عدم برّهما يؤدي إلى عدم برّ أبناء عاقّهما به.

ومن غريب تصرّفات الأبناء تجاه آبائهم ـ وهو مثال واضح على العقوق ـ أن الأبوين إذا شعرا بعدم الراحة والاستقرار، وأظهرا تململاً من ذلك فإن الأبناء يسارعون بإرسالهما إلى دور العجزة والمسنّين. وهذا من التصرّفات الغريبة على مجتمعنا الذي لم يألف سابقاً مثلها.. مجتمعنا الذي حتى لو رجعنا إلى ما قبل مئة سنة فإننا لن نجد عنده مثل هذه الأُمور والتصرّفات؛ فقد كان المجتمع الإسلامي إلىٰ هذا الزمن ـ قبل مئة سنة ـ يعيش حالة من التلاحم داخل الأُسر، فتجد كل بيت يضم عدّة أُسر لإخوة تزوّجوا وعاشوا مع والديهم في البيت نفسه الذي ولدوا ورُبوا فيه.

وفي مثل هذه الحالات يجد الرجل الكبير نفسه في بيت يملؤه عليه أبناؤه وأحفاده سعادة وهناءً كبيرين، وهو ما يرفع معنويات نفسه وثقته بالحياة، وحينها يشعر بلذّة الحياة ولذّة الخلف، لا أن يعيش الوحدة القاتلة واليأس والاكتئاب التي تجرّها عليه تركه في دار للعجزة يواجه مصيره بنفسه، ويصارع حياة اليأس بمفرده.

وربما يقول البعض: إن الدنيا قد تغيّرت والأحوال قد تبدّلت، فلم تعد مثل هذه التصرّفات مقبولة في عصرنا، أو أنّها تتناغم مع ظروف الحياة فيه وتتلاءم معها.

وكأن هذا القائل يتناسى أن هذا المظهر الإسلامي لا يخالف الحياة والواقع بشيء أبداً، فما المانع من أن يعيش الأبناء مع أبويهم في بيت واحد يضمّهم، فيملأ

أبناؤهم البيت على جدّيهم أثناء غيابهم عن البيت، وهم يصارعون الحياة لأجل كسب أقواتهم، ثم بعد ذلك يعودون عند المساء ليلتفّوا جميعاً حول أبويهما فيدخلوا السرور إلى نفسيهما والثقة بالحياة إلى قلبيهما؛ كي يعيشا ما تبقّى من عمرهما في هدوء وراحة بال وطمأنينة؟

كما أن هذا المعترض ربما يكون قد نسي أن هذين الأبوين هما القناة التي ولج منها الحياة، وهما من ربياه وغذياه وتحمّلا أذاه، وصارعا الحياة من أجله؛ فالواجب عليه إذن أن يردّ جزءاً يسيراً من هذا المجهود الذي بذلاه من أجله.

إن الصورة التي يرسمها الإسلام لنا في تعاملنا مع آبائنا هي صورة مشرقة تنبع أساساً من منطلق التلاحم والتراحم، فالإسلام يريد منا أن يخرج آباؤنا من الحياة عندما يقرّر اللّه تعالى ذلك، وفي أعينهم صورة سعيدة لأحفادهم وأبنائهم وهم يلتفون حولهم في كلّ حين ولحظة، بل وصورة للأُسرة السعيدة، لا صورة جدران دار العجزة التي تكتم على أنفاسهما، وتخنق طائر السعادة في قلبيهما، يكتنفهما جوّ من الوحدة الخانقة؛ وحينها يخرجان من الدنيا بالحسرة والألم والقهر. يقول الأفوه الأبيوردي راسماً صورة للأُسرة المجتمعة السعيدة التي كانت تعيش آنذاك، يجمعها بيت واحد وقلب واحد وحبّ واحد:

إذا ما المرء صمّ فلم يكلمْ — وأودى سمعه إلا ندايا

وداعب بالعشيّ بني بنيه — كفعل الهر يحترش العظايا[1]

حيث إنّه يشرح لنا كيف أن الأب يجلس ليلاً في بيته وحوله أولاده وأحفاده الصغار يلعبون وهو يداعبهم؛ ممّا يشعره بالراحة؛ لأنّه يرىٰ فيهم امتداده الحي في

---

(١) الأمالي (المرتضى) ١: ١٧٠، بحار الأنوار ٥١: ٢٦٤، تاريخ مدينة دمشق ٣٥: ٢٥٠، الإصابة ٥: ٩٨، لسان العرب ١٤: ٢٠٠.

الدنيا، ووجوده الطبيعي فيها؛ لأنّه إنما يمتدّ ويستمرّ وجوده بهؤلاء الذين سيحيون ذكره، ويبقونه بين الناس وإن خرج هو من الحياة. فلماذا إذن نحرم الوالدين من هذه المتعة واللذّة، بل من حقّهما الطبيعي الذي أمر لهما اللّه تعالى به؟

وعليه فإن قوله تعالىٰ: ﴿وَقَرِّي عَيْنَاً﴾ يشير إلى ما يجب على الولد أن يفعله لأبويه بعد كبرهما وعجزهما، حيث إنها تشير للأُم بأن تنام رغداً؛ لأن اللّه تعالى قد وهبها من يقوم على شؤونها، ويسهر على راحتها عند كبرها وعجزها.

أثر التربية على الأبناء

هذا مع أنّ بعض الأولاد يتمنى آباؤهم لو أنهم لم يولدوا، صحيح أن الولد قرّة عين أبويه وريحانتهما، لكنه إنما يكون كذلك إذا اُحسنت تربيته، ولم يترك دون رعاية وعناية، أمّا إذا ترك دون ذلك فإنه سوف يصبح أذىً ومشكلة. وهذا يدفع بنا إلى القول بأن الولد السيّئ لا يتحمّل الوزر وحده، بل إن أبويه يشاركانه هذا الوزر؛ بعدم تربيتهما له أو بسوئها. وفي الحديث الشريف: «**لأن يربي أحدكم جرو كلب خير له من أن يربي ولداً لصلبه**»(١).

وهذا ما حدث فعلاً، ففي أوروبا مثلاً لا يمشي أغلب الناس إلّا وفي أيديهم جراء كلاب يجرّونها خلفهم. وقد سألت بعض البريطانيّين عن هذا، فقيل لي: إن هؤلاء ما إن يكبر أولادهم حتىٰ يتركوا البيت الذي عاشوا فيه ويخلّفوا فيه آباءهم وأمهاتهم يخالطون الوحدة ويعيشون معها؛ مما يضطرّ هؤلاء إلى أن يربوا الكلاب ليأنسوا بها؛ كونها لا تفارقهم ليلاً ولا نهاراً فضلاً عن وفائها وقناعتها، وهو ما لا

---

(١) المستدرك ٣: ٣٤٣، مجمع الزوائد ٤: ٢٥٩، المعجم الكبير ١٠: ٢٨٨ / ١٠٦٨٥، المعجم الأوسط ٥: ١٢٦.

يكون عند الأعمّ الأغلب من الأبناء الذين لا يحملون أي ذرّة من الوفاء لأهليهم، بل إن بعضهم ينتظر بفارغ الصبر الساعة التي يموت فيها الأب؛ حتىٰ يرثه ويستولي على أمواله.

ولست أدري لم غزتنا هذه التربية التي هي لون بعيد كل البعد عن ألوان التربية الإسلامية، كما أنّ الذي ينبغي علينا هو أن نعود إلى جذورنا وأن يفهم كل ولد أنه قرّة عين أبيه وأُمّه، فلا يخيّب هذه النظرة التي يرجوها الأب في ابنه، ولا يكن هذا الولد خلاف ما أمره اللّه تعالى من برّ والديه اللذين يعدّانه ريحانة حياتهما ووجودهما، يقول أحد الأُدباء:

غـداةَ أُغـطّيكم بـصدري وأنـحني	فترقص أضلاعي لكم والخواطرُ
طلبت من الليل السماءَ لرغبتي	بأن ترقدوا والليل همس محاذرُ
أجل وسألت النجم أن يصنع السنا	طـيوفاً وأن يدنو لكم لتحاوروا
فلا تحسبوا أنـي نسيت وجوهكم	فـبالنفس منها قـاطن لا يـغادرُ
سأحفظكم من بعد موتي براعماً	تـرفّ عـلى روحـي بـهن بشائرُ

فالولد إن لم يكن كذلك كان دمعة حارّة في العين، وحسرة جارحة في القلب، وأسى قاتلاً. وليس هناك من لوعة تمرّ على قلب الأبوين أعظم من لحظة تمرّ عليهما وهما يفتقدان أحد أبنائهما فيها؛ ذلك أن فقد الولد لا يعادله شيء، فهو يجعل الوالد يتهاوىٰ أمامه، وهذا ما حصل لسيد الشهداء وأبي الأحرار الإمام أبي عبد اللّه الحسين عليه‌السلام حينما عزم الأكبر على الخروج إلى القتال وقد احتضر فيها الإمام الحسين عليه‌السلام ثلاث مرّات:

الأولىٰ: حينما برز أوّل مرة إلى القتال، فكان أن احتضنه الإمام الحسين عليه‌السلام، وجمع يديه على رقبته وضمّه إليه، إلى أن سقطا إلى الأرض مغمىً عليهما.

الثانية: حينما رجع الأكبر منادياً: أبه، العطش قتلني، وثقل الحديد أجهدني، وقد أجابه الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «**بني بادر إلى أمّك**».

الثالثة: حينما سقط شهيداً على أرض الشرف وهو ينادي: عليك مني السلام أبا عبد اللّه.

وهنا أقبل إليه أبو عبد اللّه عليه السلام مهرولاً إلى أن انتهىٰ إليه، وألقىٰ بنفسه عليه محتضناً إيّاه، واضعاً فمه الشريف على ضمه، ثم راح يشمّه:

ومحا الردى يا قاتل اللّه الردىٰ	منه هلال دجىً وغرةَ فرقدِ
يا نجعةَ الحيّينِ هاشم والندىٰ	وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ
كيف ارتقت همم الردى لك صعدة	مطرورة الكعبين لم تتأوّدِ
أفديه من ريحانة ريّانة	جفّت بحرّ ظما وحرّ مهندِ
بكر الذبول على نظارة غصنه	إن الذبول لآفة الغصن الندي
للّه بدر من مراق نجيعه	مزج الحسام لجينه بالعسجدِ
ماء الصبا ودم الوريد تجاريا	فيه ولاهب قلبه لم يخمدِ
لم أنسَه متعمّماً بشبا الظبا	بين الكماة وبالأسنّة مرتدي
فلتذهبِ الدنيا على الدنيا العفا	ما بعد يومِك من زمانٍ أرغدِ

فهرس العناوين الرئيسة



المحتويات

